الفكر الإسلامي

في مواجهة التيارات الفكرية المعاصرة

تأليف

الدكتور

يحيى هاشم حسن فرغل

أستاذ ورئيس قسم العقيدة والفلسفة

ووكيل كلية أصول الدين والدعوة بالأزهر بطنطا

الطبعـــة الأولى

١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

المقصود بالتيارات الفكرية فى هذه الدراسة بخاصة : التيارات الفكرية التى تمس العقيدة الاسلامية بشىء من الخطر يهدد بالخروج من نطاقها الى نطاق الالحاد • ولابد لنا من هذا التخصيص : أولا لأنه من غير الممكن أن نتناول التيارات الفكرية بالدراسة على وجه الاطلاق ، لأن هذا يعنى دراسة تيارات الفكر الانسانى فى جميع العصور وفى جميع الاتجاهات ، وهذا أمر مستبعد بداهة ، وثانيا : لأن دراسة التيارات الفكرية ينبغى أن تتجه الى اصولها، وهذا هو الذى يوجهنا الى أن تكون هذه الدراسة متعلقة بما يمس العقيدة الاسلامية ، وثالثا : لأن ما يمس العقيدة لاسلامية من هذه التيارات هو فى الأغلب يشكل خطرا على هذه العقيدة كما سيتبين لنا فيما بعد •

أما المقصود بخصوص المعاصرة فى هذه التيارات فذلك يتبين بعد القاء نظرة على التيارات الفكرية التى تمس العقيدة الاسلامية بوجه عام•

ذلك اننا نجد أن التيارات الفكرية التى يمكن أن تهدد العقيدة الاسلامية تأتيها من ثلاث جهات :

الجهة الأولى :

ادعاء الاعتماد على العقل المستقل ، وذلك عندما يسفر هذا الادعاء عن تقرير أمور تتعارض مع العقيدة الاسلامية : كالقول بقدم العالم ، وان الله تعالى لا يعلم الجزئيات ، وان البعث لا يكون الا بالروح •• الخ •

الجهة الثانية :

ادعاء الاعتماد على الاتصال الروحى وذلك عندما يسفر هذا الادعاء عن تقرير أمور تتعارض مع العقيدة الاسلامية كذلك : كادعاء الالوهية ، وادعاء النبوة بعد محمد صلى الله عليه وسلم ، وادعاء العلم بالغيب الذى لم يأت صريحا فى الكتاب أو السنة •

الجهـــة الثالثـــة :

ادعاء الاعتماد على « العلم » والمقصود بالعلم هنا العلم التجريبى وفقا للمصطلح الحديث ، وذلك عندما يسفر هذا الادعاء عن تقـــرير أمور تتعارض مع العقيدة الاسلامية أيضا : كالقول بانكار الغيبيات والقول بكفاية القوانين الطبيعية والاستغناء بها عن الارادة الالهية ، والقـــول بكفاية العلم والاستغناء به عن الوحى فى المعرفة والقيم •

ومن الواضح أن التيارات الفكرية التى تأتى من الجهـــة الأولى لا تتصف بالمعاصرة وان كان لها وجود فى الفكر المعاصر ، لأن منبعها قديم، فقد ظهرت هذه التيارات منذ أن اصطدم الدين بالفلسفة ، وهى تيارات موجودة فى الفلسفة اليونانية وما يسمى بالفلسفة الاسلامية عند الفارابى وابن سينا وغيرهما • والمجال لدراستها مفتوح فى دراسة الفلســـفة بأنواعها المختلفة ، واذن فمثل هذه التيارات مستبعدة منهجيا من هذه الدراسة •

ومن الواضح أيضا أن التيـــارات الفكرية التى تأتى من الجهـــة الثانية — ادعاء الاعتماد على الاتصال الروحى — لا تتصف بالمعاصرة وان كان لها وجود فى التيارات المعاصرة ، لأن منبعها قديم ، فقد ظهر هذا الادعاء الكاذب فى نفس الوقت الذى ظهر فيه الادعاء الصادق ، وهى تيارات موجودة فى تاريخ الاسلام ابتداء من مسيلمة الكاذب الى الحاكم بأمر الله ، الى بعض المذاهب الصوفية الزائغة الى البابية والبهائية فى العصر الحديث • والمجال لدراسة هذه التيارات مفتوح فى دراسة الملل

والنحل والفرق والاديان ، واذن فمثل هذه التيارات ينبغى أن تستبعد منهجيا من هذه الدراسة •

يبقى لدينا بعد ما تقدم : الجهة الثالثة وهى التيارات التى تأتى من ادعاء الاعتماد على « العلم التجريبى » فى الأمثلة التى نذكرها فيمايلى، ذلك لأنه يمكننا أن نقول ان هذه التيارات نبعت فى عصرنا الحاضر : عصر « العلم » ، و« فلسفة العلم » ، اذ من الواضح أن التيارات الفكرية المعادية للدين فى الحضارة اليونانية ، أو الاسلامية ، أو فى أوربا فى العصور الوسطى ، لم يكن لها نصيب من ادعاء الاستناد الى « العلم التجريبى » ، لسبب بسيط هو أن العلم التجريبى فى تلك العصور لم يكن له صوت يذكر فى أحوال ، أو أنه كان يعمل تحت رعاية الدين فى أحوال أخرى ، أما فى عصرنا الحاضر عصر « العلمانية » أو بعبارة أخرى عصر استبعاد الدين من مجال العلم والسياسة والاخلاق ، فقد تولى رعاية النشاط العلمى فيه وتأصيله واستنباط نتائجه مفكرون علمانيون أو مفكرون ملحدون ، وهذا هو الأمر الذى سمح بظهور هذا النوع من التيارات الفكرية المعادية للدين والتى تدعى الاستناد الى العلم التجريبى أو فلسفة العلم ، ومن هنا نقول ان هذه التيارات هى التى تستحق وصف المعاصرة ، وان هذه الدراسة ينبغى أن تتجه الى هذه التيارات •

وخلاصة القول : أن التيارات الفكرية المعاصرة ، التى نخصص لها هذه الدراسة ، ليست هى التيارات التى نجدها فى ادعاء الاستناد الى العقل أو فى ادعاء الاستناد الى الوحى ، وانما هى تلك التى نجدها فى ادعاء الاستناد الى « العلم التجريبى » ، وهى بعد ذلك التيارات الفكرية التى تؤدى الى الالحاد •

وقد سبق لى أن قدمت وجهة نظرى فى مقاومة التيارات الفكرية المعاصرة المعادية للاسلام ضمن نظرية شاملة : ترى ان هذه التيارات تنطلق جميعا من وجهة نظر معينة فى العلاقة بين الدين والعلم ، وتقدم

رؤيتها من خلال معتقدات ، فهى « دين » بوجه ما ، وتزعم لنفسها ثلاث قواعد :

١ — انكار الغيبيات •

٢ — ادعاء كفاية الطبيعة وقوانينها والاستغناء بها عن الله •

٣ — ادعاء كفاية« العلم التجريبى » أو المنهج « التجريبى » فى مجال المعرفة وفى مجال القيم •

وكانت نظريتى ترتكز على تصحيح العلاقة بين الدين والعلم ، وابراز معتقدية الاسس التى تقوم عليها تلك التيارات ، وضرب القواعد التى تنطلق منها •

وقدمت نظريتى تلك فى كتب ثلاثة هى : « عقائد العلم » و« الاسلام والاتجاهات العلمية المعاصرة » و« العقيدة الاسلامية بين الفلسفة والعلم » •

ومع اتساع الاطار الذى تتحرك فيه تلك النظرية الا أنها حالت بينى وبين معالجة بعض الجزئيات التى تتبناها التيارات المعادية ، كما وضعت القارىء أمام صعوبة الالمام بأطراف النظرية كلها ليرسخ فى ذهنه بطلان هذه التيارات •

لذا فقد رأيت أن أقدم فى كتابى هذا معالجة مبسطة من جانب ، تفصيلية الى حد ما من جانب آخر ، الا انها أولا وأخيرا لا تخرج عن حدود تلك النظرية التى اشرت اليها •

د• يحيى هاشم حسن فرغل

قويسنا : المحرم ١٤٠٦
اكتوبر ١٩٨٥

الفصل الأول

الالحـــاد

الالحـــاد : مفهومه وأهدافه .

الغزو الثقافى : أغراضه ، ووسائله ،ورد فعل الفكر الاسلامى ازاءه

الالحاد

مما تقدم تبين لنا أن المقصود بالتيارات الفكرية المعاصرة فى دراستنا هذه تلك التى تمس العقيدة بشىء من الخطر ، أو بعبارة أدق هى التى تنقل صاحبها الى دائرة الالحاد •

وهذا يقتضى منا أن نلقى بعض الضوء على مفهوم الالحاد وضوابطه وبواعثه ومؤسساته وميادينه وأهدافه ووسائله •

مفهوم الالحاد :

اذا أردنا عبارة شديدة الاختصار لمفهوم الالحاد قلنا هو : انكار المعلوم من الدين بالضرورة •

واذا أردنا شرحا لهذه العبارة قلنا : ان المعلوم بالضرورة بوجه عام فى الدين أو فى غيره ، هو المعلوم الذى لا يحتاج فى اثباته الى دليل • ومثاله فى الرياضيات : قولك : ان الواحد نصف الاثنين ، فاذا قلت ذلك لصاحبك لم يقل لك : هات الدليل ، ومثاله فى التربية الوطنية قولك : القاهرة عاصمة جمهورية مصر العربية ، ومثاله فى السياسة الدولية : قولك : ان الاتحاد السوفيتى عضو فى مجلس الامن •

واذن فالمعلوم من الدين بالضرورة هو كل أمر لا نحتاج فى اثبات وجوده فى الدين الى دليل ، كقولك : ان الاسلام يدعو الى الايمان بالقرآن كتابا منزلا ، والى الايمان بمحمد صلى الله عليه وسلم رسولا ، أو كقولك : ان كلمة « قل » هى أول كلمة فى سورة الاخلاص . وان الوقوف بعرفة ركن فى أعمال الحج •

واذن فالالحاد هو انكار أمر موجود فى الدين لا نحتاج فى اثباته

وجوده فيه الى دليل ، كبر هذا الأمر كالقول بوحدانية الله ، أو صغر كالقول بغسل الوجه فى الوضوء ، وذلك لأن انكار أمر من هذه الامور يصعد الى مرتبة الكفر لأنه يعنى تكذيب الله أو تكذيب رسوله ، وهــذا أقصى درجات الكفر •

ميادين الالحــاد :

فى الفلسفات الحديثة والمعاصرة منجدلية مادية وبراجماتية ووضعية ووجودية ، دعوات صريحة الى الالحاد • وحول المنهج العلمى تنســج أوهام من الالحاد باسم انكار كل ما لا يخضع للتجربة وباسم التطــور الذاتى وحتمية قوانين الطبيعة وعدم قابلية المادة للفناء •• الخ •

وفى التنظيم الاجتماعى سحابات من الالحاد : حيث تقوم بعــض الدعاوى فى هذا المجال على انكار الدين واعتباره طورا متخلفا من أطوار التقدم الاجتماعى أو انــكار دوره — عل الاقل — فى عمليــة التنظيم الاجتماعى ، وقطع علاقته بالسياسة أو علاقته بالاخلاق •

وفى قضايا التشريع نزوع الى الالحاد : حيث يهاجم الدين فى نظرته الى الرق والى تعدد الزوجات والى « قوامة الرجل على المرأة » وزيادة نصيبه على نصيبها فى الميراث وفى عقوباته التى يقررها فى جرائم السرقة والزنا والقتل •

وفى تدوين التاريخ تيارا تمن الالحاد : حيث يقدم الدين على أنه نتيجة لصراع الطبقات ومظهر من مظاهر التطور الاقتصادى : يصنف فيه الصحابة الى يمين ويسار ، ويقدم فيه رسول الله على أنه رسول لقيمة من قيم التطور الاجتماعى كالحرية أو غيرها من القيم الانسانية ، وتقدم الاديان بعامة على أنها السبب الاصيل فيما حدث من الحروب على مر التاريخ •

وفى أساليب التربية نزوع الى الالحاد ، فالفرائض الدينية تخضع للحرية الفردية والحرية قيمة من القيم يعمل بها ازاء عدد من السطات منها سلطة الدين ، والتجربة أسلوب لتكوين الشخصية يمـارس حتى بالنسبة للمحرمات • والترفيه عن النفس وتفريغ الكبت الجنسى بالاختلاط الخليع أصل من أصول التوجيه التربوى •

وفى فنون الأدب اشارات الى الالحاد : حيث توجه الاحتجاجات الصارخة ضد القدر وتصور بعض الشخصيات الروائية ، وهى تبحث عن الله بحثا مضنيا فاشلا، وحيثتقدم شخصيات رجالالدين والشخصيات العادية المتدينة فيصورة ممجوجة تثير التهكم والسخرية ، وتقدمالأديان بعامة على أنها فشلت فى حل مشاكل الانسان •

وفى بعض البحوث الاسلامية ذاتها تطلعات الى الالحاد ، اذ ينكر دور السنة فى التشريع ويقدم القصص القرآنى على أنه نوع من الفن الروائى لا يعبر عن الواقع التاريخى ، وتدرس القراءات على أنها نوع من الاجتهاد البشرى ، وحيث تقوم الدعوة الى اغفال النصوص المتعلقة بالجزئيات والاكتفاء بالمبادىء العامة التى يرضى عنها العقل ولا تختص بدين من الاديان •

وفى تكييف العلاقة بين الاسلام والاديان الكتابية تورط فى الالحاد حيث يسوى بينهما جميعا فى الايمان بالله • ويسوى بين الولى هنا والقديس هناك •

وفى ميدان العادات والاخلاق يحاول البعض فى وسائل الاتصال الثقافى والجماهيرى أن يلفتوا النظر الى مصدر للاخلاق الحميـدة — كالصدق والوفاء والاتقان فى غير الاسلام كالديانات المصرية القديمة ، متناسين ما فى تلك الديانات من وثنية ممقوتة •

هذه وتلك تيارات فكرية : تدعى غالبا الاستناد الى العلم أو الى

المنهج العلمى • أما عن الأشخاص الذين تتمثل فيهم تلك التيارات فكثيرا ما نجد الذين تتمثل فيهم تلك التيارات خالصة بحيث يأخذون حكمها خالصا •

لكن الصعوبة تكون فى كثيرين نجد فيهم خليطا عجيبا من الايمان والالحاد الذى تمثله واحدة من تلك التيارات •

وتقل الصعوبة فيمن يكون من هؤلاء عاميا أو شبه عامى أو نصف مثقف ، حيث ينبغى أن نرجحفى شأنه جانب الاسلام ، ونعذره فى جهله ببعض ما فى هذه التيارات من تناقض مع الاسلام ، وذلك الى أن نبين له هذا التناقض •

ولكن المدهش حقا أن نجد فى بعض المستويات العليا من المثقفين جمعا بين ظاهرة من ظواهر الايمان وبين فكرة من التيارات الالحادية تلك ، أو غيرها ، وقد قابلت بنفسى بعض هؤلاء وهم ممن يعتبرون من الصفوة من أساتذة الدراسات الانسانية •

وعلى سبيل المثال : قابلت واحدا من هؤلاء يصلى ويقرأ القرآن فى غير موقف من مواقف الرياء أو المداهنة ، لكنه فى مناقشة جادة يصرح بأن حديث القرآن عن الجنة ما هو الا تعبير عما رآه محمد صلى الله عليه وسلم فى صباه من روضات الشام •

وآخر يصلى كذلك ويصرح بان كثرة حديث القرآن عن موسى عليه الصلاة والسلام ما هو الا تعبير عن حالة نفسية سيطرت على محمد صلى الله عليه وسلم ازاء موسى ؟

وآخر يصلى أيضا ويصرح بان الحضارة الاسلامية محكوم عليها بالفشل فى العصر الراهن لأنها حبيسة الكلمة « وبعبارة أخرى لأنها مقيدة بالقرآن » ••

هذه نماذج غريبة حقا ، لأن أداءهم للصلاة ينتسب للاسلام ، أما أفكارهم تلك فهى الحاد محض ؟

فكيف جمع هؤلاء بين الامرين المتناقضين ؟

وأى هذين الامرين هو الذى يعبر عن حقيقتهم الداخلية ؟

لست أميل هنا الى الحل السهل الذى يدمغ هؤلاء بالنفاق فى ممارستهم لبعض مظاهر التدين بالاسلام، ولكنى أجزم بأنهم يجمعون فى ضمائرهم المزقة بين النقائض ، وانهم ضحية عصر البلبلة الثقافية التى يمر بها المجتمع الاسلامى ، وأنهم ينبغى ابعادهم عن مراكز التأثير فى الثقافة الاسلامية .

ضوابط الالحاد :

اننا اذ نتعرض لبيان ضوابط الالحاد التى تحدد لنا بعض الصور العملية أو التطبيقية لمفهومه الذى ذكرناه نود أن نحذر بادىء ذى بدء من التوسع فى الاتهام بالكفر .

لقد كان من أشد الامور اثارة للأسى والاسف ما وجدناه فى تاريخ الفكر الدينى فى الحضارة الاسلامية من نزعة ملحة عارمة نحو تبادل الاتهام بالكفر [1] .

يقول الخياط — من المعتزلة :

« ما علمنا فرقة من أهل الملة سلمت من الاتهام بالكفر : هذه الخوارج

---

(١) الكفر لغة الستر ، وانما سمى جاحد ربه والمشرك به كافرين لانهما سترا على انفسهما نعم الله تعالى ، وسترا طرق معرفته على الاغمار ، والعرب تقول : كفرت المتاع فى الوعاء أى سترته فيه ، وسمى الليل كافرا لأنه يستر كل شىء بظلمته ، قال الشاعر : « فى ليلة كفر النجوم غمامها » وسميت الكفارة كذلك لانها تغطى الاثم وتستره وسمى الحارث كافرا لأنه يستر البذور فى الأرض .

يكفر بعضها بعضا ، وهذه الروافض يكفر بعضها بعضا ، وهذه المرجئة يكفر بعضها بعضا وهذه أصناف المشبهة يكفر بعضها بعضا ، وهذه المجبرة فرق مختلفة وبعضها يكفر بعضها •• وهذه النوابت فرق مختلفة فى القرآن وبعضها يكفر بعضا •• فهو لازم لفرق الامة أجمعين » ، واليك شيئا من التفصيل :

فالخوارج : يجمعون على تكفير على وعثمان ، وأصحاب الجمل والحكمين ومن رضى بالتحكيم أو رضى وصوب الحكمين •

ومن الروافض : من يكفرون من ترك الائتمام بعلى بعد الرسول صلى الله عليه وسلم وكل من حاربه •

والسليمانية من الزيدية يكفرون عثمان •

والامامية والزيدية اتفقوا — كما يقول الشيخ المفيد — على أن الناكثين والقاسطين من أهل البصرة والشام أجمعين كفار ملعونون بحربهم أمير المؤمنين عليه السلام وأنهم بذلك فى النار مخلدون •

والسليمانية والابترية يكفرون الجارودية لتكفيرهم أبا بكر وعمر ومن تابعهما ، والزيدية والامامية يكفر بعضهم بعضا •

والمجهولية من الخوارج يكفرون المعلومية لمذهبهم فى أن الايمان معرفة بالله تعالى بجميع اسمائه وصفاته •

والامامية يكفرون هشام بن سالم الجواليقى لاجازته المعصية على الانبياء ، والجارودية من الزيدية الشيعة كفروا المسلمين الذين اختاروا امامة أبى بكر دون على ، بل ادعوا كفر من ادعى من أولاد الحسن أو الحسين الامامة وهو قاعد فى بيته مرخى عليه ستره ، والقدرية أكفرت جهما فى قوله بأن الله تعالى خالق أفعال العباد • وفرق المرجئة الخمس تضلل كل فرقة منها أختها ويضللها سائر الفرق •

والخوارج وقعت فروعها فى تكفير بعضهم بعضا •

والبصريون من المعتـزلة يكفـرون البغـداديين منهم لامـور ، والبغداديون يكفرون البصريين لامور أيضا .

والامام الرازى يحكى قولا للعلماء يقضى بكفر المجسمة : « لما أنهم بانكارهم وجود موجود لا يشار اليه قد انكروا ذات الله » .

وينقل البغدادى أن الشافعى أشار الى بطلان صلاة من صـلى خلف من يقول بخلق القرآن ونفى الرؤية .

وان مالكا قال فى المعتزلة : زنادقة لا يستتابون بل يقتلون .

واذا كان أبو حنيفة قد قرر أنه لا يكفر أحدا بذنب ولا يتهم بالكفر من يرميه به ، وانما يتهمه بالكذب ، الا انه يضعنا أمام مبدأ لا يساعد على تجنب مجال التنابز بالكفر ، وذلك حيث يقرر ان « من قال لا أعرف الكافر كافرا فهو مثله » . وان كان التدقيق فى معنى عبارته يبعدنا عن هذا المجال اذا فهمنا المقصود من قوله « ... الكافر .. » أنه من يظهر كفره ظهورا بينا قاطعا .

وترجع هذه الموجات المتلاحقة المتراكبة من التنـابز بالـكفر الى أسباب لم تأت فى منهج الاسلام كما جاء به الرسول ﷺ وانما جاءت من تغلب النزعة الدنيوية أو الشخصية على هذه الموجات .

وقد نجد فى النزعة الدنيوية : أسبابا اجتماعية أو سياسـية أو اقتصادية(٢) .

وقد نجد فى النزعة الشخصية : اتخاذ منهج يجعل « النظرية » مقياسا للدين . فيحشره فيها وهو يتأبى عليها ، بدلا من أن يجعل الدين مقياسا للنظرية ان كان هناك حاجة للنظرية .

وقد كان على هؤلاء وأولئك أن يحاربوا نزعاتهم وأن يعتصموا منها

---

(٢) انظر كتابنا « عوامل واهداف نشأة علم الكلام فى الاسلام » .

بتحذير الفكر الدينى تحذيرا صارما من تبادل الاتهام بالكفر ، اذ بجعل الخطر ماثلا فوق رأس المدعى والمتهم جميعا ، ففى الصحيحين قوله صلى الله عليه وسلم :

« اذا كفر الرجل أخاه — أو قال الرجل لاخيه يا كافر فقد باء بها احدهما » .

وقوله : « لا يرمى رجل رجلا بالفسوق ، ولا يرميه بالكفر الا أرتدت عليه أن لم يكن صاحبه كذلك » .

وقوله صلى الله عليه وسلم : « ثلاث من أصل الايمان : الكف عمن قال لا اله الا الله ، لا نكفره بذنب ولا نخرجه من الاسلام بعمل . والجهاد ماض منذ بعثنى الله الى أن يقاتل آخر أمتى الدجال ، لا يبطله جور جائر ولا عدل عادل . والايمان بالاقدار . » . أخرجه أبو داود فى باب « الغزو فى أئمة الجور » من كتاب الجهاد .

يقول الدكتور دراز :

« اذا كان عدم تكفير المسلم معدودا من أصل الايمان لزم أن يكون تكفيره كفرا . وبهذا نطقت أحاديث الصحيحين »[٣] .

ولست تجد واحة وسط هذا الهجير المهلك الا فى ظل شجرة السنة . اذ تجعل المسلم يحاسب نفسه حسابا قاسيا عسيرا قبل أن يوجه اتهاما بالكفر ، الا أن تقوم أمامه الأدلة على ذلك — لا من النظرية ، ولكن من السنة — دلالة قطعية . لا أقل فى المقام من مثل ورع الامام أبى حنيفة رضى الله عنه اذ يقول فيمن يرميه بالكفر : « شهادتى عليه أنه كاذب ولا أسميه كافرا » .

ويقول فيمن يبرأ اليه من دينه : ان قال لى هذا لم اعجل ولكنى أسأله عند ذلك : ممم تبرأ ؟ من دين الله ؟ أو تبرأ من الله ؟ فأى القولين

---

(٣) المختار ص ٣٢٣ .

قاله سميته كافرا . فان قال : لا أبرأ من الله ولا من دين الله ، ولكنى أبرأ من دينك ، لأن دينك هو الكفر بالله ، وأبرأ مما تعبد لأنك تعبد الشيطان ؟ فانى لا أسميه كافرا لأنه انما يكذب على .

يحصر الامام البياضى مواضع الاكفار كما يبينها الامام أبو حنيفة فتكون فى ثلاثة مواضع : نسبة النقص الصريح الى الله تعالى ، وانكار ما علم من الدين بالضرورة وتأويل ما علم قطعا كونه على ظاهره .

وهذه الأمور الثلاثة لا تخرج عن اوسطها يقول الامام الرازى : « الكفر عبارة عن انكار ما علم بالضرورة مجىء الرسول به ، فعلى هذا لا نكفر أحدا من أهل القبلة ، لأن كونهم منكرين لما جاء به الرسول غير معلوم ضرورة ، بل نظرا »(٤) .

وأهل القبلة هم الذين أسلموا على النحو الذى قبله رسول الله صلى الله عليه وسلم فى اعلان الشهادتين ، وأصله ما روى عن رسول الله صلى الله عيه وسلم قال « من صلى صلاتنا واستقبل قبلتنا وأكل ذبيحتنا فهو المسلم ، له ما لنا وعليه ما علينا »(٥) .

ومن التفصيل لهذا الاجمال .. والذى نراه لا يخرج عنه ما جاء فى العقائد العضدية بشروحها على النحو التالى :

لا نكفر أحدا من أهل القبلة الا اذا ارتكب واحدا من الأمور الآتية :

١ — نفى الصانع القادر المختار العليم .

علما بأن الاختيار الذى اثبته الفلاسفة ليس اختيارا عندنا ، والاختيار عندنا ما يصح معه الفعل والترك فلا يغنى وصف القادر عنه ، اذ القادر قد يضطر الى الفعل فيفعله بقدرته وليس مختارا ، كذلك علم

---

(٤) محصل ص ١٧٥ .

(٥) انظر شرح الطحاوية لابن أبى العز ص ٢١٩ .

الله الذى تقول به الفلاسفة ، لا يتعلق بالجزئيات وهذا غير ما جاء فى العقيدة الاسلامية •

٢ — الشـــرك ••

(أ) اما فى وجوب الوجود كالقائلين بالنور والظلمة •

(ب) واما فى الخالقيـــة كالقائلين بأن فاعل الخير النور ، وفاعل الشر الظلمة •

لكن لا يصح تكفير المعتزلة لقولهم بخلق العبد أفعال نفســـه الاختيارية لأن العبد ووسائله مخلوق لله •• وقـــد سأل أبو القاســـم الانصارى وهو من أفاضل تلامذة امام الحرمين عن تكفيرهم فقـــال : لا يجوز تكفيرهم لأنهم نزهوه عما يشبه الظلم والقبح وما لا يليقبالحكمة، وسئل عن أهل الجبر فقال : لايجوز تكفيرهم لأنهم عظموه حتى لايكون لغيره قدرة وتأثير وايجاد •

(ج) واما فى المعبودية كعبدة الاصنام والكواكب والنار والطبيعة والبشر •

٣ — وانكار النبوة : كالبراهمة واشباههم •

٤ — وانكار ما علم بالضرورة مجىء محمد صلى الله عليه وسلم به : كمن ينكر ركنا من الأركان الخمســـة للاسلام ، أو ينـــكر البعث الجسمانى •

٥ — أو انكار أمر مجمع عليه قطعا • كمن ينكر كون الصـــلوات المفروضة خمسا ، أو ينكر عدد ركعات كل صلاة منها ، أو ينكر كون كل صلاة منها تؤدى بقيام وركوع وسجود وجلوس ، على النحو المعروف •

٦— أو استحلال المحرمات بشروط ثلاثة :

(أ) أن يحصل الاجماع على تحريمها •

(ب) أن تكون حرمتها من ضروريات الدين : بحيث يستند الاجماع فيها على دليل قطعى • ويشتهر ذلك •

(جـ) أن يكون الشخص على علم بما تقدم •

وانه لمن علامات الكفر الدالة على شىء مما تقدم :

السجود للصنم ، أو للشمس من غير اكراه ، واحتقار المصحف ، واهانة الكعبة من غير اكراه أيضا ، واكبار زعماء الكفر بما يرفعهم فوق منصب النبوة •• من غير اكراه كذلك • وما جرى مجرى ذلك من علامات الكفر وان لم يكن فى نفسه كفرا•• فمن فعل شيئا من ذلك ولم يضامه عقد القلب على الكفر أجرينا عليه حكم أهل الكفر ، وان لم نعلم كفره باطنـــا •

وترك الصلاة استحلالا كفر • وان تركهـــا كسلا فهو كافر عنـــد الخوارج • وفى منزلة بين المنزلتين عند المعتزلة •

أما عند أهل السنة ، فقد قال الامام أبو حنيفة بعدم كفره ، وافتى بتأديبه حتى يصلى ولا يقتل • وقال الشافعى انه يؤمر بالصلاة فان صلى والا قتل وأجاز الصلاة عليه لأنه ليس كافرا •

وقال أحمد بن حنبل : انه كافر • وعلى هذا الأساس فهناك جماعات نحكم عليها بالابتداع فى الدين ولا نحكم عليها بالكفر :

١ ــ كالقائلين بخلق القرآن بتأول •

٢ ــ والقادحين فى أصحاب النبى صلى الله عليه وســلم بما لا يكفرهم ، وأما بما يوجب تكفيرهم فهم يكفرون • ونص الامام الشافعى على عدم تكفير من قذف عائشـــة رضى الله عنها وسب الصـــحابة بما لا يكفرهم •

٣ ــ والقائلين بأن الله سبحانه وتعالى جسم لا بل كيف ، واما

المصرحون بالجسمية المثبتون للوازمها من غير تستر (بالبلكفة) فهم يكفرون •

٤ — ومن قال انى أرى الله تعالى فى الدنيا وأكلمه شفاها ، فللعلماء فيه آراء : والأصح أن يناقش : فاذا صرح بانه يراه جسما تثبت له لوازم الأجسام من غير تستر بـ « بلا كيف » ••• وانه يراه رؤية حقيقية فهو كافر •

واذا صرح بأنه •• بناء على دعوى المكالمة •• ينزل منصب النبوة فهو كافر • واذا تستر بـ « بلاكيف » وانها رؤية غير حقيقية ،وانه لا منصب نبوة فى هذه المكالمة ، فلا نحكم بكفره ، ويدخل فى حكم الابتداع فى الدين • « وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة فى النار •• » •

والأصل فيه أن فى تكفير المسلم خطرا عظيما • وقد صح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من قال لأخيه يا كافر فقد باء بها احدهما » رواه الشيخان وروى مسلم قوله صلى الله عليه وسلم : « من دعا رجلا بالكفر ، أو قال عدو الله وليس كذلك الا عاد اليه » • قال الشيخ تقى الدين رحمه الله : هذا وعيد عظيم لمن كفر أحدا من المسلمين وليس كذلك • وهى ورطة عظيمة وقع فيها خلق كثير من المتكلمين ومن المنسوبين الى أهل السنة وأهل الحديث • ثم قال : والحق انه لا يكفر أحد من أهل القبلة الا بانكار متواتر من الشريعة على صاحبها أفضل الصلاة • فانه حينئذ يكون مكذبا للشرع •

وعبر بعض أصحاب الاصول عن هذا بما معناه : من انكر طريق اثبات الشرع : كمن انكر ورود مسألة ما فى الكتاب ، أو فى السنة ، أو فى الاجماع ، لم يكفر حتى يعرف ، أما من انكرها بعد الاعتراف بورودها فى طريق الشرع ، فقد كفر[٦] •

---

(٦) انظر لذلك شرح الجلال الداونى على العقائد العضدية ، وحواشيها واصول الدين للبغدادى . جـ ٢ ص ٢٨ وما بعدها . بتصرف .

تكفير شخص بعينه :

يقول شارح الطحاوية :

ان من أعظم البغى أن يشهد على معين ان الله لا يغفر له ولا يرحمه بل يخلد فى النار ، فان هذا حكم الكافر بعد الموت .

ولهذا ذكر أبو داود فى سننه فى كتاب « باب النهى عن البغى » ، قول رسول الله صلى الله عليه وسلم « كان رجلان فى بنى اسرائيل متواخيين فكان أحدهما يذنب . والاخر مجتهد فى العبادة ، فكان لا يزال المجتهد يرى الاخر على الذنب .. فوجده يوما فقال له اقصر فقال : خلنى وربى ، أبعث على رقيبا ؟ فقال: والله لايغفر الله لك ، ولا يدخلك الجنة ، فقبضا فاجتمعا عند رب العالمين ، فقال لهذا المجتهد : أكنت بى عالما أو كنت على ما فى يدى قادرا ، وقال للمذنب اذهب فادخل الجنة برحمتى وللأخر : اذهبوا به الى النار » ا هـ حديث حسن .

ولأن الشخص المعين يمكن أن يكون مجتهدا مخطئا مغفورا له ، ممن لم يبلغه ما وراء ذلك من النصوص ، ويمكن أن يكون له ايمان عظيم وحسنات أوجبت له رحمة .

لكن هذا التوقف فى أمر الاخرة لا يمنعنا أن نعاقبه فى الدنيا ، فاذا كان قوله بدعة منعنا بدعته .

واذا كان القول فى نفسه كفرا قيل انه دخل فى الكفر .

والقائل له يكفر بشروط وانتفاء موانع(٧) ولا يكون ذلك الا اذا أعلن الكفر صراحة بان أنكر الشهادتين ، أو كان زنديقا يعلن الشهادتين ويأتى ما يناقضهما .

---

(٧) انظر شرح الطحاوية ص ٢٢٥—٢٢٦ .

درجات من الكفر لا تخرج من الملة :

يقول صلى الله عليه وسلم « سباب المسلم فسوق ، وقتاله كفر » متفق عليه وقال صلى الله عليه وسلم « لا ترجعوا بعدى كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض » متفق عليه • وقال صلى الله عليه وسلم « أربع من كن فيه كان منافقا خالصا ومن كانت فيه خصلة منهن كان فيه خصلة من النفاق حتى يدعها : اذا حدث كذب واذا وعد أخلف ، واذا عاهد غدر ، واذا خاصم فجر » متفق عليه • وقال صلى الله عليه وسلم « لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن ، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن » وقال صلى الله عليه وسلم « بين المسلم والكافر ترك الصلاة » رواه مسلم • وقال « من أتى كاهنا فصدقه أو أتى امرأة فى دبرها فقد كفر بما أنزل على محمد » • وقال « من حلف بغير الله فقد كفر » رواه الحاكم ، وقال « ثنتان فى أمتى هما بهم كفر ، الطعن فى الانساب والنياحة على الميت » •

وفى تفسير ذلك كله ذهب أهل السنة باتفاق الى أن مرتكب الكبيرة لا يكفر كفرا ينقل عن الملة بالكلية ، اذ لو كان يكفر فى مثل هذه الذنوب كفرا ينقل عن الملة لكان حكمه القتل مرتدا ، فلا يقبل فى القائل عفو ولى : ولا فى الزانى حد بالجلد ، ولا فى السارق قطع ليد ، وهلم جرا ••• وهذا القول معلوم بطلانه وفساده بالضرورة من دين الاسلام ، وهم أمام هذه الأحاديث وما يماثلها طائفتان :

طائفة تقول بأن الايمان تصديق واقرار وعمل يزيد وينقص فهؤلاء يقولون فيمن جاءت فيهم هذه الأحاديث وأمثالها ان كفرهم عملى لا اعتقادى فلا يخرج من الملة •

وطائفة تقول بأن الايمان تصديق لا يزيد ولا ينقص فهؤلاء يقولون فيمن جاءت فيهم هذه الأحاديث وأمثالها : ان كفرهم مجازى غير حقيقى[٨] •

---

(٨) انظر شرح الطحاوية ص ٢٢٥—٢٢٧ •

يقول ابن أبى العز شارح الطحاوية « تجتمع فى المؤمن ولاية الله من وجه وعداوة من وجه ، كما قد يكون فيه كفر وايمان وشرك وتوحيد ، وتقوى وفجور ، ونفاق وايمان . قال صلى له عليه وسلم : « ثلاث من كن فيه كان منافقا خالصا ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها : اذا حدث كذب واذا وعد أخلف ، واذا خاصم فجر » فالطاعات من شعب الايمان ، والمعاصى من شعب الكفر ، وان كان رأس الكفر الجحود ، ورأس شعب الايمان التصديق » .

واذن فهى كما قلنا درجات من الكفر لا تخرج من الملة .

والأجدر أن يقال :

مرتكب هذه الأمور اما أن يرتكبها مستحلا لها فقد انكر معلوما من الدين بالضرورة فيكون ما فعله كفرا صراحا .

واما أن يرتكبها مقرا بحرمتها ، فكفره باعتباره المآل، انأصر على ارتكاب هذه الكبائر ، وداوم عليها ، فان الآثام تتكاثر على قلب العبد مثل الحصير : عودا عودا ، حتى يسود فيختم عليه ، والرسول باعتبار منصبه فى الدعوة والتربية يعالج نفوس البشر ويلفت أنظارهم الى ما يؤولون اليه .

متى يكون الحكم بالكفر على من لم يحكم بالاسلام ؟

يقول الله سبحانه وتعالى « ومن لم يحكم بما أنزل الله فاؤلئك هم الكافرون » (٤٤ المائدة) . ويقول « ومن لم يحكم بما أنزل الله فاؤلئك هم الظالمون » (٤٥ المائدة) . ويقول « ومن لم يحكم بما أنزل الله فاؤلئك هم الفاسقون » (٤٧ المائدة) .

روى الامام الطبرى فى تفسيره بسنده عن ابن عباس رضى الله عنهما قوله « ومن لم يحكم بما أنزل الله فاؤلئك هم الكافرون » قال : من جحد ماأنزل الله فقد كفر، ومنأقر به ولم يحكم فهو ظالم فاسق» ثم

قال الامام الطبرى : « فان قال قائل فان الله تعالى قد عم بالخبـــر بذلك عن جميع من لم يحكم بما أنزل الله فكيف جعلته خاصا ؟ قيل : ان الله تعالى عم بالخبر بذلك عن قوم كانوا جاحدين ، فأخبرهم أنهم بتركهم الحكم على سبيل ما تركوه كافرون ، وكذلك القول عن كل من لم يحكم بما أنزل الله جاحدا به هو بالله كافر ، لأنه بجحوده حكم الله بعد علمه أنه أنزله فى كتابه ، نظير جحوده نبوة نبيه بعد علمه أنه نبى » .

وقال القرطبى فى تفسيره ما نصه « قوله تعالى : ومن لم يحكم بما أنزل الله فاؤلئك هم الكافرون الظالمون ، الفاسقون ، نزلت كلها فى الكفار ، ثبت ذلك فى صحيح مسلم .

أما المسلم : فلا يكفر وان ارتكبكبيرة. وقيل فيه اضمار: أى من لم يحكم بما أنزل الله ردا للقرآن ، وجحودا للرسول الكريم فهو كافر .

قال ابن عباس رضى الله عنهما ومجاهد : فالآية عامة على هذا .

قال ابن مسعود والحسن : وهى عامة فى كل من لم يحكم بما أنزل الله من المسلمين واليهود والكفار ، أى معتقدا ذلك ومستحلا له » .

وقال الرازى فى تفسيره ما نصه « قال عكرمة قوله « ومن لم يحكم بما أنزل الله انما يتناول من أنكر بقلبه وجحد بلسانه .

أما من عرف بقلبه كونه حكم الله ، وأقر بلسانه كونه حكم الله .. الا انه تارك له فعلا فلا يلزم دخوله تحت هذه الآية وهذا هو الجواب الصحيح والله أعلم » .

وقال البيضاوى « ومن لم يحكم بما أنزل الله مستهينا به ، منكرا له ، فأؤلئك هم الكافرون لاستهانتهم به وتمردهم بأن حكموا بغيره . ولذلك وصفهم بقوله : الكافرون ، الظالمون ، الفاسقون .

فكفرهم لانكاره .

وظلمهم بالحكم على خلافه •

وفسقهم بالخروج عنه » •

والخلاصة : ان مذهب أهل السنة هو المذهب الصحيح فى هـذا الموضوع ، وخلاصته ان الحكم بالكفر على من لم يحكم بما أنـزل انما هو لمن حكم بغير ما أنزل الله به معتقدا ان ما جاء فى الشريعة الاسلامية من أحكام الله لا صلاح فيها •

طبيعة الالحـاد :

تتضح لنا طبيعة الالحاد من النظر فى طبيعة التدين • واذا كانت طبيعة التدين هى الاستقامة مع الفطرة لقوله تعالى « فأقم وجهك للدين حنيفا ، فطرة الله التى فطر الناس عليها لاتبديل لخلق الله ذلك الدين القيـم » •

وأن هذه الفطرة فى الانسان مساوية لفطرة الله فى الكون لقوله تعالى : « فاطر السموات والأرض •• » •

وان هذه الفطرة ملزمة بالاسلام وحده لقوله صلى الله عليه وسلم : « كل مولود يولد على الفطرة حتى يكون أبواه هما اللذان يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه •• » •

واذا كان الالحاد يتمرد — فى زعمه[٩] — على الاديان بوجه عام : فانه يضع نفسه فى مأزق التناقض مع الفطرة الانسانية خصوصا ومع الفطرة الكونية بوجه عام •

يقول أرنست رينان « انه من الممكن أن يضمحل كل شىء نحبه ، وأن تبطل حرية استعمال العقل والعلم والصناعة ، ولكن يستحيل أن ينمحى التدين ، بل سيبقى حجة ناطقة على بطلان المذهب المعادى — الالحادى —

---

(٩) سنبين فى الفصل الخامس انه ينسج ديانة وضيعة .

الذى يريد أن يحصر الفكر الانسانى فى المضايق الدنيئة للحيـــاة الأرضية » •

ويقول فيكتور فرانكل « ان الحاجة الى التدين عنصر دفين فى النفس البشرية ، وقد نستطيع أن نخفى على غيرنا شعورنا الدينى ، ولكن اذا تعمدنا اخفاءه على عقولنا الواعية وحاولنا أن نساير الاتجاه العصرى فى اعتبار التدين والشوق الى التعبد من مخلفات العقائد التى ورثناها عن الماضى العتيق ، وليست هناك حاجة جوهرية اليهما ، لتعرضت نفوسنا لصراع داخلى عنيف ، أشد خطرا على الأعصاب ، والصحة النفسـية والجسدية من كبت الغرائز •• » •

ويقول الأستاذ عباس العقاد « فى الطبع الانسانى جوع الى الدين كجوع المعدة الى الطعام » •

والأمر الذى نود أن نؤكده فى هذه الدراسة هو أن الالحاد فى محاولته الانحراف بالفطرة الداعية الى الدين الصحيح •••• لم يتمكن من « الخروج » على الفطرة الانسانية بالكلية ، ومن ثم تورط فى الانحراف بها الى ديانة جديدة زائفة ، وهذا هو الأمر الذى سوف نبينه عند الكلام عن الأهداف التى يستهدفها الالحاد المعاصر •

وخلاصة القول فى طبيعة الالحاد — المعاصر — انه محاولة فاشلة للخروج على الفطرة أدت الى الانحراف بها •

بواعث الالحـــاد :

هناك بواعث كثيرة للالحاد •

ربما نقول ان الباعث اليه يتصل برغبة الانسان فى الانكباب على شهواته حيث يجد فى الدين رادعا له عن ذلك •

وربما نقول ان الباعث اليه يتصل بالرغبة فى الوصول الى موضع السلطة فى شعب يمثل فيه الدين عنصرا قويا من عناصر المقاومة •

وربما نقول أن الباعث اليه يتصل بالرغبة فى التخلص من بعض المؤسسات الدينية كالكنيسة أو ما يشابهها ٠

وربما نقول أن الباعث اليه يتصل بالرغبة فى زعامة فكرية جديدة يحول الدين دون ظهورها ٠

وهذه البواعث كلها قائمة ، وقد يبدو لبعض الباحثين بواعث أخرى أكثر تنوعا وأدق تفصيلاً ٠٠ ولكن الباعث الأساسى فى رأيى الذى ينبغى اظهاره فى هذا المقام يتضح لنا من النظر فى جوهر الدين ٠ وليس من المبالغة فى شىء أن نقول ان جوهر الدين هو التسليم لله ، وبعبارة أخرى «الاتباع» لله٠ وبعبارة أكثر وضوحا نقول: ان منشأ الدين يأتى كجواب على شعور الانسان بجهله ازاء طبيعة الوجود وبدايته وغايته ، وموقع الانسان فى هذا الوجود ، وكجواب على تطلع الانسان لازاحة هـذا الجهل ، وهنا يأتى الدين : يتلقى فيه الانسان الجواب على تسـاؤله وتطلعه ، ويتبع الانسان فيه ما يتلقاه عن الوحى ٠

ان الانسان بقصوره العقلى يجهل اصول المشكلات التى يواجهها ٠ مشكلة الوجود بدايته ونهايته وغايته ، مشكلة المعرفة : امكانها ، وطبيعتها وأدواتها ، مشكلة القيم : الحق والباطل والخير والشر والنفع والضر ، والشقاء والسعادة ، وهو مع هذا جهل يتطلع فى شوق عارم الى معرفة الحقيقة التى يجهلها ٠

وعند هذه النقطة يفترق الحال بين المؤمن المتدين بدين الله ، وبين الملحد (المتدين — رغم أنفه — بدين وضعى) ٠

فالمتدين بدين الله يتلقى المعرفة والتوجيه من الله مسـلما به ، متبعا له ٠

والملحد لا يرضى بهذا التلقى ، والاتباع ، وانما يبتدع المعـرفة والتوجيه ، ويحاول أن يصل اليها بنفسه — مع قصوره — أو أن يصـل اليها من غير طريق الله ٠

وخلاصة القول فى بواعث الايمان بالله : انها شعور بالجهـل ازاء المشاكل الكبرى ، وتطلع الى حلها ، واتباع الحل الذى يأتى من الوحى الصحيح •

وفى المقابل فان خلاصة القول فى بواعث الالحاد : انها شـعور بالجهل ازاء المشاكل الكبرى ، وتطلع الى حلها ، وابتداع الحل من مصدر غير الوحى الصحيح • واذن فمركز الدائرة فى التفرقة بين الايمان بالله ورسوله وبين الالحاد هو عنصر الاتباع لله ورسوله نجـده فى جانب الايمان ، وعنصر الابتداع والغرور والاستقلال الكاذب نجده فى جانب الالحـاد •

المؤسسات التى تروج للالحاد فى البلاد الاسلامية :

تقف وراء تيارات الالحاد هذه منظمات ومؤسسات وقوى تتسم بالضراوة والحنكة والترابط والتنظيم الدقيق والعمل الدائب والكراهية العميقة للاسلام بخاصة •• ويمكن الاشارة الى هذه القوى باعتبارها نوعين :

(أ) نوع يغلب عليه الطابع الفكرى وهو :

١ — الشـيوعية •
٢ — التبشـير •
٣ — الاستشراق •
٤ — الاستغراب •

(ب) ونوع يغلب عليه الطابع المادى وهو :

١ — الصـهيونية •
٢ — الاستعمار الشرقى •
٣ — الاستعمار الغربى •

أهداف الالحـــاد :

من الناحية السلبية تتلخص أهداف الالحاد فى أمرين :
١ — انكار الايمان بالله سبحانه وتعالى .
٢ — انكار الايمان برسوله صلى الله عليه وسلم .

أما من الناحية الايجابية فتتلخص أهدافه فى :

نصب أديان وضعية مستمدة من الانسان لا من الوحى . وهـذا ما كشف عنه القرآن الكريم فى قوله تعالى : (افرأيت من اتخذ الهه هواه) وقوله تعالى : « واتخذوا من دون الله آلهة لعلهم ينصرون لا يستطيعون نصرهم وهم لهم جند محضرون » .

ونتوافر لهذه الأديان الوضعية (الالحادية) الخصائص الرئيسية التى للدين بصفة عامة ، والتى أنكر الالحاد الدين من أجلها وهـــذه الخصائص هى :

١ — الايمان الأولى الذى لا يشترط البرهان .

٢ — التسليم بوجود كائن غير خاضع للادراك الحسى المباشر أو غير المباشر .

٣ — الايمان بأصل للكون يتصف بالقدم والخلود مستحق للعبادة .

٤ — الايمان بأن هذا الأصل له قوانينه الحتمية التى ترجع اليها الاشياء فى وجودها وتطورها .

٥ — انتظار « الآخرة » .

وهذا يعنى أن الالحاد المعاصر — وهو يهاجم الدين لم يفعـل الا أن استبدل دينا بدين .

استبدل بالدين الصادر من الوحى (من الله الحق) دينا صادرا من الانسان . وهذا فى حد ذاته كاف فى نقض الالحاد المعاصر لأن فيه فضحا للكذب والدجل الذى ينطوى عليه موقفه من انكار الدين .

وسائل الالحاد : الغزو الثقافى :

لا شك أن للالحاد وسائله الكثيرة ، فهو باعتباره عملا شيطانيا له فى نفس الانسان مداخل الشيطان ، وهو باعتباره فعلا انسانيا له فى نفس الانسان غرور الانسان وطغيان الانسان (كلا ان الانسان ليطغى ان رآه استغنى) ••

ولكننا فى هذه الدراسة بصدد القاء الضوء على الوسائل ذات الصيغة العصرية • والذى نراه من ملامح عصرنا أنه يدرك خطورة « الغزو الثقافى » ، ويعطيه الاهمية القصوى بدلا من وسيلة « الغزو العسكرى » وغيرها من وسائل القهر ، التى توارت فى الظل •

الغزو الثقافى اليوم ينفذ من خلال الأبواب الحديدية المغلقة ، ويتسلق من فوق الأسوار الصلبة الشاهقة ، ويمر من تحت أنظار الرقباء، ويتساقط مع موجات الكهرباء •

وهو مع ذلك يتحرك وفق مخططات مدروسة ، يعمل فيها : العسكريون والعلماء ، والساسة ، والاقتصاديون ، والمنظرون، والاعلاميون ، ورجال الدين • وتخدمها أحدث أجهزة الاتصال ، وتستغلها أعتى القوى الدولية • والغزو الثقافى اليوم يمثل قوة شديدة الخطر لم يبلغها على هذا النحو فى مدار التاريخ •

والذين لا يدركون هذه الخطورة الاستثنائية يعرضون أنفسهم لخطر الابادة : جسديا ومعنويا •

والحضارة الاوروبية المعاصرة تملك أدوات هذا الغزو ، كما تملك فلسفته وأهدافه • والذين ينصب هذا الغزو على رؤوسهم : يترنحون ما بين اللامبالاة ، والانكار ، والتامر •

والذى يعنينا فى هذه الدراسة هو أن نبين أن كلمة الثقافة تعنى الجانب المعنوى من الحضارة ، وان عناصرها تشمل العقيدة والعبادة والأدب والاخلاق والفن والتقاليد ، وان مدلولها العملى يعنى مجموع

المعتقدات والقيم والعادات والتقاليد التى توجه سلوك الانســان فى حياته الفردية والاجتماعية ، وان مدلولها الواقعى لايكون الا من خلال السلوك : سلوك الفرد ، والمجتمع ، وعندئذ فهو يظهر فى شخصية الفرد ، وشخصية المجتمع •

والغزو الثقافى اذن يتوجه أول ما يتوجه الى العقيدة ليزيفها أو ينقص منها أو يزيد عليها أو يبدلها أو يعيد تركيبها •

ثم يتوجه الى العبادة : ليسخفها أو يهون من شأنها ، أو يقــلل من تأثيرها ، أو يضيف اليها ، أو يساوى بينها وبين عبادات مبتدعة •

ثم يتوجه الى منظومة القيم : ليلغى بعضها ، ويفرغ بعضها من محتواه ، ويزرع فى بعضها محتوى جديدا ، ويعيد ترتيب أولوياتها •

ثم يتوجه الى العادات والتقاليد : فى أسلوب الفرح ، وفى أسلوب الحزن ، وفى أسلوب الرضا ، وفى أسلوب الغضب ، وفى شكل الزى ، وفى طريقة الحديث ، وفى عادات الأكل ، والنوم ، والتزاور ••• الخ •

انه بعبارة حاسمة : يقتحم الشخصية •• شخصية الفرد ، وشخصية المجتمــع •

وهنا يظهر « أثر التغيير الثقافى » فهو مع كونه وسيلة من الوسائل التى يلجأ اليها دعاة الالحاد بوجه عام ، لكنه بوجه خاص له أثره الخاص ، انه اقتحام للشخصية : وهو اقتحام يستهدف تغيير هذه الشخصــية ، لحساب الثقافة الغازية ، والنتيجة التى يسفر عنها هــذا التغيير : اما عبودية ، واما ضياع : عبودية النموذج الثقافى القديم للنموذج الثقافى الجديد ، أو ضياع النموذج الثقافى القديم بوجه عام ، والشىء المستحيل هو أن ينقلب النموذج القديم الى نسخة من النموذج الجديد •

ذلك أشبه بمحاولتــك تغيير بكر ليكون زيدا ، فأولا يستحيل أن

يكون بكر زيدا ، وثانيا اما أن يصبح بكر ألعوبة فى يد زيد ، واما أن تتمزق شخصية بكر لتصبح فى حكم الضياع •

ان الامر هنا يصبح كما يقول المفكر الانجليزى ت• س• اليوت فى شأن المجتمع الأوروبى « اذا ذهبت المسيحية فستذهب كل ثقافتنا ، وعندئذ يكون عليك أن تبدأ البداية المؤلمة من جديد ، ولن تستطيع أن تلبس ثقافة جديدة جاهزة ، يجب أن تنتظر حتى ينمو العشب ليغـــذو الضأن ، ليعطى الصوف الذى ستصنع منه سترتك الجديدة ، يجب أن نمر بقرون كثيرة من الهمجية ، ولنعيش اذن لنرى الثقافة الجديدة ، لا نحن ولا أحفاد أحفادنا ، ولو عشنا لما سعد بها واحد منا »[١٠] •

عوامل غياب الثقافة الاسلامية :

والذى يعنينا مما تقدم هو أن نوضح ان ثقافة المســلم ، وثقافة المجتمع الاسلامى — بمفهوم الثقافة الذى قدمناه — قد تعرضت لعوامل الضعف ، ثم تعرضت لعوامل الغزو • أما عوامل الضعف ، فيمكن أن نذكرها هنا باجمال ، ثم نعود الى بعضها بالتفصيل •

وبيت الداء فى هذه العوامل يكمن فى جرثومة عقلية انتقلت الينا مع نقل الفلسفة اليونانية والاعجاب بها وهى جرثومة الفصل بين النظر والعمل •

وقد تفرع عن هذه الجرثومة أمراض أخرى :

— نشوء الفرق والخلافات الاسلامية •

— النظرة الاقليمية ، والعرقية •

— تدهور النظام التعليمى •

---

(١٠) ملاحظات نحو تعريف الثقافة ، ترجمة الدكتور شكرى محمد عياد • نشر وزارة الثقافة والارشاد القومى •

— انحلال القيم اللازمة للنهضة : قيمة الصدق ، والاخلاص ، والاتقان ، والعمل والوقت •

— توقف الاجتهاد فى الفقه •

— تدهور الاقتصاد الذى وصل الى حد « استيراد القمح » من العـــدو •

— تدهور الجيوش الذى وصل الى حد « استيراد الســلاح » من العــدو •

ودخلت الأمة الاسلامية نتيجة لما تقدم تحت وطأة مرض عضال ، أشبه بمرض النوم الذى لا يفيق • أى أنها دخلت فيما يمكن تسميته « القابلية للغزو » ، وأصبحت تفتقد المنهج الاسلامى ، بل تفتقـــد « الارادة » لو أنها أبصرت به •

وكمثال نذكره على فقدان الارادة يكفى أن نشير الى خطر سلاح الغذاء « القمح » فى المعاملات الدولية •

ففى يوم ٤ يناير ١٩٨٠ استخدمت الولايات المتحدة للمرة الأولى الغذاء سلاحا ضد الاتحاد السوفيتى ، وقبل ذلك باسبوعين كانت القوات السوفيتية قد دخلت أفغانستان فأعلن الرئيس الامريكى السابق جيمى كارتر — أن ذلك لن يمر من دون عقاب وكان العقاب هو حظر بيع الحبوب للاتحاد السوفيتى »(١١) •

يقول الدكتور حسن قشوع ، أستاذ الانتـــاج الزراعى الذى كان وراء انتاج السعودية والأردن للقمح فى الأراضى القاحلة بكميات هائلة:

---

(١١) انظر مقالا بعنوان « الغذاء : السلاح السرى فى الحرب الباردة » بمجلة المختار عدد سبتمبر ١٩٨٢ .

(هل يعرف العرب أن أعداءهم هم الذين يتاجرون فى طعامهم ؟ وماذا يحدث لو امتنع منتجو القمح عن توريده الينا ؟ واذا باعوه لنا أعطوه بشروط قد تكون على حساب السيادة والاستقلال ؟) هذه اشارة مختصرة الى خطر الاعتماد على استيراد الغذاء من العدو ٠

ويقول الكاتب الصحفى اسماعيل النقيب فى يوميات الأخبار :

(ان الخطر يأتى من استغلال الدولة المنتجة للقمح للدول المستوردة له ٠٠٠ خصوصا ونحن نعلم أن احتياطى القمح فى العالم هو ٨٥ مليون طن ، تستورد روسيا ٣٠ مليونا ، وتحاول أن تستورد ٥٠ مليونا ، وتساومها الدول المنتجة فى ذلك ، وتستورد مصر ٩ ملايين طن فى السنة ، وهى تعتبر ثالث دولة مستوردة ، وهى بذلك معرضة للخطر الذى نجت منه دول مثل الهند ، والسعودية ، وأخيرا الأردن ٠

مرة أخرى هذا هو الخطر ٠

واللهم انى قد بلغت ٠

اللهم فاشهد) [١٢] ٠

أما عما يحدث نتيجة الاعتماد على استيراد السلاح — من العدو — فحدث عنه كنف شئت ٠

يكفى أن نشير هنا الى الضمانات الوثيقة التى يعطيها موردو السلاح الينا ، سواء من الغرب أو من الشرق ، أقصد الضمانات التى يعطونها لاسرائيل ، بأن تكون فى مركز التفوق الدائم ضد جيوش الدول العربية مجتمعة ، مما يجعل من السلاح المورد الينا مجرد عملية انعاش اقتصادى للمصدرين ، ونزيف اقتصادى للمستوردين ، ومجالا للاختبار الميدانى لانتاجهم فى السلاح ٠٠ واذن فما أشد حمق الخطوة التى أدت الى قتل الوليد العربى فى التصنيع الحربى !!٠

---

(١٢) انظر مقالة بجريدة الأخبار عدد ١٩٨٥/٧/١ ٠

رد فعل الأمة الاسلامية على الغزو الثقافى :

والسؤال الآن : ماذا كان رد فعل الأمة الاسلامية على هذا الغزو ؟•

يمكننا أن نقول باختصار ان رد الفعل هذا تراوح بين درجات ثلاث[1] :

(أ) الدرجة الأولى : يمكن أن نطلق عليها درجة « الانبهار » أو التشكيك والمقصود بها أن كثيرين من الذين فتحوا أعينهم على ضوء هذا الغزو أصابهم « اعجاب الافتتان بحضارة الغزاة » •

واعتقدوا أن لابعث للأمة الاسلامية الا بأن تحذو حذو أوربا حذو النعل بالنعل ، وهم لأنهم تلقنوا أن أوربا لم تنهض الا « بالعلمانية » واستبعاد الدين من مجال التوجيه فى الحياة الدنيا ، أو اسقاط الدين بالكلية ، أخذوا يبشرون بالعلمانية فى المجتمع الاسلامى ، ليمكن لهذا المجتمع — حسب ظنهم — أن يضع أقدامه على عتبات التقدم « الأوربى » وهم فى هذا كله يملكهم الشك فى صلاحية الاسلام للاستمرار •

(ب) الدرجة الثانية : يمكن أن نطلق عليها درجة « الدفاع » والمقصود بها أن كثيرين من المسلمين الذين ساءهم حال الأمة الاسلامية ولم يتخلصوا من الاعجاب الشديد بما عليه حضارة الغزاة ، أخذوا يبحثون عوامل النهضة فى الحضارة الأوربية ، ويقررون أصولها فى الاسلام ، دفاعا — فى ظنهم — عن الاسلام •

فاذا كانت الديمقراطية من هذه العوامل تحدثوا عن « الديمقراطية

---

(١) انظر كتاب « محاضرات فى الفكر والثقافة الاسلامية » للأستاذ الدكتور عدنان زرزور •

الاسلامية » واذا كانت الاشتراكية تحدثوا عن « الاشتراكية الاسلامية » واذا كانت المساواة بين الرجل والمرأة تحـدثوا عن « حقوق المرأة فى الاسلام » بل لقد بلغ الأمر ببعضهم أن تحدثوا عما يسمونه « علمانية الاسلام » وهم فى هذا كله يملكهم التوجه الأساسى الى عناصر الثقافة الأوربية ، ولـكنهم يتماسكون فى موقفهم ازاء الثقافة الاسلامية فلا يفرطون فيها — شأن من فقـدوا رءوسهم بالانبهـار — ويظنون أنهم يدافعون عنها ، ومع ذلك فهم لايضعون الثقافة الاسلامية فى وضعها الصحيح لأنهم بهذا المنهج يغتصبونها لحساب الثقافـة الغـازية ، اذ يجعلون منها مرآة لها ، ونمطا من أنماطها ، ويقضـون على أصـالتها الذاتيـــة .

(جـ) درجة « الذاتية » أو البحث عن « الأصول » وهنـا نجـد طائفة من المفكرين الاسلاميين ، الذين ساءهم حال الأمة الاسلامية ولم يأخذهم الاعجاب « الشديد » بحضارة الغزاة ، وانما نظروا اليها نظرة نقدية ، فوجدوا فيها ماينفع وما يضر ، فتوجهوا الى البحث عن أصول الثقافة الاسلامية باعتبارها الدافع الحقيقى للنهضة ، ليكشفوا عنهـا الغبار ، وليقدموها فى أصالتها الذاتية ، وليجعلوها مقياسـا يقيسون عليه حضارة الغرب فما كان متفقا من هذه الحضارة مع أصول الاسلام شجعوا على الأخذ به ، وما كان منها غير متفق نهوا عنه ، وهم بين هذا وذاك حريصون على اظهار حقيقة الاسـلام ودوره فى بنـاء الحياة، رضى الغزاة عن ذلك أو سخطوا ، وهنـا نجد الحـديث عن النظـام السـياسى فى الاسـلام ، وانه نظـام خاص يبرأ من الدكتـاتورية والديمقراطية على السواء ، والحديث عن النظام الاقتصادى وانه نظام خاص كذلك يبرأ من الرأسماليـة والاشـتراكية والشيوعية جميعـا ، والحديث عن العلاقة بين الدين والعلم ، وانه فى الثقافة الاسـلامية لايتبع الدين العلم ، بقدر ما أنه لايتبع العلم رجال الدين .. الخ .

الفصل الثانى

العلمانيـــــة

العلمانيـــة فى أوربا ، العلمانيـــة فى البـــلاد الاسلامية .

مفهوم العلمانيـــة :

العلمانية بفتح العين نسبة غير صحيحة الى العالم ، وقد ينحرف البعض فى فهمها بجعلها نسبة الى العلم • وهو خطأ معذور • ذلك لأن مفهوم العلمانية بنسبتها الى العـــالم أى الى عالم هذه الحياة الدنيا ، يعنى توجيه الاهتمام الى مايتعلق بالحيـــاة الدنيـــا واسقاط الاهتمام بالحياة الآخرة ، وبعبـــارة أشمل وأدق : تعنى اما مجرد اســـتبعاد « الدين » من توجيه شئون الحيـــاة الدنيا فى السياسة والاقتصـــاد والعلم والأخلاق والتربية ، بأن يترك له دائرة الوجدان المحصور فى ساعة العبادة ــ وهذا هو المفهوم السائد فى أوربا الغربية والبلاد التى ترفع شعار الديمقراطية الرأسمالية ــ واما أنهـــا تعنى اسقاط الدين بالـــكلية واعتبـــاره أفيونا للشعوب يخدرها عن الاهتمام بحياتها التى لا حياة بعدها ، أو اعتباره ايديولوجية مصطنعة تنسجها الطبقة الحاكمة لمصالحها الاقتصادية الخاصة ، وهـــذا هو المفهوم الســـائد فى أوربا الشرقية والبلاد التى ترفع شعار الشيوعية أو تدعو اليها •

ولـــا كانت العلمانية بمفهوم «الاستبعاد» أو بمفهوم «الاسقاط» تنفى الدين من مجال التأثير فى توجيه شئون الحياة الدنيـــا ، فانهـــا تستدعى « العلم » ليقوم بهذا التأثير ، وهذا هو عـــذر المخطئين فى الخلط بين مفهوم العلمانية ، ومفهوم العلم ، وهو فى نفس الوقت خطأ المعتذرين عن استبعاد الدين باستدعاء العلم ؛ لأن العلم بطبيعته أداة للتنفيذ ؛ وليس مرجعا للتوجيه [1] •

---

(١) سنتحدث عن ذلك فى مبحث العـــلاقة بين العلم والدين ، وفى بيان عجز العلم فى مجال المعرفة والقيم على السواء •

أساليب الترويج للعلمانية :

ان سماسرة العلمانية يروجون لها فى البــلاد الاســلامية بأربع ضلالات :

الضلالة الأولى : أنها سر التقدم فى أوربا [٢] •

الضلالة الثانية : أنها سر التقــدم الذى لاحت بعض بشائره فى بعض البلاد الاسلامية [٣] •

الضلالة الثالثة : أنها لاتتعارض مع الاسلام [٤] •

الضلالة الرابعة : ان الاسلام « الحاكم للحيــاة الدنيــا قضية مرفوضــة أساســا ، ولا شــك أن هــذه أخطر الضلالات الأربعــة وأوقحها » [٥] •

الضــلالة الأولى للعلمانيــة

(دعوى أن العلمانية هى شرط التقدم الذى تحقق لأوربا) •

ونحن نناقش هذه الدعوى من ثلاث جهات :

الجهة الأولى : عن نشأة العلمانيــة فى أوربا ، وفى ذلك نبين أن الدوافع والأســباب التى أدت الى ظهورها فى أوربا لا وجود لها فى البلاد الاســلامية ، ومن هنــا فلا مجــال لها فى هذه البــلاد وهذا ماسنبينه تحت عنوان (نشأة العلمانية فى أوربا) •

---

(٢) انظر من ص ٤١ الى ص ٧٤ من هذا الــكتاب •
(٣) انظر من ص ٧٤ الى ص ٩٧ من هــذا الــكتاب •
(٤) انظر من ص ٩٨ الى ص ١١٣ من هــذا الــكتاب •
(٥) انظر الفصل الثالث من هذا الــكتاب •

الجهة الثانيـــة : عن مآل العلمانية فى أوربا ، وفى ذلك نبين أن المسيحية لاتزال هى المالــكة لناصية الثقافة والنفوذ فى أوربا ، غالبا ، وهذا مانبينه تحت عنوان (مآل العلمانية فى أوربا) •

الجهة الثالثة : عن البـــديل الدينى للمسيحية ، وفى ذلك نبين أنه حتى فى المواقع التى يفقد فيهـــا الدين « المعروف » نفوذه تحتضربات العلمانية فانه يحل محله دين جـــديد تسمح به العلمانية ولا تحاربه ، وهذا ما أشرنا اليه سابقا وما نزيده توضيحا فيما بعد (٦) •

نشأة العلمانية فى أوربا :

نشأت العلمانية فى الغرب كاتجاه يستبعد الدين من التوجيه فى مجال العلم والسياسة والأخلاق والاقتصـــاد ، وذلك عندما رأى بعض رجال النهضـــة الأوربيـــة أنه لابد من الثورة على الـــكنيسة للتخلص من معوقات النهضة •

ففى مجال العلم : كانت الـــكنيسة تقف حائلا ضد أى اكتشاف علمى أو نظرية علمية لاتتفق مع مقررات الـــكنيسة وتعاليمها الموروثة على مدى قرون، كما حدث بالنسبة لنظرية دوران الأرض حول الشمس، التى كشف عنها كوبرنيكوس (١٤٧٣ — ١٥٤٣ م) ، وكانت مناقضـــة تماما لنظرية بطليموس التى كانت تقضى بثبـــات الأرض ومركزيتهـــا بالنسبة للشمس والتى ظلت مسيطرة على عقـــل الـــكنيسة والمسيحيين لمدة خمسة عشر قرنا تقريبـــا ، وعندما توصل كوبرنيكوس الى نظريته تردد فى نشر بحثه مدة طويلة ، يقول كوبرنيكوس فى كتابه الى البابا بولس الثالث : (اننى ترددت لمدة طويلة ، هل أنشر ماكتبته للبرهنـــة على حركة الأرض أو أحذو حذو أتبـــاع فيثـــاغورث الذين دأبوا على الافضـــاء بأسرارهم الفلسفية لأقاربهم وأصدقائهم شـــفويا ، وعندما

---

(٦) أنظر الفصل الخامس من هذا الـــكتاب •

تأملت فى هذا كثيرا كدت أضع هـذا العمل جانبا بسبب الازدراء الذى يحق لى أن أتوقعه لكون نظريتى جديدة وعلى نقيض مايقبله العقل ؟) [٧] •

وقد عارض النظرية كل من العامة وطلبة الجامعة ورجال الكنيسة ، بل عارضها الثائرون على الكنيسة البابوية من رجال الدين أنفسهم •

يقول مارتن لوثر عن كوبرنيكوس (ش•• يريد ذلك الأحمق أن يقلب علوم الفلك كلها رأسا على عقب ، ولكن كما يقرر الكتاب المقدس ان الشمس نفسها وليس الأرض التى أمرها يوشع بأن تقف •••) [٨] •

وأكد جون كلفن من كبار قادة الاصلاح الدينى : ان الأرض ثابتة مستشهدا بالمزمور ٩٣ « وكذلك ثبتت المسكونة لاتتزعزع » وسأل باحتقار (من ذلك الذى يجرؤ على وضع سلطة كوبرنيكوس فوق سلطان الروح القدس ؟) •

وقررت الكنيسة الكاثوليكية (أن الاقتراح القائل بأن الشمس هى المركز وانها لاتدور حول الأرض حماقة وسخف وزيف فى علم اللاهوت ، وهرطقة لأنه يناقض على طول الخط ماجاء فى الكتاب المقدس • وأما القول بأن الأرض تدور حول الشمس وليست فى المركز فسخيف وزائف فلسفيا ، ومن الناحية اللاهوتية يعارض — على الأقل — العقيدة الحقيقية) •

---

(٧) كتب غيرت العالم لروبرت. ب. داونز ترجمة امين سلامة طبعة ١٩٧٧ ص ٢٢٣ .

(٨) المصدر السابق ص ٢٢٧ ومعنى عبارة الكتاب المقدس ، ان الشمس هى التى تدور وان معجزة يوشع كانت فى امره للشمس الدائرة أن تقف .

وفى عام ١٦١٦ وضع كتاب كوبرنيكوس فى قائمة الكتب المجرمة وادينت جميع الكتابات التى تؤيد حركة الأرض •

وحوكم برونو على اعتناقه لآراء استاذه والتى زاد عليها القول بأن الفضاء غير محدود وأن الشمس وكواكبها ليست سوى واحدة من عدة مجموعات مشابهة وأن هناك احتمالا لوجود عوالم أخرى مسكونة تضم مخلوقات عاقلة تمتاز عنها •

حوكم برونو أمام محكمة التفتيش وأدين وأحرق مربوطا الى عمود فى فبراير ١٦٠٠ • أما الحكم الذى نزل بالعالم الفلكى الايطالى جاليليو فكان أخف من ذلك •• اذ مثل أمام محكمة التفتيش فى عام ١٦٣٢ ، فهددته بالقتل والتعذيب وأجبرته على أن يجثو على ركبتيه ويدحض جميع معتقداته ونظريات كوبرنيكوس ، وحكم عليه بالسجن بقية أيام حياته •

ولم يقتصر الأمر على معارضة الكنيسة وقادة الاصلاح الدينى والعامة ، بل وصل الى أن حاول أحد مؤسسى المنهج التجريبى (كما يقال) وهو فرنسيس بيكون دحض فكرة دوران الأرض حول الشمس •

ولم تفرض نظرية كوبر نيكوس نفسها الا بعد فترة طويلة وبمجهودات علماء آخرين من أمثال برونو ، ونيكوبراهى ، وكبلر ، وجاليلو ، واسحاق نيوتن (فكانوا هرما من البراهين التى لاتقبل الجدل ••) وحذفوا ماكان فيها من عيوب ثانوية ، يقول العالم الفلكى المبرز هارلان تروستاتون (لو طلب منى اختيار ثلاثة أسماء لمشاهير الرجال الحقيقيين فى تاريخ العلم لقلت كوبر نيكوس ونيوتن ، ودارون، ولو طلب الى اختيار أعظم هؤلاء لكان هو كوبر نيكوس لأنه هو

الذى وضع أسس علم الفلك الحديث التى بدونها ماكان لنيوتن أن يبنى قانونه عن الجاذبية) [٩] .

ومع ذلك ظلت آراؤه محرمة الى مابعد وفاته بثلاثة قرون ، حيث اجتمع فى وارسو — مايو ١٨٢٩ — حشد عظيم من النـاس لاحيـاء ذكراه ، وسار الحشد الى الـكنيسة ، وانتظروا رجال الـكهنوت ، فلم يظهر أحد منهم ، وفشل الحفل ، وذلك لأن كتـابه لم يرفع بعـد من (قائمة الـكتب المحرمة على المؤمنين) الا بعد خمس سنوات من هذا التاريخ [١٠] .

ذلك كان فى علم الفلك .

وهنـاك مثال آخر فى الجغرافيا .

فقد كان موقف الـكنيسة ضد الاعتقاد بعمران الجانب المقـابل من الأرض .

وذهب بعض القديسين الى أن الخـلاص غير مستحيل على من يعتقد بذلك .. ولـكن جمهرة الآباء كانوا على شك فى امكان هـذا الخلاص . وأخذوا يسخرون ممن يعتقدون بهذا الرأى : اذ كيف يعتقد انسان بوجود أناس تعلو مواطىء أقـدامهم على رؤوسهم ؟ وبوجود نباتات وأشجار تنمو ضـاربة الى أسفل ؟ ومطر وجليد يصيب سطح الأرض من تحت الى فوق ؟ ولو كان هذا الاعتقاد صحيحا لـكان من الواجب أن يذهب المسيح الى هؤلاء الناس ويقضى مصلوبا من أجلهم؟ ان التوراة فيما يرى القديس أوغسطين (٤٣٠ م) لاتشـير الى مثل

---

(٩) المرجع السابق ص ٢٢٥ الى ص ٢٣٢ .

(١٠) انظر قصـة الصراع بين الدين والفلسفة للدكتور توفيق الطويل طبعة ١٩٧٩ ص ١٧٩ .

هذه السلالة الآدمية ، وكيف يأذن الله بوجودها فى هـذه البقاع التى لايتيسر لأهلهـا رؤية المسيح حين يعـود الى الأرض ؟ وأن التبشير بالانجيل لم يبلغ هـذه البقـاع التى يزعم أنصـار هـذا الاعتقـاد أنها معمورة ؟ فهذا الزعم افتراء على القديس بولس ، والروح القدس؟ هكذا قرر القـديس أوغسـطين ، واليه أنصتت الـكنيسة المسيحيـة والعـالم المسيحى من ورائهـا ، واعتنقت رأيه دينـا ، فاستقر رأيه عشرة قرون ، ولجأت الـكنيسة الى محاكم التفتيش وآلات التعـذيب وسخرتها فى مطاردة خصـومها القـائلين بذاك الرأى ، وأوشكت على اعدام الطبيب بطرس الباتو لولا أن أنقـذته المنيـة من براثنهـا ، وأحرقت العـالم الفلـكى الذائع الصيت : تشيكو داسكولى حيا ، وحاربت كولمبس لتقضى على مشروع رحلته فى كشف مايسمى بعد ذلك « أمريكا » وأبى مجلس جنوة أن يزوده بالمال ، فلجأ الى ملك البرتغال فأحاله الى مجلس من العلماء رفض مطلبـه ، وأفحموه بنصـوص من المزامير وأقوال مستقاة من القديس بولس وأوغسطين ، واستمر الجدل ثلاثة أعوام ثبت منه بطـلان المشروع الجـديد ، وأصرت الـكنيسة على موقفهـا ، وعلى الرغم من أن ماجلان قـد أثبت برحلته المشهورة عام ١٥١٩ وجود النـاس الذين يسكنون الجانب الآخر المواجه لموطننا من الأرض فان الـكنيسة لبثت تقاوم هـذا الرأى قرنين من الزمان ، حتى أكد صحته مبشرون طافوا حول الأرض للتبشير [١١] .

هـذا مثـال من عشرات الأمثـلة الشـهيرة لمطاردة الـكنيسة الـكاثوليكية والبروتستانية على السواء ، لرجال العلم والحركة العلمية فى ايطاليا ، وفرنسا ، وانجلترا ، وألمانيا ، مطاردة قاسية تصـل الى الاعدام حرقا (دون اراقة دماء !!) كما حدث لبرونو [١٢] .

---

(١١) انظر المصدر السابق ص ١٨٠ الى ص ١٨٢ .

(١٢) المصدر السابق ، واذا أردت الاطـلاع على مزيد من الأمثـلة فارجع اليـه من ص ١٥٩ الى ص ١٨٥ والى كتـاب بين الدين والعـلم لاندرو ديكسون وايت ترجمة اسماعيل مظهر طبعة ١٩٣٠ .

مقاومة المطبعة : بل لقد وصل الأمر — ونتيجة لاختراع المطبعة فى القرن الرابع عشر الى أن أخذت الكنيسة تصدر قرارات التحريم والحرمان ضد طائفة من الكتب والكتاب ، فقد أصدر البابا اسكندر الخامس أمرا بابويا عام ١٥٠١ ينذر فيه بعقاب من يقدم على طبع شيء لم يصرح بطبعه ، وقرر الملك هنرى الثامن فى فرنسا عقوبة الأعدام جزاء الطبع من غير اذن رسمى ، واضطلعت محكمة التفتيش بفرض رقابتها على المطبوعات ، وأنشأت من أجل هذا سجلا تدون فيه أسماء الكتب التى تحرم الكنيسة على المؤمنين قراءتها أو حيازتها .

وأقرت جامعة كولونى — قبيل نهاية القرن الخامس عشر — الرقابة على الكتب وأوجبت اجراء فحصها قبل طبعها ، فاستحقت بذلك ثناء البابا ستكتوس وتهانيه .

وفى عهد البابا الاسكندر السادس قرر مجلس لايترن معاقبة كل ناشر يقدم على طبع كتاب من غير ترخيص من هيئة دينية خاصة بذلك ، وكانت العقوبات التى أقرها تتراوح بين الحرمان ودفع الغرامة ومصادرة الأملاك واعدام الكتب .

ثم أمر البابا بولس الرابع مجمع الديوان المقدس باعداد قائمة بالكتب المحرمة ، وطبعت هذه القوائم فى طبعات متوالية وظل الأمر كذلك الى عام١٨٩٧م حيث خفف البابا ليو الثالث عشر العقوبات، وأذن بنشر الكتب التى لاتمس العقيدة الكاثوليكية ، وصرح بطبع الكتاب المقدس [١٣] وترجمته الى اللغات الدارجة ..يقول روجيه جارودى :

---

(١٣) حتى (الكتاب المقدس) كان ممنوعا نشره على نطاق شعبى.

(يمكن تعليل الركود العلمى فى أوربا المسيحية بذلك الموقف الحذر من الطبيعة التى لابد أن تصرف الانسان عن التوجه الى الله .

هذا هو « أوزيب » عالم اللاهوت ومطران « القيصرية » يتوجه الى علماء الاسكندرية قائلا (نحن لانولى نشاطاتكم أدنى اهتمام ، بل نزدرى تلك النشاطات التى لا طائل منها ونتوجه بعقولنا صوب اهتمامات أسمى وأرفع .

وبعد عشرة قرون يؤكد القديس توما الاكوينى هذه النظرة بقوله : « نحن نفضل الحد الأدنى من المعرفة بالأمور الدنيوية الفلسفية) [١٤] .

هذا مجال من مجالات الصراع بين الكنيسة ورجال النهضة ، وعوامل التقدم — فى مجال العلم — سار الأمر على منواله فى مجال السياسة والأخلاق .

ونختصر فنقول : فى فلورنسا أعدم سافونا رولا وهو رجل دين يخلص للعقيدة الكاثوليكية ، ويوقر المركز البابوى ويحرص على حرفية النصوص المقدسة ، أعدم بقرار من البابا اسكندر الخامس ، لتهجمه على أشخاص البابوات وقيامه بدور سياسى [١٥] ، للتحرر من الفساد ، وكان هذا مشجعا لكى يرى رجال النهضة أن الكنيسة متحالفة مع الاستبداد والاضطهاد والحكومات والأباطرة الذين يقفون ضد عوامل التغيير والاصلاح .

وفى مجال الأخلاق نشر شارون عام ١٧٠١ كتابا فى الحكمة صرح فيه (بأن الأخلاق لاتقوم على الدين ، واستعرض تاريخ المسيحية

---

(١٤) مايعد به الاسلام ص ١٢١ .
(١٥) قصة الصراع بين الدين والفلسفة للدكتور توفيق الطويل ص ١٧١ .

ليكشف عن السوءات التى نجمت عنها) [١٦] وربط المفكرون بين رجال الـكنيسة وبين الفساد الأخلاقى ، طبقا لما كان عليه السلوك المشين للبابوات ، ووصل الأمر الى أن أعلن نيتشه ضرورة التخلص من الأخلاق المسيحية بما فيها السماحة والرحمة •

هكذا تجمعت فى أوربا أسـباب لنشأة العلمانيـة ، أقنعت رجال النهضة بأنه لاسبيل اليها الا باستبعاد رجال الـكنيسة ، والدين ، من مجال التوجيه فى الحياة الدنيا •

وساعد هـذا على تدعيم موقف الالحاد بصـفة عامة فوصـلت العلمانية على يد ماركس لا الى مجرد اسـتبعاد الدنن ، ولـكن الى اعتباره مخدرا ، أو ايديولوجية مصطنعة •

* * *

تلك هى الأرض السبخة التى أنبتت العلمانية فى أوربا فأين هذا من أرض الاسلام ؟

مآل العلمانية فى أوربا :

واذا كانت تلك هى عوامل نشأة العلمانية فى أوربا : صراع بين حوافز النهضـة وبين الـكنيسة ، فى مجال العلم والسياسة والأخلاق وشئون الحيـاة الدنيـا بوجه عام ••• فان السؤال بعـد ذلك يكون عن مآل هـذا الصراع — بين العلمانية وبين الدين — فى أوربا أيضا• بمعنى أنه اذا كانت تلك العـوامل قـد ألجأت الى نشأة العلمانيـة ، داعية الى استبعاد الدين (المسيحى) عن شئون الحيـاة الدنيـا فى بعض البلاد ، أو الى اسقاطه بالـكلية فى بلاد أخـرى ، فان البحث ينبغى أن يتوجه الى بيـان ما آل اليه الأمر فى تلك البـلاد بالفعل ،

---

(١٦) المصـدر السابق ص ١٦٦ •

هل استبعد الدين (المسيحى) حقـا ؟ هـل أسـقط حقا ؟ والى أى درجـة ؟

يقول الأمير شكيب أرسلان :

(هل يظن النـاس عندنا فى الشرق أن نهضة من نهضات أوربا جرت دون تربيـة دينيـة ؟ أفلم يقل رئيس نظار ألمانيا فى الرايستاغ منذ ثلاث سنوات [١٧] : ان ثقافتنا مبنية على الدين المسيحى ؟) •

وفيما يلى ايضاح لارتباطات أوربا بالمسيحية فى بلاد هامة :

فى الولايات المتحدة الأمريكية [١٨] :

قالت التايم فى تعليقها على زيارة البابا يوحنـا بولس الثـانى لأمريكا عام ١٩٧٩ :

(خلال عام واحد قفز الحبر الأعظم الى بؤرة الضوء كزعيم متألق يتعطش العالم اليه ، زعيم قادر على تحريك النـاس ليحققوا انجازات أكبر من تفكيرهم ، انه رجل كل العصور وكل المعتقدات) •

وقالت نيوزويك (ان الطريقة التى يثير بها الحماسة توحى وكأن الروح القدس قد ظهرت فى أمريكا) •

وأعلن المذيع فى التليفزيون الأمريكى (ان من معجزات البـابا أنه فى سنة واحدة أسقط عيدى أمين وأحل حاكما مسيحيا محله •وأسقط بوكاسا الحـاكم الأفريقى المسيحى الذى تجرأ واعتنق الاسـلام •• سقطته قوات أكبر دولة كاثوليكية فى العالم) •

---

(١٧) نشر الأمير شكيب رسالته « لماذا تأخر المسلمون وتقـدم غيرهم عام ١٩٣٠ م » انظر الرسالة طبعة ١٩٦٥ ص ١٤٧ .

(١٨) انظر مجلة الحوادث اللبنانية حول زيارة البابا لأمريكا ١٩٧٩ .

ويقول بعض المعلقين الصحفيين على هذه الزيارة :

(رحلة البـــابا عمل سياسى كامل ، ورغم أن كارتر بوصفه رئيس أكبر دولة مسيحية — آنذاك — كانت الى ســنوات قريبــة معــادية للــكاثوليك ، حتى أنهــا احــدى الدول القليلة فى العالم التى لاتعترف بالفاتيكان كدولة ، رغم أنه اضطر الى طمأنة اللاكاثوليك بقوله « لقد اتفقت مع البــابا على أن الــكنيسة لايجوز أن تتورط فى السياســة وأن ترتبط بنظام سياسى » الا أن البــابا لم يترك قضــية سياسية الا وتحدث فيها من المشكلة اللبنانية الى التعايش الى الطغيان فى أمريكا اللاتينيــة والحوار بين الشمال والجنــوب مرورا بمستقبل القــدس وكامب ديفيد) •

ويقول أحد شهود هذه الزيارة وهو باكستانى علمانى يدعى أحمد الماوردى ، كما جاء فى تحقيق لمجلة الحوادث فى ١٩٧٩/١٠/٢٧ أنقله بنصه لدلالته واستغنائه عن التعليق :

« لا أصــدق ما أراه كأنى أعيش فيلما عن القرن الثانى عشر ، كنت أظن أننى أعيش فى قلب الحضارة العلمانيــة والمادية وفق معقل الديمقراطية ، حتى رأيتهم ينــادون البــابا بصاحب القداسة • قد ثرنا على الاســلام ، مع أنه لا قداسة لأى فرد فى الاسلام ، حتى محمد الذى يعتقــد المسلمون أنه نبى نزل عليــه ملاك من السماء ، لايوصف بالقدسية •• بل يقول المسلون : العصمة لله وحده » وليس هنــاك زعيم اســلامى أو رجل دين يدعى معجزة واحدة • وعنــدما قال شيخ الأزهر فى مصر وكان من الصوفيين أنه رأى فى المنام — ولا قيد على الأحلام — رســول الله يعبر مع الجيش المصرى خط بارليف ثارت ثائرة العلمانيين والتقدميين فى العــالم العربى واتهموه بالخرافة والعودة للقرون الوسطى ، وقالوا انه فى عصر الصــواريخ الموجهــة والفانتوم والوصــول للقمر لا مكان للدين أو الميتافزيق ، وفى الولايات المتحدة تخصص فى كل اجتماع للبــابا أماكن للمقعدين والمرضى الذين

جاءوا من جميع أنحاء الولايات المتحـدة فى انتظـار معجزة تشفيهم بعدما عجز الطب فى أرقى بلد عن شفائهم • بل ويسأل المذيع كاردينال نيويورك عن شروط تعيين الـكاردينال ، فيعـددها ومن بينهـا وقوع معجزتين على الأقل •• ويسأله المـذيع الذى أذاع على الهواء نزول أول أمريكى على القمر ، يسأل بكل هدوء وبدون أن تظهر على وجهه ملامح شك : وما هى معجزاتك ؟ فيرد بتواضع شديد : « شفاء سرطان فى الحنجرة لأحد المؤمنين » لقـد سألت نفسى طوال هذا الأسبوع : هل نحن ضحية لعبـة شـديدة الخبث ، خرجنـا منها بلا صواريخ ولا دين •• بل بالفقر والـكفر ؟ بينما احتفظ الآخرون بدينهم ووضعوا أعلامهم فوق القمر ؟•• لقد ذهلت •• وأنا أرى البابا فى ثياب أفخم من أى ثيـاب يرتديها ملك ، ويضع تاجا على رأسه ويمسك صونجانا • ولم تخطىء « الواشنطن بوست » عنـدما قالت ان كنيسـة روما ، احتفظتبتقاليد ورسالة الامبراطورية الرومانية، والبلاط الامبراطورى، فحكومة الفاتيكان اسمها Curia وهو نفس الاسم للبـلاط الرومانى• أو مبنى مجلس الشيوخ الرومانى ، ولقب Pontifex التى كانت تعنى الـكاهن الأعظم فى الامبراطورية تحولت الى Pontiff (الحـبر الأعظم كما نقول نحن العرب) ••

وتابعت رسالة الباكستانى تقول :

« الغرب مازال يعشق الامبراطور الاله ، وما رأيته خلال زيارة البـابا يجعلنى أعيد النظر فى كل ماتعلمته على يد الأساتذة الغربيين وما قرأته من مؤلفات علمانية مادية ••• من كان يصدق أن « روزالين كارتر » تقول : « جئتنا كنموذج للرؤيا التى توحد الجنس البشرى ، رؤى خالقنـا » فهل نحن فقط الذين كفرنا بخالقنا ؟• من كان يصدق أن ادوار كيندى المرشح لرئاسة أكبر دولة صناعية فى العالم • يركع أمام البابا لننـال بركته ••؟ أما عمدة فيلادلفيا « فرانك ريز » فقـد وقف على احدى ركبتيه حتى قاربت رأسه من ركبة البابا يتلقى البركة

ونشرت صــوره فى كل الصحف ، واعتبرته دعاية لصالحه ضــد الحملة التى تشنها ضده وزارة العدل الأمريكية لاتهامه بالقسوة ضد الملونين ؟

الراهبة التى كانت فى انتظــار وصــول البــابا ، ما أن تسلمت قبعته حتى ظلت تقبلها ، واستغرقت فى التقبيل فلم تحس بوصــول صاحب القداسة نفسه •

فى الاستاد (يانكى ستاديوم) ظل الثمانون ألف أمريكى يهتفون ويهللون ويصلون أكثر من سبع ساعات فى انتظار موكب البابا •• حتى اذا وصل ، جن جنونهم ، واشرأبت الأعنــاق ، وحســدوا الذين تقع مقاعدهم فى الصف الأمامى ، لأنهم يستطيعون لمس طرف مرافقيــه ، وكبار الــكرادلة والأساقفة فى ثيابهم التقليــدية ، ولــكل حزام من لون خاص وفقا لمرتبتــه فى البلاط الــكنسى •• ينحنون أمام البابا ، ويخلعون له تاجه ، ويلبسونه الطاقيــة الصــغيرة التى يلبسها اليهود الا أنها بيضاء مرة وحمراء أخــرى وارجوانيــة معظم الوقت •• ثم يلبسونه ثيــابا خاصــة شبيهة بلبس الأطبــاء فى غرفة العمليات •• وعندما عرق الأب « دونالد هانسون » مسح البابا جبينه •• وتدافع الصحفيون والمصورون يسألون الرجل عن شعوره بعد هذه اللفتة وماذا قال له البــابا ، فقال هانسون انه ذهل وتقمصته حالة من الوجد عندما لمست يد البابا جبينه ، فنسى كل ماجرى بينه وبين البابا من حديث •

ويتقدم كاردينــال أو أسقف نيويورك للبابا بالمبخرة وكنت أظنها اختفت من الغرب ، وبقيت عندنا فى حلقات الذكر المتخلفــة — ويضع البــابا البخور بيده ، ويعطى الاذن بتبخير المــذبح ، لطرد الشياطين والأرواح الشريرة التى قــد تكون مختفية داخل المذبح ، مع أن رجال المبــاحث الجنائيــة والمخابرات العــامة وحرس الفاتيكان الخاص ، قاموا بفحص المــذبح بالأجهزة الاليكترونية والــكلاب المــدربة على اكتشاف القنابل والمتفجرات ، ولــكنها لاتستطيع اكتشاف الشياطين •

« بعد التبخير •• بدأت الصلاة ، وقد دهشت من عدد الذين يحفظون الصلاة بين شباب نيويورك ، ولو أجرى امتحان فى سورة الفاتحة بين شباب كراتشى أو القاهرة أو دمشق لسقطت الأغلبية الساحقة » • وتتابع المراسم ويأتون بالخبز والنبيذ للمذبح • ويتقدم من البابا اسقفان يحملان الانجيل مفتوحا ، ويظلان واقفين، والبابا يقرأ بعض الآيات دون أن يلمس الكتاب • ثم يقرأ ممثلو الأبرشيات فقرات من سفر التكوين وتردد الجماهير التراتيل بعد كل تلاوة •• والبابا يلوح بيده راسما علامة الصليب • فتهتف جماهير نيويورك فرحة بالتلقى • وتبدو الحسرة فى أصوات وعيون الجالسين فى الشرفة العليا لأنهم خارج دائرة البركة ، فتتداركهم رحمة البابا • ويرفع صولجانه الذى يصل طوله الى المترين ، الى أعلى لتصيبهم بعض ومضات البركة •• فيهتفون ويشكرون ••

الألوان والبساط الأحمر والثياب والحفل والمذبح الذى تكلف أربعمائة ألف دولار كلها لاتوحى أبدا ببساطة الذى ولد فى مذود ، ولا بصياد السمك الذى أعلن البابا أنه خليفته رقم ٢٦٤ •

« الصلاة تمت •• وساد هدوء •• البابا أغمض عينيه فى انتظار الحلول •• » •

« البابا يفتح عينيه •• حدث الحلول ••هللويا •• صاح الجمع•• ونهض البابا •• أمسك رغيف عيش صغير ولوح به للجماهير ، فرفعت الأضواء ، وتركزت العدسات ، على رغيف العيش فى يد البابا وكأنه تحول الى أحد أحجار المريخ أو قنبلة ذرية •• ثم بدأ التناول ، كان قد تم اختيار ٢٥ شخصا للتناول من يد البابا شخصيا ودخول التاريخ •• وهؤلاء يحق لهم حمل وردة زرقاء فى عرواتهم مدى الحياة، ويمكن توارثها ، وانتدب أربعمائة قسيس لتوزيع القربان على الثمانين ألف •• والأصل فى التناول أن يضع القمص بيده الخبز فى فم المؤمن •• ولكن كنائس الولايات المتحدة أجازت أن يتناول المؤمن

القربان بيـــده من يد القسيس ويضعه بنفسه فى فمه ، واعتبر ذلك اصـــلاحا ثوريا •• وتسوية مع الأمريكيين الشديدى الهوس من ناحية الأمراض ، بعـــدما حـــذر الأطبـــاء من امكانية أن تنتقل العدوى مع البركة بانتقـــال يد القسيس من فم الى فم •• ولـــكنى لاحظت أنهم فى هذه المرة كانوا حريصين على تنـــاول القربان فى الفم مباشرة ربما بسبب المناسبة الخاصـــة •

« ومعروف أن كل الجهود التى بذلت لجعل رجال الدين المتزوجين أو المرأة تشترك فى هـــذه المراسم قـــد فشلت ، وأعلن البابا بصريح العبـــارة رفض المطلب المطروح منذ سنوات داخل الـــكنيسة ، بفتح البـــاب أمام الراهبـــات لخـــــدمة الرب فى السلك الـــكهنوتى ، فالمعروف أن فى الولايات المتحدة مائة وخمســـة وأربعين ألف راهبـــة يتطلعن للمساواة مع الرهبـــان ، ولـــكن لم تجـــرؤ على اعلان المطلب والاحتجاج المهـــذب على موقف البـــابا الا خمسون فقط أى واحـــدة فى كل ثلاثة آلاف تقريبـــا •• وقفن أثنـــاء خطاب البابا وقد وضعن شـــارة على أذرعتهن وبعد صلاة استغفار طوال الليل •• ولـــكن البابا أصر على أن الـــكهانة مهنـــة الرجل ، وأن الله اختار الرجل لهذه المهنة، ولو كان يريـــد مســـاواة المرأة بالرجل لمـــا جاء المســـيح فى صـــورة الرجل » •

« وقال « كلير راندال » سكرتير عام المجلس الوطنى للكنائس : « لقد تكلم البابا كأن المرأة لا يمكن أبدا أن تصـــبح كاهنة ، وأكد أنه فيما يتعلق بالقـــداسة لا يمكن للمرأة أن تكون لها نفس علاقة الرجل مع الرب ، أو كأن الرب لايستطيع استخدام المرأة بنفس الطريقة التى يستعمل بها الرجل » •

وقـــد سألتنى — يقول الباكستانى — زميلة بالجامعة عن رأيى ، فقلت أنه اذا كانت هناك مهنة فى العالم يجب أن تتحقق فيها المساواة بين الرجل والمرأة فهى خدمة الرب فى سلك الرهبنـــة ، لأن كـــلا من

الرجل والمرأة يفقد الصـفة المميزة ، ويتحـول الى كائن فوق الذكر والأنثى ، عندما يضحى بأقوى غريزة فى الانسان ، وقـد سألتنى عن موقف الاسـلام ، فتذكرت صـاحبى الايرانى وسوء ظنـه بالاعلام الأمريكى ، وقلت لها أنتم تهتمون كثيرا بالمرأة المسلمة •• وأذكر بعض ماكتب حول : هل يضمن الدسـتور الايرانى حق المرأة فى تولى منصب رئيس الجمهورية ؟ ولـكننى لم اقرأ تعليقا واحدا على خطاب البـابا فى ايرلندا عندما قال ان مكان المرأة فى البيت لانجاب الأطفال وتربيتهم وقال : « لا تستمعن للذين يقولون لـكن أن العمل أو النجاح فى أية وظيفـة يفوق الاستجابة لصوت الغريزة فى منح الحيـاة ورعاية هذه الحيـاة » ، ولا وهو يقول : « ان المرأة عليها الطاعة والتصديق تماما كما أطاعت مريم العـذراء وصدقت الملاك جبريل •• » وقلت (الكلام للباكستانى) لقد رأيت النساء فى جميع جولات البـابا محتشمات ، ثيابهن تحت الركبة والى آخر الذراع • ومعروف أنه لايسمح بمقابلة البـابا لسيدة لاتغطى رأسها • ومشهورة حكاية غولدا مائير عنـدما ذهبت للقـاء البـابا ، ولم يكن عنـدها قبعـة ، ورفضت أن تشترى قبعـة من روما ، لـكى لاتبدد رصـيد اسرائيل من العملة الصعبة ، فطلبت من شركة العـال أن تحضر لها قبعـة قـديمة من منزلها فى القدس فى أول رحلة ، ولو لم تغط رأسها لمـا حظيت باللقاء ولا تمت المقـابلة التاريخية •

« وقد سألت صـديقتى الأستاذة بالجامعة أيهما أقسى على المرأة• لبس الحجاب أم حرمانها من الأنوثة ، كزوجة وأم •؟ ولمـاذا تهتمون فى الغرب بالحرية الجنسية للمرأة المسلمة ، ولا تعترضون على تحريم الجنس نهائيا على مائة وخمسين ألف امرأة فى الولايات المتحدة الأمريكية وحدها ، وما لايقل عن ١٥ مليونا فى العالم ••؟ فلم تجـد ماترد به سوى أن الحـالة الثانية تتم باختيـار المرأة وارادتها •• فقلت لهـا ولـكن الحرية لاتكون مرة واحـدة ، بل لابد من حق المراجعة ، والبابا

يرفض أن يحل أى راهب أو راهبة من القسم ، بعكس البابا بول السادس الذى أعفى عشرين ألفا ، لم يوقع البابا جون بول الثانى بالموافقة على طلب واحد حتى الآن • بل قال ان السلك الكهنوتى هو اختيار أبدى ، « فنحن لانرد عطاء الله ، الرب الذى قال نعم لا يحب أن يسمع لا ••• » •

وتابع الباكستانى ملاحظاته :

« لقد أدهشنى أن البابا وجه قيادات المجتمع الأمريكى بتعاليم بولس المتوفى منذ عشرين قرنا ، فأعلن تحريم الجنس قبل الزواج ، ومنع الحمل ، وحرم الطلاق ، « لأن زواج مسيحى ومسيحية ، لارجعة فيه ، كما لارجعة فى محبة الله » كما حرم الاجهاض •• « نحن ننطق بلسان الرب » « نحن الذين بموجب الحق الالهى نعلن حدود القانون المسيحى » « لقد أوضح سانت بول العلاقة بين العدالة والحقيقة » وقوله : « ان كل القيم والأخلاقيات والحريات يجب أن تخضع وترتبط بتعاليم الكنيسة » وتساءلت : كيف تصلح تعاليم سانت بول لتوجيه مجتمع غزا الفضاء وبنى ناطحات السحاب — التى أسر البابا قلوب الجماهير بذكر اسمها باللغات التسع التى يتقنها — ولا تصلح تعاليم القرآن والنبى محمد والخلفاء الذين أقاموا دولة وأداروا مجتمعا متعدد الجنسيات والأديان يمتد من المحيط الى المحيط ، بينما لم يمارس القديس بول أية مسئولية سياسية أو اجتماعية ولا حتى كانت له أسرة ، وانتهى نهاية مؤسفة على يد طغاة روما ، اذ صلبوه ورأسه الى أسفل ، كيف تصلح تعاليمه لتوجيه المجتمع الأمريكى ، ولا تصلح تعاليم الخلفاء لتوجيه المجتمع الباكستانى الذى مازال يعيش فى القرن العاشر ؟•

كيف تخرج النيويورك تايمز بعنوان يقول : « أخلاقيات الجماع ، وتورد تحته آراء البابا فى العملية الجنسية ••؟ ونرفض نحن أن يتكلم شيوخنا مع أنهم يبحثون الطلاق ومنع الحمل ويقولون لا رهبانية

فى الاســلام ••؟ ورغم أن واقع الحيــاة أقرب لرأى أشياخنا • ففى البحث الذى أجرته .N.B.C تبين أن ٦٦ بالمــائة من الــكاثوليك يؤيدون استخدام وسائل منع الحمل و ٦٣٪ يؤيــدون حرية الطــلاق و ٥٣٪ يعتقدون بضرورة السماح للقس بالزواج ؟•

وفــكرت كثيرا فى الطريقة الخبيثة التى لجأت اليها « النيويورك تايمز (٥/١٠/٧٩) ففى هذا اليوم كانت الصحيفة عامرة بأنباء الموقف البابوى من المرأة ، واذا بها تختــار هــذا اليوم ، وبلا مناسبة ، لنشر مقال بقلم « كريستوفر ورن » عن الــكتاب الأخضر ، يتناول الفصــل الخاص بالمرأة والحيض واستحالة مساواتها بالرجل •• والتأكيد على أن هذا هو رأى الاسلام !!•

وفى بريطانيــا :

أين هو الفصل بين الــكنيسة والدولة (العلمانية) ؟

أليس ملك بريطانيا هو رئيس الــكنيسة فى الوقت نفسه ؟•

(لم يحدث التاريخ أن مسألة من مسائل انجلترا الداخلية أخذت فى الأهمية الدور الذى أخذته قضــية (الافخاريستا) وهى قضــية تحول الخبز والخمر الى جسد المسيح •

وأصل هــذه العقيدة مارواه الانجيل عندهم من أن السيد المسيح عليه السلام قبل صعوده الى الســماء تعشى مع تلاميــذه وودعهم ، وبينما هــو على المــائدة تنــاول لقمــة من الخبز وقال : كلوا هــذا جسدى ، وشرب جرعة من الخمر وقال : اشربوا هو ذا دمى ، فتكونت من هــذه الــكلمات فى النصرانيــة عقيــدة معناها أن الخبز والخمر يستحيلان الى جسد الرب تماما ، حقيقة لا مجازا ، ولمــا كان القسيس عندهم هو خليفــة المسيح كان لابد له كل يوم عنــد التقــديس فى الــكنيسة أن يتناول لقمــة من الخبز ويشرب رشــفة من الخمر وهو

يتلفظ بنفس الكلمات التى تفوه بها السيد المسيح عليه السلام فى أثناء عشائه مع الحواريين •

فمتى فعل ذلك تحول هذا الخبز وهذا الخمر الى جسد الرب حقيقة لا مجازا ، ولذلك يوضع هذا الخبز ويسمونه القربان فى حق ثمين فوق المذبح من الكنيسة ، ويسجدون له ، وذلك باعتبار أن هذا القربان هو الاله نفسه ، ويسمون وجود الاله فيه بالحضور الحقيقى•

وقد كانت هذه العقيدة هى عقيدة المسيحيين جميعا ، ولا تزال عقيدة أكثرهم الى اليوم • الا أنه عندما جرى الاصلاح البرتستانتى تغير الاعتقاد عند أتباعه بقضية الحضور الحقيقى وقالوا ان هذا مجاز لا حقيقة ، وأنه مجرد رمز وتذكار ، وعدلوا عن وضع القربان فوق المذبح والسجود له باعتبار أنه هو الاله بذاته وصاروا فى كنائس البروتستانت يجعلون هذا القربان فى تجويف خاص به من الحائط •

ولكن الكنيسة الانكليكانية — الكنيسة العليا فى انكلترا — لم يتفق رأيها فى قضية القربان أيكون التحول فيه حقيقيا أم مجازيا، وأصبحت مسألة خلافية بين اليمين والوسط واليسار ، وخيف فيها من انشقاق عام •

عندئذ أمرت الحكومة البريطانية بتأليف مجمع من الأساقفة تحت رئاسة أسقف كنتربرى لحل المشكلة ، فانعقد المجمع زمنا طويلا ولم يوفق الى حل [١٩] •

وأخيرا ألحت الحكومة على هؤلاء الأساقفة بأن يبتوا فى القضية فحكموا بالأكثرية — مع مخالفة ستة من المطارنة — بأن الخبز والخمر يستحيلان فى قداس الكاهن الى جسد المسيح ودمه ،

---

(١٩) أنظر كتاب لماذا تأخر المسلمون وتقدم غيرهم للأمير شكيب ارسلان طبعة ١٩٦٥ هامش ص ٩٧ الى ص ٢٠٠ •

وعليه تجب عبادتهما والسجود لهما ، ووضعهما فى أعلى المذبح لا فى كوة فى حائط الـكنيسة ، يعنى أنهم رجعوا فى ذلك الى العقيـدة الـكاثوليكية •

هـذا ولمـا كان القانون الأساسى لبريطانيـا العظمى يوجب أن يكون القول الفصل فى جميع هذه القضايا الدينيـة لمجلس اللوردات ولمجلس العموم عملا بكتاب الصـلاة الذى هو مرجع الأمة الانجليزية أحيل حكم المطـارنة هذا الى مجلس اللوردات ، وكانت للمنـاقشات فيـه جلسات متعددة ، بلغت من اهتمام الملأ مالم تبلغه المنـاقشات فى أية مسألة •

وأخيرا أيد مجلس اللوردات بالأكثرية قرار مجمع الأساقفـة • فلما جاءت القضـية الى مجلس العموم نقضوا قرار مجلس اللوردات وحكم مجمع الأساقفة وقرروا أن الخبز والخمر لايستحيلان بالبداهة الى جسد السيد المسيح ودمه ، واستندوا فى ذلك الى كتاب الصـلاة المشار اليه سابقا • وعلى أثر هـذا القرار من مجلس العموم أستعفى رئيس أساقفه كنتربرى من منصبه •

فى أمريكا الجنوبيـة :

يعتبر رجال الدين فى بعض دول أمريكا الجنوبية نموذجا للعمل السياسى اذ تحول رجال الدين الى ثوار حقيقيين • وفى خلال مؤتمر الأبرشيات اللاتينيـة الذى عقد فى منطقة « مدلين » فى جمهورية كولومبيا سنة ١٩٦٨ برز تيـار قوى يطالب الـكنيسة بأن يكون لها دور فعال فى الدفاع عن الطبقـات الفقـيرة ، ومعارضـة الأنظمـة الدكتاتورية وكان وكان على رأس هـذا التيـار أسـقف السلفادور الذى تمكن فى فترة لاحقـة من أن يحول الـكنائس الى أماكن تجمع لانطلاق المظاهرات والمطالبـة بسقوط النظـام العسكرى والاسـتيلاء

على أراضى الاقطاع •• الى حد أن أخذت الأوساط الحكومية تطلق عليه تسمية (آية الله روميرو ••) تشبيها له بآية الله الخمينى •

وفى بعض مواقفه الثورية كان يدعو رجال الجيش الى (عدم الامتثال للأوامر المخالفة لشريعة الله والكنيسة ••) ويقول (انتبهوا الى وصية الله ولا تقتلوا وفقا لأوامر الطغاة) وانتهى به الأمر فى صدامه مع الحكومة العسكرية الى تصفيته جسديا كما يقولون •

وعندما زار البابا يوحنا بولس الثانى المكسيك عام ١٩٧٩ وحاول تهدئة خواطر الفقراء فيها بقوله (ان المسيح أيضا ولد فقيرا ومات فقيرا وان الله يحب الفقراء) • فوجىء بمنشورات يوزعها رجال الدين أنفسهم جاء فيها ان كون (المسيح ولد فقيرا ومات فقيرا لايعنى أن على الفقراء القبول باستغلال الأثرياء لهم لأن المسيح ثار على الأثرياء ••) •

والراهبة تيريزا التى حصلت على جائزة نوبل للسلام قالت للبابا حين استقبلها بهذه المناسبة :

« اعطنى نصف الفاتيكان لاسكن الفقراء » •

وبعض رجال الدين أيضا خاضوا معارك عسكرية فى نيكاراجوا وهم يرتدون أثوابهم الكهنوتية • كالأب غاسبار غاسيا الذى قتل فى الجبهة عام ١٩٧٨ •• والأسقف مانويل سالاتزار الذى كان يجوب الأرياف محرضا المزارعين على الانضمام الى الثوار •

وفى الأرجنتين العديد من الكهنة الشبان العاملين فى المصانع والمزارع الذين يكرسون معظم أوقاتهم للعمل على تغيير النظام ، وعلى رأسهم المطران ميخائيل هساين •

والأمثلة على ثورة رجال الدين فى أمريكا اللاتينية عديدة [٢٠] •

---

(٢٠) أنظر مجلة الحوادث فى ١٩٨٠/٤/٤ العدد ١٢٢٢ •

فى بولنـــــدا :

بدأ الشعب البولندى منذ مطلع عام ١٩٧٩ يستعد لاستقبال البابا فى أرض آبائه وأجداده استقبال الفـــاتحين • واشتركت السلطة فى الاستقبال الرسمى• وكانت هتافات المستقبلين « نريد الله فى مدارسنا• نريد الله فى منازلنا ، الله هو ربنا » •

وتعدى البـــابا فى خطبـــه المواعظ الدينية وأشار الى أن زيارته هى لـــكل شعوب أوربا الشرقية ، بمن فى ذلك المسيحيون فى الاتحاد السوفيتى ، وقال : « ان المسيح لايقبل أن يكون الانسان أداة انتاج فقط •• فعلى العامل ورب العمل والدولة والأمة والـــكنيسة نفسها أن يتذكروا أنه لايمكن فصل المسيح عن عمل الانسان » •

وحركت هذه الزيارة بولندا من جـــديد ، وأكدت على أن أيمان الشعب لايزال حيا على الرغم من ثلاثين عاما من الالحاد الرسمى •

وأصبحت الكاثوليكية بعد أحداث بولندا مصدرا لعدم الاستقرار بالنسبة لأنظمة الستار الحـــديدى ، حتى ليخيل للعـــالم أن التـــاريخ أخذ يعود الى الزمن الذى كانت فيه المسيحية دليل عمل ثورى ووسيلة لقلب الطغيان • والفاتيكان أصبح هاجسا يسكن فى بيوت الأنظمـــة الدكتاتورية فى أوربا الشرقية •

وفى ألمـــانيا :

أصبح مارتن لوثر بالنسبة لألمانيا الديمقراطية ذات النظام القائم على تعاليم ماركس وانجلز ولينين أحد آبائها الأيدلوجيين •

فالمدرسة الماركسية من خلال انجلز اعتبرته رائدا لثورة اجتماعية سياسية لم يكن عنده الجرأة على استيعاب مايترتب عليها • والمدرسة الفرويدية من خلال أحد أبرز أعلامها أريكسون — نظرت اليه باعتبـــار أنه محطم عقدة الأبوة وديانة الأب •

ومدرسة نيتشه — فيلسوف القوة — رأت من خلال مؤسسها أن مارتن لوثر هو محرر الانسان (المتفوق) !!

أما فى المانيا الاتحادية فان الدين ملتصق بالدولة تحمى مؤسساته ومصالح هذه المؤسسات سواء كانت لوثرية أو كاثوليكية • فالكنائس فى ألمانيا الاتحادية تعتبر أغنى كنائس العالم • والتعليم الدينى اجبارى فى المدارس الى سن الرابعة عشر اذ يفرض على الطالب البروتستانتى تعلم اللوثرية ، وعلى الطالب الكاثوليكى تعلم الكاثوليكية •

اضافة الى ذلك فان الدولة تعتبر حامية لمصالح الطائفتين وذلك بكونها مسئولة عن جباية الضرائب الكنسية المفروضة على جميع المواطنين وهى ضرائب تصل الى ٩٪ من الدخل ، (وكانت ٢٢٪ عام ١٩٧١) تجبى بواسطة الدولة التى تحتفظ بأربعة فى المائة •• وهذه الضريبة الكنسية التى تثقل كاهل المستهلك هى التى دفعت بعضهم الى اعلان الخروج على الكنيسة • وقد بلغ عدد الخارجين فى السنوات الماضية من ١٩٧٤ الى ١٩٨٠ فى المانيا مليون فرد معظمهم من البروتستانت ، كانت حجتهم أن ارتفاع أسعار البترول يحول دون تمكنهم من دفع الضريبة وكانوا يقولون ساخرين : « لقد دفعنا ضريبة للاسلام وكفى •• » [٢١] •

الكنيسة فى افريقيا وعنايتها بشئون الحياة الدنيا [٢٢] :

ان وراء مظاهر الابتهاج الذى لقيه الحبر الأعظم خلال زيارته الأخيرة لأربع دول افريقية (نيجيريا — بينان — الغابون — وغينيا

---

(٢١) مجلة الحوادث .

(٢٢) تحقيق نشرته مجلة الحوادث اللبنانية بعنوان « الكنيسة فى افريقيا تطالب بالاستقلال لمواجهة الأنظمة القمعية » •

الاستوائية) تعيش « الـكنيسة الأفريقية » نزاعا داخليا شديدا يشبه الى حد بعيد النزاع الدائر فى كنيسة أمريكا اللاتينية •

هذا النزاع قائم بين تيـارين : الأول محافظ يتمسـك بالمركزية الفاتيكانية ويستمر فى نسخ نموذج الـكنيسة الأوربية • والثـانى : تيـار راديكالى انجيلى متطور يدعو لبنـاء كنيسة أفريقيـة حقيقيـة ملتزمة بقضايا الانسان ، الاقتصادية والسياسية والاجتماعية •

ان الـكنيسة فى أفريقيا تشهد حاليـا تناقضـا بين مفهومين : الأول يعطى الأهميـــة للانتشـار العـددى • الأفقى • للمؤمنين ، وفرنجتهم • اذا صح التعبير والثانى يقول بالانتشار العامودى للمفاهيم الـكاثوليكية من خلال الالتزام الاكليريكى بحيـاة المواطنـين وتحول الانجيل الى دليل عمل شعبى ودخوله أعماق الثقافة الافريقية •

لقـد دخلت الـكاثوليكية الى افريقيـا تحت اشراف السلطـات الاستعمارية وبتسهيل من الملوك والحكام المحليين • يومها كان الرجل الأبيض يمثل السلطة والتفوق • وكان أقسى طموح الأسود أن يقلده • وبعد مضى سنوات على انتشـار الدعوة ، بدأت الارساليات الأجنبية ترسم الـكهنة السود وتحمل بعضهم مسئوليات محدودة •

ولا شك فى أن طبيعـة الأفريقى العفوية ، وابتهاجـه بالألوان والطقوس سهلت تقبله للأفـكار الانسانية التى أتى بهـا المبشرون • كمـا أن عقـــدة النقص تجـاه الأبيض جعلت الســود يشـعرون بارتقـاء اذا هم ارتبطوا بروما • أو بأى مركز قيادى كنسى فى أوربا، وأصـبحوا يعتبرون أنفســهم معنيين بالحبر الأعظم هـذا الانســان الأسطورى الأبيض البشرة والملبس ، والذى يقبل أقـدام الأطفـال ، البيض والملونين ، يوم خميس الغسل فى كل سنة •

والـكنيسة الـكاثوليكية استفادت بالضرورة من هـذا الواقع ، لتسهيل انتشار الدعوة الى أن وصل عـدد الـكاثوليك فى افريقيـا

السوداء الى ٥٦ مليون ونصف مليون نسمة ، أى مايعادل عدد الأفارقة السود ، حسب احصاءات الفاتيكان لتاريخ ٣١ كانون الأول (ديسمبر) ١٩٧٩ .

بعض أوجه اعتناق الكاثوليكية أخذ شكل الولاء القبلى مثل وضع قبائل « ايبو » فى نيجيريا التى قامت بعملية انفصال بيافرا فى الستينات والتى ركز الحبر الأعظم على زيارتهاواعطائها جزءا أساسيا من وقتهأثناء اقامته فىنيجيريا . ويوم انفصلت بيافرا : وقف الفاتيكان وخلفه الأوساط الكاثوليكية مع الانفصاليين ، وربما كانت هذه الحادثة سببا فى امتناع الزعماء المسلمين عن الاجتماع به .

لكن أبرز نشاطات الارساليات لنشر الدعوة فى افريقيا تميز بالاستفادة من الحروب ... القبلية أو الدينية أو حتى التحررية ، لجمع الأطفال المشردين ووضعهم فى دور للأيتام وتنشئتهم على الكاثوليكية وتحويل بعضهم رجال دين . وبهذه الطريقة خدمت الكنيسة الغربية نفسها كما خدمت الأيتام ، وهذا الأسلوب فى « نشر الايمان » أسهم فى ارتفاع عدد « المقبلين على الدعوة » الأمر الذى جعل الكاردينال « رايت » المسئول عن شئون الكهنوت يقول انه « قرابة العام ٢٠٠٠ تكون الكنيسة الكاثوليكية قد حققت على الأرض الأفريقية أعظم انجازاتها » .. ويتابع الكاردينال قائلا : « لقد أصبحت مقتنعا أن افريقيا ستتمكن خلال القرن الواحد والعشرين من ايفاء ديونها الانجيلية للغرب وذلك عندما تصبح قادرة على ارسال ارساليات الى أوربا وأمريكا اللتين سبق ونقلتا اليها الانجيل ، وهذا يعنى أن رأس الكنيسة الكاثوليكية يطمح فى جعل افريقيا قادرة على تصدير رجال الدين » .

طريقة دخول الكاثوليكية اذن ، وانتشارها ، وخلق رجال دين بين كاثوليك سود تم وفقا لارادة الارساليات بحيث أن الحديث عن « الكنيسة الأفريقية » لايعدو كونه تعبيرا مجازيا لأن هذه الكنيسة

نسخة من الكنيسة الغربية ، فذهنية رجال الدين هناك ذهنية محافظة مثل ذهنية معظم رجال الدين الأوروبيين • لا بل أكثر • وهذا هو دور « الفرنجة » الذى تقوم به « الكنيسة الأفريقية » لذلك خاطب البابا بولس السادس رجال الدين الأفارقة بقوله : « أيها الأفارقة ها قد أصبحتم مرسلين لأنفسكم » • وهذا يعنى أن الرجال السود فى صفوف الكهنوت أصبحوا قادرين على نشر الدعوة وتنشئة المؤمنين وفقا لسلم القيم الغربية التى تدعو الفقراء الى الاعتزاز بفقرهم للحصول على ملكوت السماوات وعدم التوقف على « الميدان الضيق » ، ميدان الصراع الطبقى مع الأغنياء •

اعتبرت هذه المفاهيم من قبل بعض رجال الدين السود نوعا من « التخلف اللاهوتى نظرا لأنها تحول دون جعل التعاليم المسيحية محركا أساسيا من محركات الحياة الأفريقية ، من هنا مطالبة هؤلاء بكنيسة افريقية فعلية تحمل آلام الانسان المقهور طبقيا وسياسيا وغذائيا وصحيا •• فى القارة السوداء • ومن أبرز وجوه هذا التيار المطران « سانون » أسقف غولتا العليا والعلامة الأب جان مارك ايلا، الكاميرونى المنحدر من الوسط الفلاحى •

ولقد طرح هذا التيار منذ ١٩٧٧ فكرة عقد مجمع للكنيسة السوداء بغية وضع أسس للعمل الكنسى ولتحديد دور الكنيسة انطلاقا من « الحاجيات الحقيقية للمجتمعات الأفريقية التى تتطلب الاجابة المباشرة على التساؤلات الأساسية الآتية : هل الكنيسة الأفريقية كنيسة الفقراء أم هى كنيسة الأغنياء » ؟ و « ماهو الموقف الواجب على الكنيسة أن تتخذه فى مواجهة الأنظمة القمعية فى افريقيا » ؟ •• و « هل يكفى الطرح الرعوى الطوباوى لنصرة الانسان الأفريقى الرازح تحت أثقال التخلف والتسلط والمجاعة والاستغلال » ؟ و « هل الرد على هذه التحديات ينحصر فى التبشير وزرع المفاهيم الغربية للايمان » ؟؟؟•

لـكن الفاتيكان لم يبت بعد •• فى السماح بعقـد هـذا المجمع مخافة طرح مبدأ « التعـددية » فى الـكنيسة ، وهذه الفكرة قبل أن تطرح كانت موضع بحث مطول فى أوساط بعض رجال الدين منذ سنين عـدة • الى حد أن الـكاردينال زونفرانا وهـو أيضـا من فولتـا العليـا اتخذ موقفا شـديدا من السيطرة الخارجية عندما قال سـنة ١٩٦٩ : « يجب أن نسمع رأينـا بكل صراحة • لايجوز لنـا أن نبقى تابعين للخارج • ان على افريقيا أن تمسك زمام أمرها بيدها وأن تحدد أولوياتها الأسقفية •• فعبارة (الخارج) تعنى بالضرورة •• الفاتيكان• وهـذا القول يعكس المرارة التى يعيشها رجال الدين الأفارقة والذين تعلموا على أيدى الارساليات ، وسرعان ما اكتشفوا أن ماتعلموه يبعدهم عن مواطن اهتمام مجتمعاتهم وأن الـكاثوليكية فى أفريقيا ظاهرة أفقية « تترفع عن الدخول فى الثقافة الأفريقية » •

لذلك دعا الأب جان مارك ايلا الى وجوب ممارسة تعاليم المسيح وليس الاكتفاء بالتحدث عنها « وممارسة نقيضها » فقال : « ان مهمات الانجيل فى القارة السوداء تقضى بالتصدى لقوى المال التى قررت أن تجعل من هـذا المحيط البشرى الأفريقى احتياطيا من « العبيد » واليد العاملة الرخيصة » • فبالنسبة للـكنيسة المسألة يجب أن تكون واضحة وصريحة : الانجيل يجب أن يكون دليل التحرر للمضطهدين •

ان دخول اللاهوت فى الحيـاة الأفريقية لم يحصل بعـد مادام يتعـاطى مع الثقـافة على أنهـا مجرد « رقصات وأقنعة » •• فهذا « الجليد اللاهوتى » المحافظ الجامد ، سمح للأنظمة القمعية بأن تتعاطى معه براحة كاملة وأن تستفيد من الـكنيسة « للمحافظـة على الوضع المتردى للشعوب » •• الأمر الذى « لا يشرف الـكنيسة » طالمـا أن الطغـاة مطمئنون لها • فدور الـكنيسة الغربيـة فى افريقيا ينحصر على استقطاب الأتبـاع وخلق « مايسمى بالمؤسسات الخيرية » ، لذا تلاقى الأبرشيات تشجيعا من الحكومات على اختـلاف سياساتها نظرا

لـكونها « آلة تخدير توجه الشعب نحو الماورائيات وتدعوه الى الترفع عن رخيص الدنيـــا ، وتهتم بالرقصـــات التى تتحـــول الى نوع من الانفعال البدنى الذى ينفس عن المأزق النفسى للانسان الأفريقى »•• ولقد طرح الأب ايلا مثالا على « الـكنيسة الملتزمة » ، كنيسة أمريكا اللاتينية المتمردة على الـكرسى الرسولى واعتبر ، خلال دراسة أعدها للنـــدوة الـكهونية التى عقـــدت فى باريس بعنـــوان « اللاهوت المسيحى وصـــدمة الثقـــافات » ، أن قـــدر الـكنيسة الأفريقيـــة أن تقتدى بأختها الأمريكية اللاتينية لـكى تحقق ذاتها •

ومن البديهى أن يلاحظ الـكهنة المتمردون فى أفريقيـــا تناقضا فى مواقف البـــابا يوحنـــا بولس الثانى الذى لايخفى قطعيـــا التزامه بقضـــايا العمال البولونيين ويكرر وقوفه الصريح الى جانبهم ، فيمـــا يدعو العمال الأفارقة « الى عدم اللجوء الى الاضرابات ، لأن الاضرابات وسيلة غير عادية لايجب اعتمادها الا للدفاع عن حقوق الانسان » •• وهنـــا يتساءل الأب ايلا : هل ان حقوق الانسان مصانة فى أفريقيـــا لـكى يدعو الحبر الأعظم العمال الى عدم الاضراب ؟•

ولماذا لايدعو الحبر الأعظم كهنة أفريقيـــا الى الالتزام بقضايا شعوبهم ، كما يدعو لذلك كهنة بولونيا ؟•

وهل تصان حقوق الانسان فى ظل ديكتاتوريات أمريكا اللاتينيـــة لـكى يقول البـــابا للـكهنة ، خلال زيارته لهـــم : « أنتم رجال دين ولستم قادة اجتماعيين أو سياسيين••فلا تنساقوا بفكرة خدمة الانجيل من خلال مزج أنفسكم فى الشئون الدنيوية الظرفية » •

والبـــابا صريح فى مواقفـــه أنه يطلب من كهنة بولونيا الاهتمام فى شئون الدنيا ، فيما يطلب من كهنـــة أمريكا اللاتينيـــة وأفريقيـــا الاهتمام فى شئون الآخرة •

هذا وجه من أوجه التناقض الظاهر فى مواقف البابا ، من هنا فقد كلامه صداقيته لرئيس شاطىء العاج خلال جولته الأفريقية الأولى فى مايو عام ١٩٨٠ ، عندما قال : « أنتم الأفارقة كونوا ذاتكم » •

لقد ظهر واضحا أن تيار « الراديكالية الانجيلية » بدأ يتقدم فى أوساط كهنة أفريقيا •

***

هذا هو ما آل اليه أمر العلمانية فى المواقع التى تدين بالمسيحية ذكرنا نماذج له ، ناطقة بنفسها ، فى عينات من البلاد المختلفة ، فى الولايات المتحدة الأمريكية ، وأمريكا اللاتينية ، وأوربا الغربية وأوربا الشرقية ، وأفريقيا •

يقول أستاذنا الدكتور محمد البهى عن العلمانية فى التطبيق فى أوربا بوجه عام :

ان البلاد الأوربية التى أخذت بفكرة العلمانية فى مرحلتها الأولى:

لم تزل ترعى المسيحية كدين ، بالاسهام — من ضرائب الدولة نفسها — فى مساعدة التعليم الدينى فى مدارس الجمعيات الدينية وهى لا تحول اطلاقا دون أن ينتشر التعليم الدينى فى المدارس الخاصة ، وان كانت لاتعد كثيرا بالمساعدات المادية خشية من احتكاك السلطات الدينية المتعددة مع الدولة ، ان بدا أنها تؤثر مثلا بقليل أو بكثير بعض الكنائس دون بعض ، على نحو ما عليه الوضع فى الولايات المتحدة الأمريكية ، فالدولة الاتحادية تعترف بثلاث سلطات دينية : سلطة الكنيسة الانجيلية ، وسلطة الكنيسة الكاثوليكية، وسلطة الحاخامية اليهودية •

ولم تزل تدخل نفسها ضـــد مايظن أنه يمس شئون الـــكنيسة من قريب أو بعيد : ففى سنة (١٩٥٨) كتبت أنا ثلاث مقـــالات فى مجلة الأزهر عن المستشرقين والمبشرين ، اعتبرت بعض دوائر الفاتيكان انها تنطوى على بعض الاحراج لشئون التبشـــير الـــكاثوليكى على وجـــه الخصوص ، فـــكان أول احتجاج وصل الى وزارة الخارجيـــة المصرية هو احتجاج سفارة الولايات المتحدة الأمريكية ، تلاه احتجاجات أخرى عديدة من السفارات الغربية التى تمثل فى بلادها أكثرية بروتستنتينية أو كاثوليكية على السواء •

وكذلك لم تزل الدولة العلمانية الغربيـــة ترعى المسيحية كدين ، والـــكنيسة كسلطة دينيـــة ، بالحرص على جباية الضرائب الخاصـــة بالـــكنيسة عن طريق أجهزتها الادارية ، وعلى حماية أملاكها ، وتمكينها من مباشرة رسالتها •

وهدف الدولة العلمانية فى فصلها عن السلطة الدينية هو ـــاذنـــ اتقاء الاصطدام معهـــا •• وليس محاولة تخريب قيمها الدينيـــة ولا محاولة الاعتراض على ماتراه السلطة الدينيـــة من واجبـــات وطقوس وشـــعائر •

وحتى رجال الدولة أنفسهم فى ممارســـتهم السياســـة العـــامة للمجتمع يخضعون فى ظروف معينة لملائمة أنفسهم مع تقاليد الكنيسة ، وعلى سبيل المثـــال : دوق أوف وندسور ، وأنتونى ايدن ، فى انجلترا ، كلاهما اضطر الى ترك الوظيفـــة العـــامة أو الى عدم السعى اليها ، لأن سلوك كل منهما فى حيـــاته الزوجية لايتفق مع ماتراه الـــكنيسة من تقاليد فى الزواج •

والجنرال (ديجول فى فرنسا) أقال وزير التربيـــة الاشـــتراكى فى وزارته الأولى — بعد أن عاد للحكم فى المرة الثانية — بسبب عدم موافقـــة الوزير على مساعدة المـــدارس الدينيـــة فى فرنســـا ، من

مدارس الجـزويت ، والفرير ، بمبلغ سـتين مليونا من الجنيهـات الاسترلينية فى ميزانية سنة (١٩٦٣) من غير حق التفتيش عليها من قبل وزارة التربيـة •

وتشريع البرلمـان الانجليزى الخاص بترحيل بعض القادمين من بلاد (الـكومنويلث) واعادتهم الى بلادهم ، وبوضع قيود خاصـة فى سبيل الاقامة فى انجلترا لمن يفـد من هـذه البـلاد ، لايتفق مع علمانية الدولة وفصلها عن الـكنيسة والدين ، اذ أخص من وضـعت القيود فى سبيلهم ، هم أصحاب الرعية الباكستانية ، والسبب — كما ذكرته بعض الصحف البريطانية — هو الفارق الملموس بين نظام الأسرة وسلوك أفرادها فى الاسلام ، وذلك النظـام الآخر الذى هو للأسرة المسيحية : ذكرت هذه الصحف على سبيل المثال من ذلك : الزواج بأكثر من واحدة ، وصيام رمضان ، والرغبة فى كثرة الأولاد •

ودولة الفاتيكان — فى الطرف الآخر كممثلة للسلطة الدينيـة — لم تزل تقوم من جانبها بدور كبير فى سياسة البـلاد التى فيها أغلبية كاثوليكية عن طريق الأحزاب السياسـية التى تسمى (بالديمقراطيـة المسيحية) وكذلك فى السياسة الدولية العالمية ، فالأحزاب الديمقراطية المسيحية هى أجهزة للعمل على رسم الخطة لتنفيـذ اتجـاه الفاتيكان فى الدرجة الأولى ، وعن طريقهـا حالت الـكنيسة حتى الآن دون أن تتطرف العلمانية الى النوع اليسارى الآخر الذى يقيم « البلشفية » دينا بدل المسيحية [٢٣] •

---

(٢٣) انظر كتاب « العلمانيـة والاسلام » بين الفكر والتطبيق نشرة مجمع البحوث ص ٤٤ وما بعدها .

رأى ت٠س اليوت فى علمانية أوربا :

يقرر ت٠س اليوت أن الثقافة الأوربيـــة أصبحت علمانية ، ولكنه يقرر فى نفس الوقت أن هذه العلمانية لم تقتلع المسيحية من جـــذورها ولـــكنها أخذت تتعـــايش معها (فقـــد تضاءلت الفروق الثقافية بين المؤمن والـــكافر ٠٠ وانطمست الحـــدود بين الايمـــــان والـــكفر ٠٠ وأصبحت المسيحية أكثر مرونة والالحاد أكثر سلبية) ٠

فـــكثير من النـــاس — فى انجلترا بخاصـــة — يعيشـــون على أعراف غير محددة مغلفة بضباب كثيف ، وأولئك الذين يعيشون وراءها فى الجهل وعـــدم المبـــالاة أكثر ممن يعيشون فى صحراء الالحـــاد الواضح ٠ والانجليزى الـــكافر ذو المنزلة الاجتماعية — مهما تكن هذه المنزلة متواضـــعة — يجرى على سنن المسيحية غالبـــا فى مناســـبات الولادة والموت والزواج وليس للحدى هـــذه البـــلاد حتى الآن وحدة ثقافيـــة فأنماط الحادهم تختلف طبقـــا لثقافة الطائفة الدينية ٠٠ التى تربوا فيها هم وآباؤهم وأجدادهم [٢٤] ٠

وليس ذلك راجعا فى رأيه الى مصالحة موضـــوعية بين المسيحية والعلمانية ولـــكنه راجع الى تملك الدين لناصية الثقافة فى أى شعب من الشعوب ٠

فهو يقول :

(ان تكوين دين هو تكوين ثقافـــة أيضا) [٢٥] ٠

ويقـــول :

(ان القوة الرئيسية فى خلق ثقافة مشتركة بين شعوب لـــكل منها ثقافته المتميزة هى الدين) [٢٦] ٠

---

(٢٤) ملاحظات لـــ ت.س. اليوت ص ٨٤ ٠
(٢٥) ملاحظات نحو تعريف الثقافـــة ص ٨٥ ٠
(٢٦) المصـــدر السابق ص ١٤٥ ٠

ويقول : (ان الثقافة والدين مظهران لشيء واحد) [٣١] .

ويقول : (من الخطأ الشائع القول بأن « الثقافة يمكن حفظها وبسطها وتنميتها بغير دين » ..) [٢٨] .

ولكن هذه الناحية التي يبدو فيها شيء من التطابق بين الثقافة والدين لايصح أن تعمم لتصبح تطابقا كاملا الا في ثقافة منحطة ودين منحط وفقا لوجهة نظر المؤلف . ذلك لأنه يرى الجانب الآخر للتميز حيث يقول : (ان ثقافة تحقق دينا يتحقق في ثقافات أخرى هي أرقى من ثقافة تختص دون غيرها بدين من الأديان . وان دينا عالميا — ولو بالقوة — هو أسمى من دين يدعى أى جنس أو أمة الاختصاص به دون غيرهما ..) [٢٩] .

ولو طبقنا هذا التحليل على الثقافة العربية والاسلام لصح القول بأن الاسلام كان عالميا وكانت الثقافة العربية عربية ، وهذا يشهد بالرقي للاثنين معا .

أما عن أوربا المسيحية بالذات فانه يقول :

(ان سنن المسيحية المشترك هو الذى جعل أوربا ماهى) [٣٠]
ويقول : (حين ندافع عن ديننا فلابد لنا فى معظم الأمر من أن نكون مدافعين عن ثقافتنا فى الوقت نفسه والعكس بالعكس) [٣١] .

ويقول :

(فى المسيحية نمت فنوننا ، وفى المسيحية تأصلت — الى عهد قريب — قوانين أوربا . وليس لتفكيرنا كله معنى أو دلالة خارج الاطار

---

(٢٨) ملاحظات نحو تعريف الثقافة ص ٣٤ .
(٢٩) ملاحظات نحو تعريف الثقافة ص ٣٦ .
(٣٠) المصدر السابق ص ١٤٥ .
(٣١) المصدر السابق ص ٩٠ .

المسيحى) • (وقـــد لايؤمن فرد أوربى بأن الايمـــان المسيحى حق ، ونـــكن مايقوله ويصنعه ويأتيـــه كله من تراثه فى الثقافة المسيحيـــة ويعتمد فى معنـــاه على تلك الثقافة) •

(ما كان يمكن أن تخرج فولتير أو نيتشه الا ثقافة مسيحية وما أظن أن ثقافة أوربا يمكن أن تبقى حية اذا اختفى الايمـــان المسيحى اختفـــاء تاما • ولا يرجع اقتنـــاعى بذلك الى كونى مسيحيا فحسب ، بل لأنى مقتنع أيضا بوصفى دارسا لعلم الأحيـــاء الاجتماعى ••• اذا ذهبت المسيحية فستذهب كل ثقافتنا) (٣٢) •

ويقـــول :

(نحن مدينون لتراثنـــا المسيحى بأشياء كثيرة الى جانب الايمان الدينى — فمن خلال ذلك التراث تتبع تطور فنوننـــا ، ومن خلاله نلقى مفهومنا للقـــانون الرومانى الذى فعل مافعل فى تشكيل العالم الغربى• ومن خلاله نلقى مفاهيمنا عن الأخلاق الخاصـــة والعامة • ومن خلاله نلقى نماذجنا الأدبية المشتركة فى آداب اليونان والرومان) (٣٣) •

من هذا كله تتبين الخديعـــة الـــكبرى التى يروج لها ســـماسرة العلمانيـــة فى بلاد الاســـلام ، بدعوى أنهـــا سر التقـــدم المعـــاصر فى أوربا •

كما تتبين دلالة الصرخة المعبرة التى انفلق عنها رأس العلمـــانى الباكستانى وهو يرى مكانة البـــابا فى الولايات المتحـــدة قائلا : (هل نحن ضحية لعبـــة شـــديدة الخبث خرجنـــا منها بلا صـــواريخ ولا دين ، بل بالفقر والـــكفر ، بينما احتفظ الآخرون بدينهم ووضـــعوا أعلامهم فوق القمر) (٣٤) •

---

(٣٢) المصـــدر السابق ص ١٤٥ •
(٣٣) ملاحظات نحو تعريف الثقافة ص ١٤٦ •
(٣٤) انظر ص ٥١ من كتابنا هذا •

وتتبين المغــالطة الخبيثــة فى القول بأن التقدم الأوربى لم يكن الا لاستبعاد الدين عن الحيــاة ، ويظهر لنــا أن الأمر هنــاك لايعدو أن يكون نوعا من الفصل بين « السلطات » : بين سلطــة التشريع ، والتنفيذ ، والقضــاء ••• و « الدين » ، مع اعطاء كل سلطة حقهــا الــكامل فى التأثير على « الحياة الدنيا » !!

أما الضلالة الثانية التى يروجون بها للعلمانية :

فهى حول واقع النهضة فى البلاد الاسلامية • وهم يتحدثون فى هذا عن نهضة تركيا • وعن مصر فى عهد محمد على ويزعمون أن ذلك لم يكن الا للأخذ بالعلمانية •

(أ) أما عن تركيا فيقول أستاذنا الدكتور محمد البهى :

يلاحظ أن تركيا هى الدولة الاســلامية فى الشرق التى أعلنت العلمانية الغربيــة كأساس لسياستها الجــديدة ، منــذ تولى آتاتورك السلطة فيهــا بعد الحرب العــالمية الأولى والسياسيون فى الغرب على الخصوص ومعهم المستشرقون فى بحوثهم وكتاباتهم — يشيدون بتقدم صــناعى علمى فيهــا ، ويعودون بأســبابه الى دخول تركيا مجــال الغرب بدون الاســلام ، ففصلها بين الاســلام ــكدين — والدولة ، هو العــامل فى نظرهم الذى قربها من الدول المتطورة •

ان تركيا فى قبولها للعلمانيــة كانت مجبرة فى تسوية الصــلح الذى دار وراء الــكواليس مع الحلفــاء ، بعد انتصارهم فى الحرب العــالمية الأولى ، وقصــد الحلفاء من اعلان تركيا العلمانية ، وفصــل الاسلام عن الدولة وهى مركز الخلافة الاسلامية — أمرين :

الأمر الأول :

الغاء الخلافة الاسلامية ، كأداة تجميع للمسلمين : عرب ، وعجم على السواء فى آســيا وافريقيــا ، اذ سيترتب على الغــاء الخــلافة امكان تمزيق المسلمين الى عرب ينطقون بالعربيــة ، وغير عرب ينطقون

بلغـــاتهم الوطنيـــة ، وعنـــدئذ يمكن التبشير بالقومية العربيـــة كذلك لتوسيع الهوة بين المسلمين ، ثم لـــكى لاتكون للقومية العربية فاعلية بعد عزل العرب عن غير العرب من المسلمين — يتضح ذلك بقيام « جامعة دول عربيـــة » لتوكيد ســـيادة كل دولة عربية فى مواجهة دولة عربية أخرى — وبذلك يضعف الترابط على أساس اللغة العربية والتى اعتبرت وحدها — دون الاسلام — حجر الزاوية فى مفهوم القومية العربيـــة ، وشأن العرب الآن بعـــد قيام الجامعة العربية يساوى شأن غير العرب المسلمين فى تفرقهم على أساس من لغاتهم الوطنية العديدة .

وابعاد المسلمين غير العرب بالتبشير بالقومية العربيـــة بعد الغاء الخـــلافة الاســـلامية ، ثم اضـــعاف فاعلية القوميـــة العربيـــة بين العرب من جـــديد بقيـــام جامعة دول عربيـــة يؤكد استقلال كل دولة ويلاحظ أن هـــذا وذاك ، كان مقـــدمة ضرورية لعزل فلسطين عن قوة المسلمين مجتمعين ، وعن قوة العرب — وحدهم — مجتمعين كذلك .. كان تمهيدا لقيـــام دولة اسرائيل .

الأمر الثـــانى :

الذى قصده الحلفاء المنتصرون فى الحرب العالمية الأولى — وهم أصحاب العلمانية الغربيـــة — من اعلان تركيا للعلمانية .. عزلها عن التراث الاســـلامى ، وتكوين أجيـــالها القـــادمة فى بعد عن الصـــلة بالاسلام وعن العرب معا : وبذلك تصبح تركيا المسلمة قريبة الى الغرب فى ميوله واتجاهاته ، على نحو ما أبعد الاســـلام من أسبانيا ، ومن البلقـــان ، وجزر البحر الأبيض المتوســـط ، ولـــكى يتم التحول عن الاســـلام كانت كتابة اللغة التركية بحروف لاتننيـــة بدلا من الحروف العربيـــة .

والتقدم الصـــناعى والعلمى (النسبى) فى تركيا العلمانيـــة لم يكن بسبب الفصـــل بين الدين والدولة أى لم يكن بسبب ابعاد الاسلام

عن شئون الدولة ، وما تجر اليه مبادئه — كما يقال ويدعى — من التخلف — [٣٥] وانما كان مكافأة من الغرب والشرق على السواء لتركيا على ابعاد للاسلام •• وانما كان أولا وأخيرا بسبب المساعدات الأجنبية التى قدمت لتركيا من جانب الاتحاد السوفيتى فى الشرق والولايات المتحدة الأمريكية على الخصوص من الغرب ، وهى مساعدات اقتصادية وفنية وعلمية ، لتتحول الى نموذج بين البلاد الاسلامية •

فالاتحاد السوفيتى له مصلحة داخلية وخارجية فى كون تركيا بلدا علمانيا : فمصلحته الداخلية فى اخضاع البلاد الاسلامية الآسيوية وفى بلاد القوقاز على الخصوص — للايدلوجية الجديدة وهى ايدلوجية البلشفية أو ايدلوجية الغاء الدين والايمان بالدولة وحدها فاذا أصبحت تركيا بلدا علمانيا — ومعظم المسلمين فى بلاد القوقاز هم من الأتراك كان من اليسير على الأجيال الناشئة لهذه البلاد أن تخضع للدين الجديد لا بحكم الجوار ولا صلة القرابة فقط، وانما : لأن تركيا كانت مركز الخلافة وعلى رأس الامبراطورية الاسلامية قد أعلنت الآن عزل الاسلام عن شئون الدولة ، وأخذت لنفسها طريقا جديدا فى الحياة ، هو طريق ممهد على الأقل للعلمانية الماركسية ، واذن لابد أن يكون الاسلام عامل تخلف ، هكذا المنطق •

وللاتحاد السوفيتى مصلحة خارجية كذلك فى كون تركيا بلدا علمانيا ، هى امكان التأثير بهذا النموذج على بلاد أخرى اسلامية مجاورة من آسيا : كايران وأفغانستان ، فتضعف من علاقتها بالاسلام، وبذلك تصبح مجالا حيويا للاقتصاد والأمن السوفيتى ، والاحتلال الروسى القيصرى لايران فى فترة من الزمن ، وحمله على انشاء « البهائيين » أو « البابيين » فيها تخريبا للقيم الاسلامية •• يعلن عن مدى التطلع الروسى الى هذه البلاد الاسلامية منذ وقت طويل قبل الثورة البلشفية فى ثورة سنة ١٩١٧ م •

---

(٣٥) سنتحدث فى الآتى عن رعاية الاسلام للتقدم الحضارى •

والغرب له مصـــالح اقتصـــادية عديدة واستثمارات مالية كبيرة فى البـــلاد الاســـلامية فى آسيا وأفريقيا ، ومن شأن قبول هـــذه البلاد العلمانية أن يسهل للغرب طريق الحركة فى ســـبيل الاســـتغلال الاقتصـــادى ، سواء أكان من مصادر الثروة أم من دائرة الطـــاقة البشرية ، وكتاب : « الاســـلام قوة الغـــد العالميـــة » لبول شمنتر (سنة ١٩٣٦) [٣٦] يوضح فى غير لبس امكانيات البـــلاد الاسلامية من الثروة الأرضـــية والمعدنية ، وتكاملها وطاقة المسلمين فى الخصوبة الجنسية ، ويسر الارتبـــاط بينهم على الايمـــان بالله ، وينـــذر أوربا بالفنـــاء ، ان هى مكنت المسلمين من التجمع واستخدام هـــذه القوى الثلاث ، ونداء هـــذا الـــكتاب الموجـــه الى الأوروبيين بالانذار يعبر عن عمق الرغبة الدينية فى الحيلولة دون تجميع المسلمين على الاسلام.

وان دفعت البـــلاد الاســـلامية اليوم لسبب أو لآخر ، الى قيود الاشتراكية — ليس بمفهومها فى الغرب ، ولـــكن بمفهوم البلشفية — فان هـــذه البـــلاد ستكون أكثر تمهيدا للاستغلال الاقتصادى ، وأكثر طواعية للتبعية الأجنبية .

ومع كون تركيا بلدا علمانيا يفصل بين الاســـلام والدولة فانهـــا بشأن حرية الأفراد فيهـــا فى ممارسة العبـــادة الاسلامية .. لاتقل عن أى دولة اســـلامية أخرى لا تعلن رســـميا : الفصـــل بين الدين والدولة لأن ما أعلنته تركيا فى الأمس القريب من الفصـــل بين الدين والدولة ، مارسه الاستعمار الغربى فى الأمس البعيـــد عمليـــا ، وفى تدرج ، وفى احكام ، وفى غيبـــة من الوعى الاسلامى ، فى البـــلاد العربيـــة التى استعمرها ولم يفلت أى بلد اسلامى أو أكثرية اسلامية فى آسيا وأفريقيـــا من الاستعمار الغربى ، ومن ممارسته العلمانية ، واضعاف الاســـلام فيها ، فالاسلام فى غالبية هذه البلاد أبعد :

---

(٣٦) ترجمة الدكتور محمد شامة الأستاذ بكلية أصول الدين بالأزهر.

١ — فى سياسة الحكم : فنظـام الحكم اليوم فى سـيره : أما علمانى غربى أى رأسمالى ، وأما علمانى شرقى أى بلشفى ماركسى .

٢ — وفى سياسة التوجيـه والتعليم : يشار الى الاسـلام فى بعض مناهج المرحلتين الأولى والثانية ، ويغفل تماما فى التعليم العالى والجامعى ، حتى فى البـلاد التى تعلن رسميا أنها تمارس الاسلام فى حيـاة المواطنين فيها .

٣ — وفى سياسة التشريع والقضـاء : مالم يلغـه الاستعمار من مبادىء الاسلام أو مظاهرة ، الغاه الحكم الوطنى بعد الاستقلال .

٤ — وفى شئون الدعوة الاسلامية ألغيت الأوقاف الاسلامية .

٥ — وفى سياسة المـال والاقتصـاد لايعنى فيهـا : ان كانت ملائمة أو غير ملائمة للمبادىء الاسـلامية والاتجاه الاسلامى فى حياة المسلم .

٦ — ولم يبق الا الأحوال الشخصية (٣٧) .

(ب) وأما عن دعوى علمانية مصر فى نهضتها الحديثـة فيتصدى لها بالتفنيد العلمى الدقيق الدكتور محمد عمـارة فيقول فى دراسـة قيمة نشر منها طرفا بجريدة الأهرام (٣٨) :

لخطورة هذه الدعوى — التى تتعدى حـدود تزييف التاريخ الى نطاق تضليل المسيرة المستقبلية — وهذا هو هدفها الأساسى والأخطر — نجد لزاما علينا عرض مقولاتها — بأمانة موضـوعية — على حقـائق تاريخنا ووقائع نهضتنا الحديثـة ، ابتغاء الوصول الى الحقيقـة فى هذا الموضوع الخطير .

---

(٣٧) انظر كتابه « العلمانية والاسـلام » بين الفكر والتطبيق نشرة مجمع البحوث ص ٤٧ وما بعدها .

(٣٨) الأهرام ١٩٨٥/٤/٨ والأعداد التالية أسبوعيا .

يقــول الدكتــور لويس عوض — بصــيغة الواثق ممــا يقول : « انى أعلم أن معركة الديمقراطيــة المصرية كانت دائما معركة بين الحق الطبيعى ومن يدعون بالحق الالهى • ومن يدعون بالحق الالهى يريدون حرمان الشعب من ممارسة حقــه الطبيعى كمصدر للسلطات، ويسبغــون هــذه الصــفة على الملوك والفقهاء والعباقرة والبابوات والأبطال » •

فهل حقــا ، كانت تلك هى المعركة ؟•• وهل حقا كان هؤلاء هم فرقاؤها •• دعاة الحكم بالحق الطبيعى •• ودعاة الحكم بالحق الالهى؟؟ ومتى ؟ وفى أى بلد من بلادنا حدث هذا الذى « علمــه » الدكتور لويس ؟•

ان الشهير والمتعارف عليه والذى كاد أن يكون موضــع اجمــاع الذين أرخوا لهــذه الأمة والذين درســوا ويدرسون هــذا التاريخ ، يؤكد ، فى هذه القضية — على عدد من الحقائق التى تقول :

١ — ان أمتنا لم تنظر الى « الدولة » العثمانية باعتبارها « خلافة اســلامية » تمتلك الشروط الاســلامية للخلافة والامامة ، وانما نظرت اليهــا باعتبــارها « سلطنة » قائمة على « القهر والتغلب » •• وان الثورات والتمردات والانتفاضات ضد هذه السلطة ، انما كانت متوالية ومشروعة وقادتها كانوا هم علماء الشريعة وأئمة الاسلام ••؟ كما كانت فترات التهاون مع هذه « السلطنة » فى اطــار التعــامل مع « حكم الضرورة » ومع « الممكن » الــذى هو « أخف الضررين » فلقــد ظل الاســلام : « الــدين » و « الفــكر » على ولائه وتمسكه بشروط الخــلافة والامامة يحجب « المشروعية الاســلامية » عن سلاطين آل عثمان بدأ من « السلطان » سليم « ٨٧٥ — ٩٢٦ هـ ١٤٨٠ — ١٥٢٠ م » حتى « السلطان » عبد الحميد « ١٢٥٨ — ١٣٣٦ هـ ١٨٤٢ — ١٩١٨م » فأين هو « الواقع الثيوقراطى » الذى مر به الاسلام ، كما مرت به مسيحية الغرب الــكاثوليكية ؟•• ان كان المقصود تجاوزات ســلاطين

آل عثمان • الذين رأوا أنفسهم ظل الله فى الأرض وسيوفه المسلطة على رقاب عباده •• فلقد ظل الاسلام وعلماؤه منكرين لهذا التجاوز والانحراف يحجبون عنه « المشروعية الاسلامية » ويحولون بينه وبين أن يصبح « واقعا اسلاميا » و « فكرا دينيا » •• فأين هذا من دور المؤسسة الكنسية فى الغرب الكاثوليكى حيال قصة الكهانة والثيوقراطية والحكم بالحق الالهى ؟ وأين هذا التماثل بين واقع الغرب الكاثوليكى وواقعنا فى عصورنا المظلمة التى تسلط فيها سلاطين آل عثمان ؟•

٢ — وعلى حين كانت المؤسسة الكنسية فى الغرب الكاثوليكى هى المبتدعة لنظرية « الحكم بالحق الالهى » والمحاربة بضراوة ضد أن يكون الشعب مصدر السلطات •• كان علماء الاسلام فى مجملهم، أئمة الدعوة الى ضرورة أن تكون الأمة هى مصدر السلطات •• ولم يكن هذا الموقف لهؤلاء العلماء طارئا حديثا • جاء كثمرة «للعثمانية» وانما كان موقفا أصيلا ، أعلنوه فى ظل السلطنة العثمانية ، وضمنوه الوثائق والقرارات التى نصت على حق الأمة فى تولية الحكام • وفى عزلهم • وفى الثورة عليهم ، وفى قتالهم حتى ولو كانوا « سلاطين » بل و « خلفاء » ؟•

فـ « مجلس الشرع » الذى كانت بيده قيادة الأمة فى مصر أوائل القرن التاسع عشر الميلادى هو الذى اجتمع بدار الحكمة العليا « بيت القاضى » فى يوم الاثنين ١٣ صفر سنة ١٢٢٠ هـ ١٣ مايو سنة ١٨٠٥ م وقرر عزل الوالى العثمانى أحمد خورشيد باشا واختيار محمد على باشا واليا ، بدلا منه على مصر ، وذهب علماء مجلس الشرع الى محمد على قائلين له : « تكون واليا علينا ، بشروطنا ، ولما رفض خورشيد باشا قرار عزله قائلا : انى مولى من طرف السلطان ، فلا أعزل بأمر الفلاحين ؟ •• قاد « مجلس الشرع » المقاومة والحصار والقتال ضد هذا الوالى وأعوانه •• وعندما سئل قائد « مجلس

الشرع » وأبرز علماء الاسلام يومئذ السيد عمر مكرم (١١٦٨ — ١٢٣٧ هـ ١٧٥٥ — ١٨٢٢ م) •• عندما سئل من قبل مندوب الوالى التركى : « كيف تعزلون من ولاه السلطان عليكم •• وقد قال الله تعالى: أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم » وكان جوابه : الذى حدد فيه انحياز الاسلام الى حق الأمة — بل وواجبها — فى أن تكون مصدر السلطة والسلطان وانحياز علماء الشريعة الى هذه « الديمقراطية » الاسلامية •• قال « أولو الأمر : العلماء وحماة الشريعة ، والسلطان العادل ، وهذا الوالى « خورشيد باشا » رجل ظالم • وجرت العادة من قديم الزمان أن أهل البلد يعزلون الولاة • وهذا شىء من زمان • حتى الخليفة والسلطان اذا ساروا فيها بالجور ، فانهم — « أهل البلد » — يعزلونه ويخلعونه » فاذا كان هذا هو موقف الاسلام وعلمائه •• فأين هى « الكهانة والثيوقراطية » التى مر بها الاسلام ، كما مرت بها المسيحية ، والتى ناصبت حق الأمة فى الديمقراطية وفى أن تكون مصدر السلطات العداء ؟ •• ألم يكن علماء الاسلام ، هنا ، هم الدعاة الى الديمقراطية الاسلامية والى أن تكون الأمة هى مصدر السلطة والسلطان ؟ ••

٣ — وهذا الخلاف الذى حدث بين السيد عمر مكرم وبين الوالى محمد على باشا •• هل يحق لمنصف يفقه حقائق تطورنا التاريخى أن يقيم (وجه شبه بينه وبين الصراع الذى شهده الغرب بين « السلطة الدينية » و « السلطة الزمنية » •؟

ان عمر مكرم كان الداعية الصلب لمبدأ حق الأمة — بل وواجبها — فى أن تكون مصدر السلطات •• كما كان القائد المبرز لثورة الشعب فى سبيل حقوقه •• ومنها الديمقراطية ومن ثم فلم يكن صراعه مع محمد على صراعا بين الدين وبين الدولة ، ولا صراعا بين

دعاة الحكم بالحكم الالهى وبين دعاة الحكم بالحق الطبيعى •• وانما كان فى حقيقته وجوهره صراعا بين « الثورة » وبين « الدولة » بكل ماتعنيه هذه المصطلحات من دلالات ••) •

(ج) وأما عن دعوى علمانيـــة مصر فى عصر محمـــد على فيقول الدكتور محمد عمارة : والآن نأتى الى مناقشة دعوى الدكتور لويس عوض « علمانيـــة مصر الحديثـــة » وارتبـــاط يقظتهـــا ومشروعات نهضتها الحديثـــة والمعـــاصرة بتبنى العلمانية وسيادتها •• ان الرجل يريد مرة أخرى أن يقفز فوق حقائق الفكر التى عرفتها الأمة تاريخيا• وفى مطلع عمرها الحـــديث •• وفوق حقـــائق الواقع الذى صـــنعته هذه الأمة منذ أن أسلمت وتعربت وحتى مطلع عصرها الحديث ليقول بلسان الحال والمقـــال — ليكن ، لـــكن مصر قـــد تحولت بواســـطة الدولة الحديثـــة ومن خلال مشروعها النهضوى منذ حكم محمـــد على باشا وحتى جمـــال عبد الناصر الى دولة « علمانية » وهو ادعاء لابـــد من مناقشته وحوار أنصـــاره من خلال محـــاورة الدكتور لويس أبرز المروجين لهذا الادعاء • ففيما يتعلق بحقبـــة محمد على باشا ومشروعه النهضوى نجد الدكتور لويس عوض يمضى مصورا مصر الحديثة وكأنها « هبـــة بونابرت » فيتحدث عن محمد على ومشروعه القومى النهضوى باعتباره الامتداد لمشروع نابليون •• فعنده أن محمد على قد :

١ — أحل نظرية « الحق الطبيعى » محل نظرية « الحق الالهى » •

٢ — أحل « القوانين الطبيعية » التى وضعها الانسان محل « القوانين الالهيـــة » •

٣ — جعل التعليم بالـــكامل علمانيا •

٤ — ان الدراسات الانسانية التى أبدعها الجبرتى قـــد رسخت أسس التفكير العلمانى •

٥ — ان رفاعة الطهطاوى قد صنع ماصنعه الجبرتى من ترسيخ لأسس التفكير العلمانى وزاد عليه مناهضته للرهبانية والكهنوت..

تلك هى « أدلة » الدكتور لويس على « علمانية » مشروع محمد على وتجربته .

ونحن قبل أن نناقش هذه « الأدلة » الخمسة على « علمانية » مشروع محمد على وتجربته ننبه على ثلاثة أخطاء وقع فيها الدكتور لويس :

أولها : ان تلاميذ البعثات العلمية التى أرسلها محمد على الى أوربا ليسوا مائتين وانما هم ٣٣٩ طالبا .

ثانيها : ان الكتب التى ترجمت فى عهد محمد على لم تبلغ آلافا وانما هى على وجه الدقة والتحديد ٢٧٧ كتابا .

ثالثها : ان البعثة العلمية الفرنسية التى صحبت حملة بونابرت والتى عملت بالقاهرة كفريق علمى لايجوز وصفها بـ (المجمع العلمى المصرى) فلم يكن بمصر يومئذ علماء تجوز لهم عضوية المجامع العلمية، و « علماء » مصر ممثلون فى الجبرتى قد رأوا فى التجارب الكيمائية البسيطة لعلماء هذه الحملة عندما زاروا مقرها شيئا من عمل الشيطان، فعلماء هذه الحملة لم يكونوا مصريين حتى يسيهم الدكتور لويس « المجمع العلمى المصرى » ووجودهم فى مصر كجزء من الحملة الاستعمارية لايعطيهم صفة « الوطنية والمواطنة » اللهم الا اذا كان الدكتور لويس يرانا والفرنسيين « أمة واحدة » وما أظن أن عشقه للتغريب قد بلغ أو يبلغ به هذه الحدود .

فمجمع نابليون لم يكن مصريا .. ومجمعنا العلمى المصرى هو شىء آخر وان حمل نفس الاسم الذى أطلقه نابليون على المجمع الفرنسى فى مصر ... فالعبرة بالبينة والجوهر والانتماء .. وليست بالاسماء .

والآن •• لننظر فى « أدلة الدكتور لويس » على « علمانيـــة » مشروع محمد على وتجربته •

هل حقا أحلت تجربة محمد على بمصر نظرية « الحق الطبيعى » محل نظرية « الحق الالهى » •

لقد سبق ورأينـــا كيف أن الفكر النظرى للاســـلام لم يعـــرف ولم يعترف بما سمى فى الحضارة الغربية الـــكاثوليكية « الحكم بالحق الالهى » وسبق ورأينـــا الواقع المصرى « أوائل القرن التاسع عشر وفى الفترة الزمنية التى تولى فيهـــا محمد على حكم مصر وقـــد خلا من أية ظلال لهـــذا « الحكم بالحق الالهى » فعلماء الاســـلام الذين تبلورت زعامتهم للأمـــة فى مجلس الشرع قـــد عزلوا الوالى التركى باسم الأمة « وبحق أهل البلد » وبذات الاسم ونفس الحق عهدوا الى محمد على بحكم البـــلاد •• فلم يكن هنـــاك « حق الهى » كى يخلو مكانه « حق طبيعى » •

وكذلك فان حظ الحديث عن حلول « القوانين الطبيعيـــة » محل « القوانين الالهية » ليس بأوفر فى الصدق من هذا الحـــديث الذى سبق عن حلول « الحق الطبيعى » محل « الحـــق الالهى » فى عصر محمد على باشا •

ان الاســـلام القـــانونى لم يعرف ذلك الوضع الذى ســـاد فى أوربا الـــكاثوليكية عنـــدما هيمنت « المؤسسة الـــكنسية المقـــدسة » على القضـــاء واحتكرت حق التشريع القانونى وأصبح تشريعا الهيـــا مقدسا •• ففى الاســـلام قلة هى آيات الأحكام فى القرآن الكريم •• وأقل منها آيات « الحدود » وهذه وتلك مع الأحاديث النبوية الصحيحة التى تمثل « السنة التشريعية » انمـــا تمثل فى الجوهر والأســـاس : فلسفة التشريع القـــانونى واطـــار الاجتهاد البشرى الذى أوكل اليه الاسلام ابداع القوانين وتطويرها وتغييرها وفقا لمصلحة الأمة المتطورة

دائما وأبدا ، بحكم اختلاف الزمان والمكان ، وفى اتساق مع فلسفة هذا الاطار الشرعى ومثله ومقاصده ، وما الأحكام القليلة التى وردت فى النصوض القطعية الدلالة والثبوت الا « نماذج » تطبيقية للتشريع الاسلامى فى « ثوابت » لاخلاف عليها ولا اختلاف حيالها ولا دخل فيها للتطور من مثل « الحدود » التى تستهدف الحفاظ على النفس والعقل والنسب والعرض والدين .. فتعبير « القوانين الالهية » لايجوز اطلاقه على « فقه المعاملات » و « اجتهادات الفقهاء » لأن هذا الفقه وهذه الاجتهادات هى « قانون وضعى — اسلامى » أما « الوضع الالهى » فهو متمثل فى « الشريعة » التى هى « النهج » و « المثل » و (المقاصد) وفلسفة القانون .. وليس فى الفقه الذى هو ، قانون الأمة وثمرة ابداع عبقريتها فى ميدان التشريع .. وان كلمات المشرع الفذ الدكتور عبد الرازق السنهورى (١٣١٣ — ١٣٩١ هـ ١٨٧٥ — ١٩٧١ م) فى هذه القضية شديدة الوضوح .. فهو يقول : « ان الكتاب والسنة هما المصادر العليا للفقه الاسلامى وقد قصدت بالمصادر العليا أن أقول : انها مصادر تنطوى على كثير من الأحيان على مبادىء عامة ترسم للفقه اتجاهاته . ولكنها ليست هى الفقه ذاته فالفقه الاسلامى هو من عمل الفقهاء صنعوه كما صنع فقهاء الرومان وقضاته القانون المدنى . هذا عن موقف الاسلام الرافض لهذه الثنائية التى عرفتها أوربا الكاثوليكية والتى سيطرت تجربتها على فكر الدكتور لويس عوض — ثنائية — « القوانين الطبيعية » و « القوانين الالهية » .

ثم .. هل احترم الدكتور لويس عوض حقائق تاريخ مصر القضائى فى عهد محمد على باشا عندما قال ان محمد على قد غير القوانين التى كانت سائدة فى المؤسسة القضائية وأحل « القوانين الطبيعية » التى وضعها الانسان محل « القوانين الالهية » هل

احترم حقائق هذا التاريخ ؟ وهل احترم عقول القراء الذين حدثهم عن هـذا التاريخ •

ثم يفند الدكتور محمد عمـارة مزاعم لويس عوض فى علمانيـة التعليم التى أخذ بها محمد على فيقول :

ان حقـائق تاريخ التعليم بمصر ، فى ذلك العهـد كما دونتهـا مصادره الأم تقول :

١ — ان الأزهر ظل المؤسسة التعليمية الأولى فى عهد محمد على وان لم يعد المؤسسة الوحيدة الأمر الذى ينفى مقولة « العلمنة الكاملة للتعليم » كما كان طلاب الأزهر الذين تكونت عقولهم تكوينا اسـلاميا هم مادة التعليم فى المـدارس الجديدة غير الأزهرية التى أنشئت فى ذلك العصر وكذلك كان خريجو الأزهر من العلماء ونجبـاء طلابه هم طلاب البعثـات التى ذهبت الى أوربا ليضيفوا علوم التمدن العلمى الى علوم الشريعة والعربية التى حصلوها فى الأزهر الشريف •

٢ — ان مجموع المـدارس الحديثـة التى أنشئت فى عهد محمد على قـد بلغ خمسا وثلاثين مدرسـة : ٤ ابتدائيـة — و ٤ تجهيزية (ثانوية) — و ٦ خصوصية وصـناعية — و ٤ عالية — و ١٧ حربية — على حين بلغ مجمـوع مكاتب تحفيظ القـرآن الـكريم التى أنشأها محمد على بالقـاهرة والاسكندرية والأقاليم تسعة وأربعين مكتبا ولقد كان القرآن الـكريم والفرائض الدينيـة مادتين من مواد الدراسـة بالمـدارس الابتدائية الجديدة • فأين هى « علمنة التعليم » الجزئية فضلا عن « الـكاملة » ؟•

٣ — ان مراجعة تخصصات البعثات العلمية التى أرسلها محمـد على باشا الى أوربا تنفى المزاعم بأن هذه البعثـات قـد أرست أسس التعليم (العلمانى الراسخة) فلقـد ذهبت هذه البعثات لتتعلم العلوم

والفنون العملية والخاصة بالتمدن المدنى . ولم يذهب مبعوث واحد لدراسة العلوم الانسانية أو الاجتماعية أو الفلسفية التى تتصل بسبب ضعيف أو قوى بنهج الحضارة الغربية العلمانى الذى يفصل الدين عن الدولة ويرسخ الفكر المادى فى النظر الى الكون وعلاقة المسببات بالأسباب .

ونحن نعتقد أن الدكتور لويس عوض لو أخلص القصد فى مراجعة تخصصات هذه البعثات وهى مذكورة على سبيل الحصر فى كتابات رفاعة الطهطاوى وعمر طوسون وعبد الرحمن الرافعى لما تحدث عن ارساء هذه البعثات وترسيخها لأسس التعليم العلمانى .. وهذه العلوم الطبيعية وتطبيقاتها وهى التى لا وطن لها ولا تتلون باختلاف الحضارات والفكريات — الايدلوجيات — هى التى يسميها الطهطاوى « العلوم والمعارف البشرية .. والفنون العملية » التى يظهر أثرها بتجارب ، ويميز بينها وبين « العلوم النظرية » من مثل الاعتقادات الفلسفية الأوربية الخارجة عن قانون العقل بالنسبة لغير الأوربيين والتى هى حشوات ضلالية مخالفة لسائر الكتب السماوية والتى ينصح كل من يريد الاطلاع عليها أن يتمكن أولا من الكتاب والسنة حتى لايغتر بذلك ولا يفتر اعتقاده .

أما استدلال الدكتور لويس عوض على علمانية مصر فى عهد محمد على بـ « علمانية » رفاعة الطهطاوى وبدراساته الانسانية التى رسخت أسس التفكير العلمانى .. فانه ترديد « لخطأ شائع » فى كتابات الدكتور لويس عوض وعدد من « المتغربين العلمانيين » الذين يخدعون قراءهم عندما يعلنون عن انتصار الطهطاوى لـ « المذهب الانسانى » ويضمرون أن مرادهم بـ « الانسانى » هو « العلمانى » دون أن يدرى قراؤهم هذا المراد .

ولقد خيل الى فى مرحلة من مراحل دراساتى عن الطهطاوى أن الرجل قد اتخذ موقف « التردد » حيال « علمانية الحضارة الغربية »

ولــكن التقدم فى وعى نصوص الطهطاوى وفقــه كتاباته قــد بلغ بى درجة اليقين برفض الرجل للعلمانية الغربيــة رفضا واعيا بحقيقتهــا المخالفة للاطار المرجعى لحضارته العربية الاسلامية •

لقد كان الطهطاوى على وعى كامل وعميق بأن « العلمانية » هى « الاطار المرجعى » للحضارة الغربيــة •• وان هذه العلمانية تعنى : الاعتماد على « العقل » دون « النقــل » و « الوحى » وارجاع كل (المسببات) الى « النواميس الطبيعية » وحدها دون القوة الالهيــة الخالقة والمــدبرة للــكون •• واعتماد « العقل » وحــده مصــدرا للقوانين دونما نظر الى « الشريعة الالهيــة » ومقاصدها وأحكامها•• وان هــذه العلمانيــة لاتقيم للدين وزنا فيما يتعلق بسياســة الدولة وتنظيم المجتمع وتنمية العمران •

كان الطهطاوى على وعى بهذه الحقائق عندما تحــدث عن أهــل باريس فقال : « ان أكثر أهل هذه المــدينة انما له من دين النصرانية الاسم فقط حيث لايتبع دينــه ولا غيرة له عليه بل هو من الفــرق المحسنة والمقبحة بالعقل أو فرقــةمن الاباحيين الذين يقولون ان كل عمل يأذن فيــه العقل صواب •• ولذلك فهو لايصدق بشىء مما فى كتب أهل الــكتاب لخروجه عن الأمور الطبيعية » •

وكما وعى الطهطاوى « علمانية الغرب » باعتبــارها « الاطــار المرجعى » للحضارة الغربية الذى يعتمد « الدنيــا » دون « الدين » و « العقل » دون « النقل » و (النواميس الطبيعية) دون (الشريعة) فلقد وعى تميز حضــارته العربيـــة الاســلامية « باطار مرجعى » يجمع مابين « العقل » و « النقل » و « الطبيعــة » و (الشريعــة) و « الدنيــا » و « الدين » وكتب عن هــذه الحقيقة المحورية والهامة يقول : « ان تحســين النواميس الطبيعيــة لايعتــد به الا اذا قرره الشارع •• والتكاليف الشرعية والسياسية التى عليها مدار نظام العالم

مؤسسة على التكاليف العقلية الصحيحة الخالية عن الموانع والشبهات، لأن الشريعة والسياسة مبنيتان على الحكمة المعقولة لنـا ، أو التعبدية التى يعلم حكمتها المولى سبحانه وتعـالى ، وليس لنـا أن نعتمد على ما يحسنه العقل أو يقبحه الا اذا ورد الشرع بتحسينه أو تقبيحه » .

ولا يكتفى الطهطـاوى بهـذا التصريح الذى يؤكد : مرجعيـة الاسـلام فى تنظيم الدنيـا والدولة والتشريع للقوانين . الأمر الذى ينفى علمانيته نفيـا قاطعـا — وانما يذهب لينتقد « علمانية الحضارة الغربيـة » ويسفه « المنطق العلمانى » فيقول : « ولا عبرة بالنفوس القاصرة الذين حكموا عقولهم بما اكتسبوه من الخواطـر التى ركنوا اليهـا تحسينا وتقبيحا ، وظنوا أنهم فازوا بالمقصـود بتعدى الحدود فينبغى تعليم النفوس السياسة بطرق الشرع لا بطرق العقول المجردة. ومعلوم أن الشرع الشريف لايحظر جلب المنـافع ولا درء المفـاسد ولا ينـافى المتجددات المستحسنة التى يخترعها من منحهم الله تعـالى العقل والهمهم الصناعة .. » .

فهل بقيت بعد ذلك « شبهة » فى رفض الطهطاوى « للعلمانية » ؟

وأين هى علمانية مصر — و « مصر العلمانية » — على عهد محمد على — تلك التى تحدث عنها الدكتور لويس ؟؟

وأين هو حظ « الأدلة » التى سـاقها من الجـدية والصـدق والموضـوعية والأمـانة فى الاتسـاق مع حقـائق الفكر ووقائع التـاريخ) ؟. أهـ .

ثم يأخذ الدكتور محمد عمارة فى تفنيد مزاعم لويس عوض حول العلمانية التى يزعم أنه قد أخذ بها الخديوى اسماعيل فيقول :

يرى الدكتور لويس عوض فى محاولته «تبييض» وجه «العلمانية» وتمويه حقيقتها بتغليف سمها كى يبتلعه القارىء فى محيطنا الاسلامى. فيصـور لقرائه ان كل مشاريع نهضتنا الحديثة قـد كانت « علمانية »

وان بلادنا قـد اكتملت علمانيا تحت قيادة « الحكام المصلحين » ، الذين عرفتهم فى عصرها الحديث •• وعنده أن الحقبة الثانية من أحقاب مصر العلمانية كانت تلك التى حكمها فيها الخديوى « العظيم » — كما يصفه — اسماعيل •• وهى حقبة امتدت ستة عشر عاما ••

أما عباراته التى يسوق فيها أدلته على علمانية مصر فى عهد اسماعيل فانها تقول : (•• ويتولى اسماعيل الذى :

١ — كان يؤمن بمصر الأوربية التى بدأت من جديد اعادة بناء الدولة الحديثة العلمانية فى مصر بكل مضامينها •

٢ — الدولة القومية •• ذات المؤسسات البرلمانية •

٣ — وادخال قانون نابليون فى الستينات من القرن التاسع عشر بوصفه القانون الرسمى فى مصر • فلقد بلغت علمنة القوانين المصرية مدها الكامل عندما أدخل الخديوى اسماعيل قانون نابليون •• بوصفه النظام القضائى الرسمى فى مصر • وأنشأ لجنة برياسة رفاعة الطهطاوى ليترجم قانون نابليون الى اللغة العربية •

ولقد رسخت السنوات الست عشرة من حكم اسماعيل أسس العلمانية فى مصر الحديثة •

تلك هى عبارات الدكتور لويس التى تسوق الأدلة الثلاثة على « رسوخ أسس العلمانية فى مصر الحديثة تحت حكم الخديوى اسماعيل » • واذا كنا نعتقد الاعتقاد الجازم بتناقض هذه المقولة مع حقائق الفكر ووقائع التاريخ المصرى فى عهد الخديوى اسماعيل•• فاننا نعترف بوجود « شبهات » فى هذه المقولة • قد جعلت منها فكرا شائعا فى أوساط كثير من الباحثين والقراء •• وهى شبهات نابعة من أخطاء تاريخية شائعة ولا علاقة بينها وبين حقائق الفكر ووقائع التاريخ ، ولذلك وجب علينا كما صنعنا بـ « أدلة » علمانية

مصر فى عهـد محمـد على أن نصـنع بـ « أدلة » علمانيتهـا على عهد الخـديوى اسماعيل •• بأن نعرض هذه الأدلة على حقـائق الفكر ووقائع التـاريخ • كما جاءت فى أمهات مصـادر التاريخ الذى أرخ لمصر فى تلك السنوات • وأول هـذه الأدلة وأكثر هذه الشبهات شيوعا هو « ايمان » الخديوى اسماعيل بمصر الأوربيـة •• حقيقة لقد شاعت الـكلمات المنسوبة الى الخديوى اسماعيل والتى تقول على لسانه اننى أريد أن أجعل من مصر قطعـة من أوربا • لـكن هل حقا أراد الخديوى اسماعيل جعل مصر قطعـة من أوربا العلمانية ؟• وهل سعى فى سبيل تحقيق هذه الارادة ؟ وهل تحققت هـذه الارادة ؟ فى الفكر والواقع المصرى على عهد الخديوى اسماعيل ؟•

ان وقائع التاريخ تنفى « الوهم » الذى تحول الى « خطأ شائع » فى الحركة الفكرية والثقافيـة الفترة تجاوزت القرن من الزمان • فلم تكن « ارادة » اسماعيل أن يجعل من مصر قطعـة من أوربا بسلخها عن حضارتها الشرقيـة ، وانما كانت تلك هى ارادة الاستعمار الأوربى ، الذى زاد تدخله فى شـئون مصر ابان حكم اسماعيل •• وعندما تحدث اسماعيل فى هـذا الأمر فانه لم يكن يتحـدث عن رغبة له فى تحويل مصر الى قطعـة من أوربا وانمـا كان يصـف الواقع الذى فرضـه الاستعمار على مصر ، بواسطة « صندوق الدين » و « لجنة التحقيق العليـا الأوربية » التى فرضت الوصـاية الأوربيـة على مصر بحجة ضمان الوفاء بسداد ديون مصر قبل المصارف الأوربيـة ، فلقـد كان الخديوى يصف واقعا ويتحدث بلسان من يستسلم أمام « انذار » لجنة التحقيق العليـا الأوربيـة • ولسان حاله بل ومقـاله يعلن استنكاره لواقع تحـويل مصر الى قطعـة من أوربا ولا يعلن عن ارادة المريـد واختيار المختار ؟•

فقصـة هـذا الأمر : أن عضو لجنة التحقيق العليـا الأوربيـة « السير ريفرس ويلسن » قد قابل الخديوى اسماعيل فى ٢٣ أغسطس

سنة ١٨٧٨ م ليعرف رأيه فى تقرير اللجنـــة ، التى فرضت الوصـــاية الأوربية على مصر •• وفى هـــذه المقـــابلة أعلن الخـــديوى الخضوع لمـــا جاء فى هذا التقرير من توصيات •• وقال الخديوى للسير ريفرس ويلسن ضمن ماقال تعبيرا عن الخضوع للانذار وبصيغة الوصف لهذا الاتجاه الذى يفرضـــه التـــدخل الأجنبى على مصر • قال الخـــديوى اسماعيل : ان بلادى لم تعد فى افريقية بل نحن الآن قطعة من أوربا •

فأين هى ارادة اسماعيل فى أن يجعل مصر قطعة من أوربا ؟ واذا كان اسماعيل قـــد عزل بعد هـــذا التاريخ بعشرة أشـــهر فقط — ٢٦ يونية سنة ١٨٧٩ م فأين هى السنوات الست عشرة التى وضع فيهـــا اسماعيل هـــذه « الارادة » موضع الممارسة والتطبيـــق حتى رسخت أسس العلمانية فى مصر على يديه كما يقول الدكتور لويس ؟•

والدكتور لويس عوض يستدل على علمانية الخـــديوى اسماعيل وعلمانية مصر فى عصره بنزعة الاستقلال التى كانت لدى الخديوى عن الدولة العثمانية ، وفضلا عن أن هذه النزعة لاتمثل جـــديدا بالنسبة للذين حكموا مصر العربيـــة الاســـلامية منذ عهـــد أحمـــد بن طولون (٢٢٠ — ٢٧٠ هـ ٨٣٥ — ٨٨٤ م) فلقد نبعت هذه النزعة الاستقلالية من طبيعـــة الدور الريادى والقيـــادى لمصر ، ومن امكاناتها الحضارية، التى لم يتسق معهـــا وضع الولاية التابعـــة لعاصمة الخـــلافة ، وهى نزعة لا علاقة لها بالعلمانيـــة • والا لـــكان الطولونيين والاخشيديون والفاطميون الذين جعلوها مركز خلافة تتبعها الولايات — والأيوبيون — الذين جعلوها مركز السلطنة — ومن بعدهم المماليك — الذين جعلوها مركز الخلافة والسلطنة معا — والا كان جميع هؤلاء بمنطق الدكتـــور لويس علمانيين ؟•

نقول : انه فضلا عن هذه الحقيقة التى تقف خلف نزعة الاستقلال عنـــد الخـــديوى ، والتى عبرت عن حقيقـــة مصرية عاشـــتها مصر ،

ومارستها منذ ابلالها ، من نقاهة القهــر البيزنطى الذى انتهت آثاره باستقلال مصر على يد أحمد بن طولون ... فان هــذا الاستقلال لم يخرج بمصر عن دائرة الانتماء الحضارى للجامعة الاسلامية ولم يجعلها تدير ظهرها للمسئوليات القيــادية والريادية نحو محيطها الاسلامى . تلك المسئوليات التى كانت جوهر أسباب هذا الاستقلال .

ثم اننا نسأل الدكتور لويس عوض :

من قال ان الــدولة القوميــة الديمقراطيــة هى الثمرة والقرين للعلمانية حتى تكون نزعة الخديوى اسماعيل الاستقلالية واتجاهه الى اقامة المؤسسات البرلمانية دليلا على علمانيته وعلمانية مصر فى عصره .

ان دولة ولاية « الفقيه » التى يقودها آية الله روح الله الخمينى فى ايران وهى النقيض الصــارخ للعلمانية — هى دولة قوميــة حتى النخاع ؟ وجميع الدول الفاشية والنازية الأوربيــة — وهى النقيض الصــارخ للديمقراطية — كانت علمانية حتى النخاع — فليس هنــاك تلازم بين القوميــة الديمقراطيــة وبين العلمانيــة وانما التلازم بين العلمانية وبين فصل الدين عن الدولة فقط لاغير .

أما سيد أدلة الدكتور لويس على علمانية مصر الخديوى اسماعيل وهو ترجمة قانون نابليون فى ستينات القرن التاسع عشر بواسطة لجنة رأسها رفاعة الطهطاوى ليكون القانون الرسمى بمصر والنظام القضائى الرسمى لها .

أما هذا الدليل وهو سيد أدلته فانه يكشف هو الآخر عن مأزق ، جرد دعاوى الدكتور لويس من الحد الأدنى للأمانة اللازمة فى تعامل الــكاتب — أى كاتب مع حقائق الفكر ووقائع التاريخ ؟ ان هذا الدليل من أدلة الدكتور لويس على علمانية مصر الخديوى اسماعيل يبلغ فى الزيف حد الفضيحة التاريخية .

ففى هــذا التغيير الأول للنظام القانونى المصرى اعتمد الخديوى اسماعيل المجموعة القانونيـــة العثمانيـــة ، وهى اسلامية •• وليست علمانية ، مرجعا للقضـــاء المصرى •••

١ — ولم يحدث الخديوى اســماعيل تغييرا فى القضـــاء الوطنى الا فى حدود الاضـــافة والتوسع لمـا كان قائما فى عصر محمد على ، فـكان المجلس الخصوصى وهو بمثـابة مجلس النظـار ، مع مجلس الأحكام الذى هو امتداد للجمعية الحقانية التى أنشأها محمد على سنة ١٨٤٢ م — كان هذان المجلسان معا مجتمعين يكونان السلطة التشريعية فى مصر •• فلم يحدث فى سلطة التشريع ولا فى دوائر القضاء تغيير علمانى ، بهذا الاصــلاح الذى أدخله الخديوى اسماعيل •

٢ — وبعد تسع سنوات من حكم اسماعيل وبعد خمس سنوات من ترجمــة اللجنـــة التى رأسها رفاعة الطهطاوى لقانون نابليون أى فى حقبة السبعينيات من القرن التاسع عشر أصدر الخديوى اسماعيل فى ٢٣ شوال سنة ١٢٨٨ هـ الموافق يناير سنة ١٨٧٢ م قرارا بتعيين مفتى الحنفية وشيخ الأزهر ومفتى الجيزة أعضـــاء فى المجلس الخصوصى الذى هــو المرجع فى أكثر أوقاف الحكومة وذلك للنظر فى القضـــايا الشرعية » فليس هناك حتى هذا التاريخ أثر لعلمنة القانون والقضـــاء المصريين •

٣ — أما حكاية ترجمة قوانين نابليون التى يقول عنهـا الدكتور لويس أنهـا قـــد بلغت بعلمنة القوانين المصرية ، مدها الـكامل فانها لاتخرج عن حـــدود الوهم أو الخطأ — الشائع ان أحسنا الظن — وقد تدخل فى عداد جرائم تزييف التاريخ •

صحيح ان لجنـــة برئاسة رفاعة الطهطاوى قـــد أنجزت ترجمة قوانين نابليون (تعريب القانون الفرنساوى) وطبعته مطبعة بولاق سنة ١٢٨٣ هـ سنة ١٨٦٦ م وفى هذه المجموعـــة القوانين المدنيـــة والبلدية

والمحاكمات والمرافعـات وتحقيـق الدعاوى والمدافعـات والحـدود والجنايات ، لـكن هذه الترجمة لم تـكن بغرض علمنة قانون القضاء المصرى — كما يوهم الدكتور لويس قراءه — وانمـا كانت بهـدف أن يعرف المصريون القـانون الذى يتحاكم اليه الأوربيون فى بلادهم ، حتى يكونوا على بينـة من حلول المشكلات الناجمة عن كثرة المعاملات مع هؤلاء الأوربيين فى ذلك التاريخ ، كانت ترجمـة العلم والمعرفـة وتصريف الأمور مع الأجانب ، وليست علمنة للقـانون المصرى وللنظام القضـائى فى مصر •• ودليلنا على هذا الذى نقول من حقائق الفكر — نفس المقـدمة التى قـدم بهـا رفاعة الطهطاوى الترجمة العربية لهذا القانون • وفيها يقول عن سبب هـذه الترجمة ، انه قـد صـدر الأمر العـالى الخـديوى بتعريبها •• حتى لايجهل أهل هذا الوطن أصـول الممالك الأخرى • لاسيما وأن علاقات الاقتضـاء ومناسبات الأخذ والعطاء تدعو الى الالمام بمثل تلك الأصول الوضعية ليكون من يتعامل معهم فى تسوية الأمور على بصيرة •

ويزيد الطهطاوى هـذا الأمر تأكيدا ووضوحا فى المقـدمة التى كتبها لطبعـة ترجمـة قانون أحكام التجارة الفرنسى سـنة ١٢٨٥ هـ سنة ١٨٦٨ م عنـدما يتحدث عن دواعى هذه الترجمـة لهذا القانون فيقول : وحيث اتسعت الآن فى مصرنا دائرة المعاملات بين أهالى الممالك الأوربيـة وكثرت التعلقـات فصار لا بأس لأرباب التجارة بمعرفـة قوانين المعـاملات الجارية عند الأجانب ، بل صـار الاطلاع عليها لمن يعقد عقود التجارات معهم من الواجب • ولهذا حسن ابراز هذا القانون بالعربية الى حيز الوجود » •

أرأيتم أن هذه الترجمة كانت للعلم والمعرفة وحتى يكون المصريون على بينـة وهم يعقدون عقود التجارات والمعـاملات مع الأجانب ولم تكن « علمنة » للقانون والقضاء فى مصر ؟•

٤ — لـكن أمرا آخر كان يحدث بمصر منذ عهد الخديوى سـعيد (١٢٣٧ — ١٢٧٩ هـ ١٨٥٢ م) الذى سبق عهد الخديوى اسماعيل .. هـذا الأمر هو تزايد النفوذ الأجنبى بمصر وخاصـة بعد عقد امتياز شركة قنـاة السويس فلقـد تزايد عدد الأجانب وتزايـد نفوذهم ، وأخذت حكوماتهم تتداخل فى الشئون الداخلية للبلاد ، وتزايد عـدد المـدارس الأوربية فى البلاد . حتى لقد افتتح منها سبعون مدرسـة للبنين والبنات ، فى عهد الخديوى اسماعيل .

واستطاع هـذا النفوذ أن يخلق لهذه الجالية قضاء غير القضاء الوطنى ، فرض الاعتراف الرسمى به على الخديوى سعيد الذى أصدر ارادة فى ١٢ شعبان سنة ١٢٧٢ هـ ١٨ أبريل ١٨٥٥ م . بانشاء محكمة تجـارية (مجلس تجـار) مختلط من المصريين والأجانب ليقضى فى المنـازعات التجارية التى يكون الأجانب طرفا فيها .. وبتزايد النفوذ الأجنبى فى شئون مصر أنشىء للفصل فى دعاواهم أواخر عهد سـعيد فى سنة ١٨٦١ م مجلس خاص باسم قومسيون مصر .

لـكن تعـاظم النفوذ الأجنبى فى عهد اسماعيل نشر فوضى فى القضـاء ، بالدعاوى التى كان الأجانب والخاضـعون لحمايتهم طرفا فيها ، بل لقـد أصبحت المحـاكم القنصلية ومقرها قنصليـات الدول الأجنبية وقضـاتها هم القناصل الأجانب أصبحت تحكم للأجانب على الحكومة المصرية . وتنظيما لهذه الفوضى القانونية والقضائيـة أنشئت المحاكم المختلطة فى مصر سـنة ١٨٧٥ م ، وهى محاكم ذات أغلبيـة أجنبية ، وللأجانب رئاسة جلساتها ، وينفرد القاضى الأجنبى بالحكم فى دائرتها الجزئيـة ، ذات القاضى الواحد ، وكـذلك فى دائرة الأمور المستعجلة ، والأمور الوقتية ، ودائرة البيوع ونزع الملكية العقارية .. وقـد اعتمدت هـذه المحاكم قانون نابليون شريعـة تقضى به فيما يرفع اليهـا من منازعات ، فكانت أول اختراق أجنبى منظم للقضـاء الوطنى الاسـلامى فى مصر لـكنه ظل اختراقا جزئيا ومحدودا ، فلم

يخرج اختصـــاص هذا القانون النابليونى ومحاكمه المختلطة عن حدود منازعات الأجانب ، أو المنازعات التى يكون الأجانب طرفا فيها ، ولم يتحول طوال عهد اسماعيل الى قانون لمصر ونظام لقضائها .

ويقول القاضى الهولندى بالمحاكم المختلطة فان بملين Vanbemmelen عن القضـــاء القنصلى : انه وليد الاغتصـــاب الواقع من الأقوياء على حقوق الضعفاء . كما يقول عن قضـــاء المحاكم المختلطة — وكان قاضيا بهـــا : انهـــا ركن قوى من أركان السيطرة الأوربية على مصر .

لقد حدث هذا الاختراق الجزئى لسيادة مصر القانونية والقضائية، وأقام الأوربيون بهـــذا الاغتصـــاب الواقع من الأقـــوياء على حقوق الضعفاء ركنا من أركان السيطرة الأوربيـــة على مصر .. وفق عبارات الخواجة فان بملن .. ثم يجىء الوطنى لويس عوض ليرى فى هـــذه السيطرة الأوربيـــة على مصر علمانية ومذهبا انسانيا ارتقت اليه مصر فى عهد اسماعيل العظيم ؟؟!!

فأين هى علمانية مصر فى عهد اسماعيل ؟ ان اسماعيل لم يرد لمصر أن تكون قطعة من أوربا وانما الذى فرض ذلك عليه هو الاستعمار .. وان قانون مصر وقضاءها لم يتحول الى العلمانية على عهد الخـــديوى اسماعيل .. وما الاختراق الجزئى الذى تمثل فى المحـــاكم القنصلية والمختلطة الا اغتصـــاب اســـتعمارى لجزء من السيادة الوطنيـــة فى مؤسسة التشريع والقضاء .

ولم يكن الطهطـــاوى واعلام مصر اســـماعيل بالعلمـــانيين الذين يخونون شريعة الأمة ومنظومتها القانونية ، وانما كانوا رغم ترجمتهم لقـــانون نابليون المـــدافعين عن جدارة فقه المعاملات الاسلامى بتنظيم المعاملات الحديثة .. والساعين لتقنين هذا الفقـــه تقنينـــا حديثـــا . محاولين بذلك مقاومة العلمانية التى كانت ســـلاحا من أسلحـــة الغزو الاستعمارى الزاحف على البلاد فى عصر اسماعيل) أه من بحث الدكتور محمد عمـــارة .

أما الضلالة الثالثة للعلمانية :

فهى زعمهم أن العلمانية لاتتعارض مع الاسلام •

ومن الواضح أن المراوغة هنا لاتتهيأ لأصحابها الا بالأخذ بالمفهوم الغربى للعلمانية الذى يقتصر على مجرد استبعاد الدين عن شئون الحياة الدنيا • وهم يرفعون شعار « علمانية الاسلام » •

ويقول الدكتور محمد عمارة فى رد هذه الخرافة :

ان أبلغ رد على « العلمانيين » القائلين بعلمانية الاسلام والذين يدعون انه دين ورسالة روحية محضة وليس دولة وسياسة ولذلك يزعمون أن محمدا ﷺ لم يؤسس دولة ولم يقم حكومة ولم يكن قائدا سياسيا للمجتمع المدنى الذى عاش فيه بعد هجرته (١ هـ ٦١١ م) ان أبلغ رد على هؤلاء العلمانيين هو الاشارة الى أبرز معالم هذه الدولة التى أسسها الرسول وصحبه وهى المعالم التى تواترت أخبارها فى أمهات مصادر الحديث والتاريخ •

ولقد قيض الله لهذه القسمة التى تمثل المنطلق لتراث الاسلام السياسى عالما أبحر فى محيط السنة والتقط منه اللبنات التى أقامت معالم دولة المدينة شامخة وبارزة ومتآلفة للناظرين •• وهذا العالم هو الخزاعى أبو الحسن على بن محمد بن أحمد بن موسى بن مسعود ابن موسى بن أبى غفرة الخزاعى (٧١٠ — ٨٧٩ هـ ١٠٢٦ — ١١٠٣م)، أما كتابه الذى تفرد فى تراثنا بكونه ديوان معالم دولة الرسول عليه الصلاة والسلام فهو كتاب (تخريج الدلالات السمعية) ، ومن هذا الكتاب الذى هو جماع ماتناثر فى مصادر الحديث النبوى من أخبار الدولة ومعالمها وأركانها ودوائرها وأدواتها ووظائفها ندرك اننا بازاء دولة كاملة الأركان ، تامة المعالم ، قياسا على العصر ، والواقع الذى قامت فيه ، ونهضت لضبط شئونه ، وتلبية احتياجات الرعية فيه •

(أ) فعلى رأس هــذه الــدولة كان القــائد والأمير وولى الأمر والامام محمد بن عبد الله ﷺ وكان له وزراء ومشيرون اشتهر منهم : هيئة العشرة المهاجرون الأولون — ونقبــاء الأنصار الاثنا عشر — وكان هناك من اختص بالحجابة والسقاية والــكتابة والترجمة وحمل الخاتم وامارة الحج •• الخ •• الخ •

(ب) وفى فقــه الدين كانت هناك عمالات : تعليم القرآن وتعليم الــكتابة والقراءة والافتــاء وتعليم الفقــه وامامة الصــلاة والأذان •• الخ •• الخ •

(ج) وفى العــلاقات الخارجيــة والاعلام كان هنــاك : السفراء والتراجمة والشعراء والخطباء •• الخ •• الخ •

(د) وفى القطــاع الحــربى كان هنــاك — غــير أمراء القتال وجنده — كتاب الجيش وفارضوا العطاء والعرفاء رؤســاء الجند •• الخ •• الخ •

(هـ) وعلى النواحى كان هنــاك ولاة وأمراء الأقاليم وفيها كان القضــاة •• وعمــال الجبــاية والخراج ، والقــــائم على الحمى ، وصــاحب المساحة ، وعمــال الزكاة ، والصــدقات ، والخارصــون للثمار ، كمــا كان هنــــاك فارضــو المواريث وفارضو النفقــات •• الخ •• الخ •

(و) كذلك كان هنــاك من يقوم بمهمة المحتسب وصاحب العسس ومتولى حراسة المــدينة والعين الجاسوس ، والسجان ، والمنادى ، ومقيم الحدود ، ومتولى التطبيب والعلاج •• الخ •

(ز) وعند الغزو كان هنــاك : أمراء الجهــاد والمستخلفون على المــدينة ، ومن يستنفر النــاس للقتــال ، وصاحب السلاح ، وصاحب اللواء وأمراء أقسام الجيش الخمسة • وحراس القائد عليه الصــلاة والسلام والقائمون على متــاع السفر ومن يخــذلون الأعــداء ومن يبشرون بالنصر •• الخ •• الخ •

* * *

ومن قرارات مؤتمرات مجمع البحوث الاسلامية بالأزهر جاء فى المؤتمر الثانى :

(يسجل المؤتمر ان الاسلام عقيدة وشريعة وحضارة ، وانه دين ترق حضارى يشرع للحياة صورتها المتكاملة) •

وجاء انه (يدعو الأمم الاسلامية الى اتخاذ الاسلام منهجا لسلوكها فى الحياة بالاستمساك بالقيم الخلقية والاجتماعية التى جاء بها الاسلام ، وباتخاذ الشريعة الاسلامية أسسا لتشريعاتها) •

وجاء فى المؤتمر الثالث أنه يدعو الى :

(أن تتضافر جهود المسلمين حكومات وأفرادا على توجيه حياتهم العامة والخاصة وجهة اسلامية سليمة على أساس متين من تعاليم الدين الحنيف فى نظم الحكم والادارة والقضاء) •

وجاء قراره بأن (الاسلام عقيدة وعبادة وشريعة تحدد الحقوق والواجبات) و (ان تعاليم الاسلام قد اشتملت على أحكام فى تنظيم الجانب الاقتصادى يتألف من مجموعها نظام اقتصادى متكامل يمتاز عن النظم الاقتصادية الأخرى) •

كما ناشد المؤتمر الثالث :

(السلطات ذات الاختصاص فى مختلف الدول الاسلامية أن تعمل على تنقية تشريعاتها ونظمها من كل مايخالف حكم الاسلام ، وأن ترد هذه التشريعات والنظم الى كتاب الله وسنة رسوله) •

كما أوصى فى المؤتمر الرابع :

(بتأليف لجنة من رجال الفقه الاسلامى والقانون الوضعى لتضطلع بوضع الدراسات ومشروعات القوانين التى تيسر على

المسئولين فى البلاد الاسلامية الأخذ بأحكام الشريعة الاسلامية فى قوانين بلادها ، كقوانين العقوبات والقانون التجارى والقانون البحرى وغيرها) .

وأكد المؤتمر الخامس (ماقرره فى دوراته السابقة من وجوب اتخاذ الشريعة الاسلامية أساسا للتشريع فى الأمة الاسلامية فقد ثبت تاريخيا وعلميا أنها صالحة لكل زمان ولكل مكان ، وأنها أصلح الشرائع للبشرية) .

***

يتمسح دعاة « علمانية الاسلام » بالحديث النبوى (أنتم أعلم بشئون دنياكم ..) . كأنهم يخبرونا بلسان الحال ان الاسلام قدم اليهم فى خطاب سرى استقالته من كل وظائفه التى تقلدها فى أنظمة الحياة الدنيا :

(النظام السياسى . والاقتصادى . والقضائى . والادارى والتربوى) .

وبالرغم مما فى هذا الرأى من تفاهة وما ينطوى عليه من سخرية بالحقيقة ، فانه لابد لنا من التصدى له ، وبخاصة أنه يتردد على أقلام العلمانيين منذ على عبد الرازق حتى الآن [٣٩] .

ويقول الشيخ محمد الخضر حسين فى رده على بوق العلمانية الذى شارك فى الاستدلال بحديث تأبير النخل على انسحاب الاسلام من شئون الحياة الدنيا ومن شئون الحكم :

---

(٣٩) انظر الحملة العلمانية فى صحف عام ١٩٨٥ ، وبخاصة مقال توفيق الحكيم عن علمانية الاسلام .. وفؤاد زكريا عن تطبيق الشريعة الاسلامية ، وزكى نجيب محمود عن الحجاب ، ومقال بعنوان (عين فتحة عا) .. الخ .

(التشريع الاسـلامى يتنـاول كل ماينظر فيـه رجال القضاء والسياسـة ، بمعنى أن له فى النوازل القضـائية أحكاما وفى ادارة الشئون السياسة مقاصـد • والمنوط بعهـدة أولى الأمر أن تقرر تلك الأحكام بحق ، وأن تقام تلك المقاصد بنظام ، والوسائل التى يصلون بها الى أن تأخذ الأحكام مأخذها ، أو تقوم المقاصد على وجهها : موكولة الى اجتهادهم وأمانتهم) •

فههنا أحكام وههنا مقاصـد ، وههنا وسائل الى تلك الأحكام وتلك المقاصد والموكول الينا تلك الوسائل المشار اليها •

ثم يقول الشيخ محمد الخضر حسين (فمن مقاصـد الشرع أن تكون مرافق الحياة ميسورة ، وأن تكون القوة من الأموال ووسـائل الدفاع متوفرة ••

وفوض لولى الأمر النظر فيما يجعل عيشة الأمة راضـية وقوتها كاملة) •

أى فى وضع الوسائل لتلك المقاصد •

ثم يقول عن تلك الوسائل :

(فهم — أى أولى الأمر — الذين يضعون للتجـارة والزراعـة والصناعة نظما لاتعترض أصـلا من أصـول التشريع ، بل يجب أن تـكون فى دائرته التى تسع كل قانون عادل ونظام لائق) • أى أن وضع تلك الوسائل ليس مطلقا ولكنه يكون بحيث لايخرج عن المقاصد، وهذا بديهى لولا سوء الجدل الذى تتسلح به العلمانية •

ثم يقول الشيخ محمد الخضر حسين :

(هذا اذا كان قصد المؤلف — يعنى العلمانى على عبد الرازق — من قواعد هـذه الأشـياء — يعنى قواعـد الزراعة والصـناعة وما

يسمونه شئون الحياة الدنيا — الأنظمة العائدة الى ترقيتها وتقدمها، أما اذا أراد بالقواعد القوانين — أى شئون الحكم — فان الشريعة قررت بعضها بتفصيل ، وأودعت سائرها فى ضمن أصول كلية كبقية أحكام الحلال والحرام) (٤٠) .

ثم يتحدث الشيخ محمد الخضر عن تفاصيل المسألة فى سيرة الرسول ﷺ فيقول :

(أما اذا ثنينا عنان البحث الى المسألة من حيث سيرة النبى ﷺ فلنا نظران أيضا : نظر من حيث الحكم فى القضايا التى تنشب بين أصحاب التجارة أو الصناع أو الزراع — أى ما أشار اليه الشيخ سابقا بعنوان الأحكام والمقاصد — وهذا مما كان ﷺ يتولاه بنفسه ، وقد يكل بعضه الى من يقوم عليه) .

كما جاءت الرواية بأنه ﷺ (كان يولى فى بعض الأسواق من ينظر فى شئون المعاملات ويراقب ماعساه أن يقع من غش أو مبايعة على غير وجه مشروع ، وفى السير الحلبية أن رسول الله ﷺ استعمل سعد بن سعيد بن العاص بعد الفتح على سوق مكة ، واستعمل عمر بن الخطاب رضى الله عنه على سوق المدينة) . فأين اذن دلالة حديث تأبير النخل ؟ انها فيما يأتى :

يقول الشيخ (والنظر الثانى من ناحية العمل على اصلاح شأن هذه الفنون ، وهذه الفنون من أمور الدنيا التى لايدخل تعليمها فى وظيفة الرسول الا من حيث الأمر باقامة كل مايسد حاجات الأمة

---

(٤٠) فى كتابه « نقض كتاب الاسلام وأصول الحكم » ص ١٩٢ طبعة القاهرة ١٣٤٤ ، وقد تقلد منصب الامام الأكبر شيخ الأزهر فى بداية ثورة ١٩٥٢ وكان من أبرز شيوخ الأزهر تقوى وشجاعة .

ويكفل لها العزة والمنعـة ، وفى مثل هـذا قال النبى ﷺ « أنتم أعلم بأمور دنياكم » ..) [٤١] .

أى فى وضع الوسائل الفنيـة المحكومة بالمبـادىء والأحكام الشرعية .

يقول الشيخ محمد الخضر حسـين فى اختـلاف جهتى الأحكام والمقاصد من ناحية وجهة الوسائل الفنية من ناحية أخرى :

(والفرق بين النظرين أن تقرير أحكام الوقائع القضائيـة وغير القضائية لايصح الا ممن تحققت فيـه شروط الاجتهاد — بعد النص طبعـا — وأما العمل على اصـلاح وسائل الحيـاة من نحو التجـارة والزراعة فيؤخذ برأى العارف بهـا وان لم يكن مطلعا على شىء من أصول الشريعة أو فروعها) .

وينتقصى الشيخ المسألة فيتساءل :

(لم يبق سوى أن يقال : لماذا لم يقم — أى الرسـول ﷺ — بذلك الأمر الذى هو خارج وظيفتـه السماوية — أى أمر الوسـائل الفنية — بأن يكلف ذوى الخبرة باصـلاح شأن التجارة والزراعـة والصـناعة ؟

---

(٤١) واقعة تأبير النخل حـديثها انه عليه الصـلاة والسلام مر على قوم بالمـدينة يلقحون نخـلا فقال : « مايصنع هؤلاء » فقالوا : يلقحون ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ما أظن يغنى ذلك شيئا » فأخبروا بذلك فتركوه ، فخرجت شيصا ، فذكر ذلك للنبى صـلى الله عليه وسلم فقال : ان كان ينفعهم ذلك فليصنعوه فانى انما ظننت ظنـا فلا تؤاخذونى بالظن ، ولـكن اذا حدثتكم عن الله شيئا فخـذوا به ، وفى رواية انه قال « أنتم أعلم بأمر دنياكم » فالحـديث لم يأت فيـه انه نهاهم عن التأبير وانما قال « ما أظن يغنى ذلك شـيئا » وفى روايـة « لعلـكم لو لم تفعـلوا كان خيرا » .

وجواب هذا السؤال : ان ما كان بين أيدى الأمة من هذه الوسائل كان ملائما لمظاهر حيـاتهم البسيطة ، وكافيا لسد حاجاتهم ، واحرازهم القوة ، التى تجعلهم فى منعة من أعـدائهم ، ثم ان الحروب لم تزل حاملة أوزارها ، فلم يأخذ القوم خلالها مهلة ينصرفون فيهـا الى النظر فى شأن الزراعة ونحوها — ولا سيما اذا كانت قلة عددهم بالنسبة لأعدائهم المتألبين عليهم من كل جانب ، تضطرهم الى أن يكون شبابهم وكهولهم وشيوخهم يتقلدون السـلاح ويظلون على أهبـة القتـال بكرة وعشيا) [٤٢] •

وتقول هيئة كبار العلماء بالأزهر فى نقضها للاسـتدلال بهـذا الحديث [٤٣] على انسحاب الاسلام من شئون الحياة الدنيا :

(ان الحديث وارد فى تأبير النخل وتلقيحه • ويجرى فيما يشبه ذلك من شئون الزراعة وغيرها من الأمور التى لم تجىء الشريعـة بتعليمها • وانما تجىء لبيـان أحكامها من حل وحرمة وصحة وفساد ونحو ذلك) •

يعنى أن المتروك لنـا هو : الجوانب الفنية فى الزراعة ونحوها• أما الجوانب الحكمية أو التشرنعيـة فلا تخرج الزراعـة أو غيرها من مظلتها الاسـلامية •

ثم يخاطب بيـان هيئـة كبار العلماء أمثـال الشيخ على الذين يستدلون بهـذا الحديث على انسحاب الاسـلام من شئون الحيـاة الدنيـا ، وهم مع ذلك مايزالون يعتقـدون بصـحة النص القرآنى ، يخاطبهم متسائلا : هل يرون (ا نتدبير أمور الدنيا وسياسة النـاس

---

(٤٢) كتاب « نقض كتاب الاسـلام وأصـول الحكم » ص ١٩٢ ، ١٩٣ طبعـة ١٣٤٤ هـ القاهرة .

(٤٣) انظر كتيب « حكم هيئـة كبار العلمـاء فى كتـاب الاسـلام واصول الحكم » نشر عام ١٣٤٤ هـ .

أهون [٤٤] عند الله من شيء من المال يقول الله فى شأنه « ولا تؤتوا السفهاء أموالكم » ... واهون عند الله من صاع شعير يقول الله فى شأنه « وأوفوا بالكيل ولا تكونوا من المخسرين وزنوا بالقسطاس المستقيم » ..) .

ثم يتساءل البيان : ماذا يعمل هؤلاء (فى مثل قوله تعالى « انا أنزلنا اليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله » وقوله تعالى « وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم » وقوله تعالى « ان الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات الى أهلها واذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل » وقوله تعالى « لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل الا أن تكون تجارة عن تراض منكم » . وماذا يعمل هؤلاء فى مثل (مارواه البخارى ومسلم فى صحيحهما أن ابنة النضر أخت الربيع لطمت جارية فكسرت سنها فاختصموا الى النبى ﷺ فأمر بالقصاص. فقالت أم الربيع يا رسول الله أتقتص من فلانة ؟ لا والله فقال : سبحان الله يا أم الربيع كتاب الله القصاص . ومثل ماروراه البخارى فى صحيحه عن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما أنه قال : قضى رسول الله ﷺ بالشفعة فى كل مالم يقسم فاذا وقعت الطرق فلا شفعة . وما رواه مسلم فى صحيحه عن ابن‌عباس رضى‌الله عنهما أن رسول الله ﷺ قضى باليمين على المدعى عليه . وما رواه أيضا عن ابن عباس رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قضى بيمين وشاهد) [٤٥] .

والآيات والأحاديث الدالة على تنظيم الاسلام لشئون الحياة الدنيا أكثر من أن تحصى ، وأدخل فى باب المعلوم من الدين بالضرورة، ومن نكد الجو الثقافى الذى يقوده العلمانيون أن نرى أنفسنا بحاجة الى التنبيه عليها .

---

(٤٤) ذلك ان أمثال هؤلاء يتمسحون فيما يذهبون اليه بحديث « لو كانت الدنيا تزن عند الله جناح بعوضه لما اعطى الكافر منها شربة ماء » .

(٤٥) بيان هيئة كبار العلماء ص ١١ — ١٣ .

ومع ذلك يقدمون هـذا الحديث — وهو كما رأينـا فى الجوانب الفنيـة للزراعة — ليـدل فى رأيهم على مايشبه « استقالة الاسلام من وظائفـه » ؟

فهل جاء خطؤهم من سوء النية أم من فاضح الجهل ؟

يقول الامام الشاطبى :

(ومدار الغلط هو الجهل بمقاصـد الشرع ، وعدم ضم أطرافه بعضها البعض فان مأخذ الأدلة عند الأئمة الراسخين انما هو على أن تؤخذ الشريعـة كالصورة الواحدة بحسب ماثبت من كلياتها وجزئياتها المرتبـة عليها ، وعامها المرتب على خاصـها ، ومطلقهـا المحمول على مقيدها ومجملها المفسر ببينها الى ماسـوى ذلك من مناحيهـا • فاذا حصـل للنـاظر من جملتها حكم من الأحكام فذلك الذى نطقت به حين استنطقت •

وما مثلها الا مثل الانسان الصحيح السوى ، فكما ان الانسـان لايكون انسانا حتى يستنطق — فـلا ينطق باليد وحدها ، ولا بالرجل وحدها ، ولا بالرأس وحدها ، ولا باللسان وحده ، — بل بجملته التى سمى بها انسانا فـكذلك الشريعـة لا يطلب منها الحكم على حقيقة الاستنباط الا بجملتها ، لا من دليل منها أى دليل كان •

فشأن الراسخين تصور الشريعة صورة واحدة يخـدم بعضـها بعضا كأعضـاء الانسان ••• وشأن متبعى المتشابهات أخذ دليل ما أى دليل كان عفوا ، وأخذا أوليا ، وان كان ثم مايعـارضه من كلى أو جزئى ، فـكان العضو الواحد لايعطى فى مفهوم أحكام الشريعة حكما حقيقيا ، فمتبعه متبع متشابه ، ولا يتبعه الا من فى قلبه زيغ كما شهد الله به ، (ومن أصدق من الله قيلا) [٤٦] •

---

(٤٦) الموافقات جـ ١ ص ٣٢٩ طبعة مطبعة المنار عام ١٣٣٢ هـ .

ولا ينقضى العجب من دعاة « علمانية الاســـلام » وأســـاتذتهم هؤلاء ، اذ تراهم يتخبطون فى استعمالهم لأوهامهم التى يريدون منها تقرير أغاوطتهم بأى شكل من الأشكال •

فهم اذ يقررون تارة « علمانية الاســـلام » عن طريق ســـحب شئون الحيـــاة الدنيـــا من تحت أقـــدامه وفقـــا لمفهومهم المنكوس لحديث تأبير النخل •

تراهم يقررون تارة هذه العلمانية « علمانية الاسلام » عن طريق اظهار عناية الاسلام بشئون الحياة الدنيا •

اذ يقولون : أليس الاســـلام يختلف عن المسيحيـــة وعن أديان كثيرة فى توجهه الى الحيـــاة الدنيـــا وعنايته بها فضـــلا عن عنايته بالآخرة ؟ فنقول نعم ، هـــذا بديهى •

فيقولون : أليست العلمانية فى مفهومها الذىعارضت به الكنيسة: توجها الى الدنيا تريد الـــكنيسة اخفاءه ؟

فنقول : ربما ••

فيصيحون فى ســـذاجة : فهـــذا هو اتفاق الاسلام مع العلمانية أو بعبارة أخرى هذه هى علمانية الاسلام •

فنقول لهم : من نكد الجو الثقافى الذى سمح لـــكم بتقرير ماهى العلمانية أنه سمح لـــكم أيضا بتقرير ماهو الاسلام •

ومن نكد هذا الجو أن جعلنا مضطرين للـــكشف عن ســـخافات دعوأكم ، ما كان أغنانا عنهـــا لولا منابر مفتوحـــة لـــكم على اتساع الأفق • فقد كنتم منذ ساعة تجعلون مما ليس باســـلام اســـلاما • (دعوى علمانية الاسلام) •

فهل انتقلتم الآن لتجعلوا ماليس بعلمانيـــة علمانيـــة ؟ (دعوى أنها محض الاهتمام بالدنيـــا) كلا فأنتم مازلتم فى موقفكم من تشويه

الاســـلام ، والمغالطة السخيفة التى ترتكبونها كائنة فى قولــكم بأن توجه اثنين الى شىء واحد يوحد بينهما (٤٧) •

وهذه قاعدة سخيفة لايقرها عاقل ، ولا تقرونهـا أنتم فى أمر من أموركم •

لأن توجه اثنين الى شىء واحد كما أنه يمثل لقاء بينهما فانه كثيرا ما يجعل من هــذا اللقــاء صداما • مابالــكم لو توجهت جيوش الأمة الأمة العربيـــة وجيوش اسرائيل الى القدس ؟ وما بالــكم لو توجهت أصـــابع أحدكم وأصـــابع اللص الى محفظة واحـــدة ؟ مابالــكم لو توجهت ارادة كاتب منكم وارادة كاتب آخر الى منصب رئيس التحرير؟ كفى يا سادة هزءا بعقول القراء ، وتزييفـــا للحقـــائق ، وتآمرا على الاســـلام • ليست العبرة بالتوجه الى الدنيـــا ، ولـــكن العبرة بكيفية هــذا التوجه •

ان الاسلام يتوجه الى الدنيا ليجعلها تحت حكمه • وان العلمانية تتوجه الى الدنيـــا لترفع عنها يد الدين •

فهذا لقاء صـــدام أم لقاء اتفاق ؟

وهل يعنى هذا شيئا الا ماصرح به أستاذنا الدكتور محمد البهى: (العلمانية ليس لها مكان فى الاســـلام ، فاما أن يوجد الاسلام ولا علمانية أو توجد العلمانية ولا اسلام) (٤٨) •

وقـــد تقل جرعة السذاجة عند بعضهم وان لم يغير موقفـــه فى تزييف مايسمى « علمانية الاسلام » ولـــكنه يرفع شعار « المصلحة

---

(٤٧) يعنى توجه العلمانية من ناحيـــة والاســـلام من ناحية اخرى : الى الدنيـــا ، يجعل منهما شيئا واحدا •

(٤٨) « العلمانية والاســـلام » للدكتور محمد البهى طبعـــة الأزهـــر عام ١٩٧٦ صفحة ٧ .

فى الاسلام » هذه المرة • ان الذين يرفعون شعار « المصلحة فى الاسلام » وكونها أصلا من أصول التشريع عند بعض الأئمة ، ويريدون بذلك اقالة الشريعة الاسلامية من أساسها ، يجهلون أن هناك شروطا للمصلحة ، يقول أحدهم [٤٩] فى مقال له بعنوان (فقه الشريعة بين الجمود والتغيير) : (ان الله تعالى يقر أن ينتفع الانسان العربى بما يلائمه ويصلح له) •

وقد قلنا فى ردنا عليه (هذا حق يراد به — فى عصرنا الحاضر — باطل • ذلك أن تصور المصلحة يتغير بتغير الفلسفات والنظريات والمعتقدات • والآن : ماهى المصلحة فى حكم الشريعة الاسلامية ؟ هذا هو السؤال ، ومن ثم يكون علينا أن نعرف أولا : ماهى الشريعة وما أحكامها لنعرف من خلال ذلك : ماهى المصلحة • فالشريعة هى المصلحة ، والقول بعكس ذلك (المصلحة هى الشريعة) نتسامح فيه اذا صدر فى جو مشبع تماما بالنظرة الاسلامية ولكننا نستريب اذا صدر فى جو ثقافى مشبع تماما بالنظريات المستوردة ، لأنه حينئذ يجعل شريعة الله تبعا لشريعة البشر ، ويلغى ذاتيتها وهى — أى هذه الذاتية — حق ضرورى لها ، شأنها فى ذلك على أقل تقدير شأن كل التشريعات التى لا تصدر من فراغ ، وانما تصدر من نظرة خاصة للكون والحياة والانسان ، وهكذا شأن الاسلام ، بل يتميز الاسلام على جميع الشرائع بكونه الشريعة الوحيدة التى من حقها أن تتصدى للتشريع لمصلحة الانسان ، ذلك لأن التشريع للانسان ولمصلحته ، انما يصح من صانع الانسان ، فهو وحده الذى يعرف هذه الصناعة ، ومن ثم تكون التشريعات البشرية التى تتصدى لهذه المهمة — خارج نطاق الشريعة الاسلامية — مقتحمة ماليس لها أن تقتحمه ومؤدية الى دمار الانسان كيانا وأهدافا) •

---

(٤٩) توفيق الحكيم انظر ردنا عليه فى جريدة الأهرام ١٩٧٨/٦/٩ •

ان الأخذ بالمصلحة « المرسلة » فى التشريع الاسلامى له شروط :

أحدهما : الملاءمة لمقاصد الشرع بحيث لاتنافى أصلا من أصوله ولا دليلا من دلائله .

ومقاصد الشرع : حفظ العقل والنفس والعرض والمال ، والدين .

ثانيهما : أن يكون فى الأخذ بها حفظ أمر ضرورى ، أو رفع حرج لازم فى الدين (٥٠) .

ومن أمثلة الفتاوى التى تبنى على رعاية المصلحة : جواز بيعة المفضول مع وجود الفاضل ، لأن بطلان تلك يؤدى الى فساد واضطراب فى الأمور ، وقد أثر عن مالك رضى الله عنه أنه قال فى عدم عهد عمر بن عبد العزيز بالخلافة من بعده الى رجل صالح (انما كانت البيعة ليزيد بن عبد الملك من بعده فخاف عمر ان ولى رجلا صالحا ألا يكون ليزيد بد من القيام ، فتقوم هجمة فيفسد مالا يصلح) (٥١) .

ومن أمثلتها أيضا أنه اذا خلا بيت المال أو ارتفعت حاجات الجند وليس فيه مايكفيهم فللامام أن يوظف على الأغنياء مايراه كافيا لهم فى الحال الى أن يظهر مال فى بيت المال (٥٢) . يقول الامام الشاطبى :

(ومن أمثلتها أيضا : انه لو طبق الحرام الأرض أو ناحية من الأرض يعسر الانتقال منها ، وانسدت طرق المكاسب الطيبة ، ومست الحاجة الى الزيادة على سد الرمق ، فان ذلك سائغ أن يزيد فيه على قدر الضرورة ، ويرتقى الى قدر الحاجة فى القوت

---

(٥٠) انظر الاعتصام للشاطبى جـ ٢ ص ٣٠٧ ، ص ٣١٣ .

(٥١) انظر الاعتصام للامام الشاطبى جـ ٢ ص ٣٠٣ وما بعدها .

(٥٢) انظر الاعتصام للامام الشاطبى جـ ٢ ص ٢٩٥ مطبعة المنار .

والملبس والمسكن ، اذ لو اقتصر على سد الرمق لتعطلت المكاسب والأشغال ، ولم يزل الناس فى مقاساة ذلك الى أن يهلكوا ، وفى ذلك خراب الدين • لكنه لاينتهى الى الترفه والتنعيم ، كما لايقتصر على مقدار الضرورة • وهذا ملائم لتصرفات الشرع وان لم ينص على عينه • وقد بسط الغزالى هذه المسألة فى الأحياء بسطا شافيا وذكرها فى كتبه الأصولية كالمنخول وشفاء العليل) [٥٣] •

وبايجاز نقول لهؤلاء ما قاله الامام الشاطبى من أئمة الأصول :

(المصالح المجتلبة شرعا ، والمفاسد المستدفعة انما تعتبر من حيث تقام الحياة الدنيا للحياة الأخرى ، لا من حيث أهواء النفوس فى جلب مصالحها العادية أو درء مفاسدها) [٥٤] •

وقد يرفعون شعار « اختلاف الأحكام باختلاف الأعراف •• » المعروف فى أصول الفقه ، كأنهم يريدون به ما أرادوه فى حديث تأبير النخل من سحب شئون الحياة الدنيا من يد الأحكام الشرعية الدائمة •

ونحن نقول لهم ماقاله الامام الشاطبى أيضا (اعلم ان ماجرى ذكره هنا من اختلاف الأحكام عند اختلاف العوائد فليس فى الحقيقة باختلاف فى أصل الخطاب ، لأن الشرع موضوع على أنه دائم ، وانما معنى الاختلاف أن العوائد اذا اختلفت رجعت كل عادة الى أصل شرعى يحكم به عليها) [٥٥] •

---

(٥٣) انظر الاعتصام جـ ٢ ص ٣٠١ •

(٥٤) الموافقات للشاطبى جـ ٢ ص ٢٥ طبعة المنار •

(٥٥) الموافقات جـ ٢ ص ١٨٠ طبعة تونس ، وانظر كتاب « الاسلام واصول الحكم » للشيخ محمد الخضر الحسين ص ١٧٨ طبعة ١٣٤٤ هـ القاهرة •

وعلى سبيل المثال : فى قوانين المرور ، والسير فيه وفقا لقواعد محددة كالسير على يمين الطريق ، يصبح الحكم الشرعى ملزما بهــذه القوانين الراجعة الى العرف ، المتغير ، لأن أصل الخطاب فيها راجع الى أصل شرعى ، ومقصد أساسى من مقاصد الشريعة : هو حفظ النفس والمــال •• الخ • فأين هــذا مما يريده دعاة « علمانية الاســلام » من استكتاب الاسلام كتاب استقالته ؟؟

هذا هو اصطدام الاسلام بالعلمانية وليس « علمانية الاسلام »•

أما سوء النيــة فى ترويج شــعار « علمانية الاسلام » فيرجع الى أن القول بعلمانية الاسلام ، أو العلمانية الاسلامية ، هو ترويض للعقول لتقبل « العلمانيــة » فى معنــاها الحقيقى ، وهو أشــبه بأن تقول : « الربا » الاسلامى ، أو « الالحاد الاسلامى » ؟؟

فوصف المصطلحات الأجنبيــة بالاسلامية لا يخرجها عن معانيها المقررة نظريا وعمليا •

الفصل الثالث

الانجـاز الحضـارى للاســـلام

وهنـــا نتعرض لتفنيد الضلالة العلمانية الرابعة ، وهى زعمهم أن الاسلام باعتباره حاكما لهذه الحياة قد ثبت فشله فى التطبيق •

يقول العلمانى :

(أما التجارب التاريخية فلم تكن الا سلسلة طويلة من الفشل ، اذ كان الاستبداد هو القاعدة والظلم هو أساس العلاقة بين الحـــاكم والمحكوم ، والعـــدل والاحسان والشورى وغيرها من مبادىء الشريعة لاتعدو أن تكون كلاما يقال لتبرير أفعال حاكم يتجاهل كل ماله صـــلة بهذه المبادىء) •

أما الاستشهاد بعهد الخلفـــاء الراشدين فيقول : (هو فى ذاته دليل على أنهم لم يجدوا مايستشهدون به طوال التاريخ التالى الذى ظل الحكم فيـــه يمارس باسم الشريعـــة ، أى أن التطبيق الذى دام مايقـــرب من ثلاثة عشر قرنا كان فى واقع الأمر نـــكرانا لأصـــول الشريعة وخروجا عنها) •

ويقول (ألا يعلم هؤلاء الدعاة الأفاضـــل أن عمر بن الخطـــاب شخصية فـــذه فريدة ظهرت مرة واحدة ولن تتكرر — فلماذا يداعبون أتبـــاعهم بالأمل المستحيل) • ويفلسف العلمـــانى هـــذه الاســـتحالة بارجاعها الى سببين : أحدهما « معرفى » وثانيهما « سلوكى » •

أما السبب الأول : فهو يزعم وقـــوع هذا الفشل من حيث يزعم أن هنـــاك حائلا نظريا يحول الى الأبد بين الانسان وبين تطبيق النظام الاسلامى باعتباره نظاما الهيا •

ويقول العلمانى وهو بصدد معارضة الداعين الى تطبيق الشريعة الاسلامية باعتبارها شريعة الهية تضمن التفوق على أية شريعة بشرية :

(لو كان الاختيـــار قائمـــا بين حكم الهى وحكم بشرى لأصبحت المسألة محسومة على الفور • ولـــكن السؤال الأساسى هو : هل نحن حقـــا ازاء اختيـــار بين شرع الله وقانون الانسان ؟ فى رأيى أن الأمر على حقيقته أبعد مايكون عن ذلك) •

ثم يقول (ان المبدأ العـــام الذى يقبل تفسيرات متعددة ومتباينة — يقصد المبـــادىء الواردة فى الشريعة الاسلامية — يحتاج الى جهد بشرى لا غناء عنه ، لـــكى يترجم الى واقع يعيشه الانسان) •

ويبنى على ذلك قوله (ان الاختيـــار الحقيقى ليس بين حكم الله وحكم الانسان وانما بين حكم بشرى يزعم أنه ناطق بلســـان الوحى الالهى وحكم بشرى يعترف بأصله انسانى) •

أما السبب الثانى :

فهو يزعم وقوع هذا الفشل من حيث يزعم أن أى تطبيق للنظام الاسلامى سوف يخضع فى النهاية لأهواء القائمين على التطبيق •

يقول العلمانى :

(انه لاتوجد فى عالم البشر مفاضلة بين حكم الهى وحكم بشرى، لأن كل حكم يتولاه الانسان حتى لو كان يرتـــكز على شريعـــة الهيـــة سيصـــبح بالضرورة بشريا تنعكس عليـــه أهـــواء البشر وتحـــيزاتهم وأطمـــاعهم) •

ويقول فى عبارة تسيطر عليها الـــكراهية (ان الانســـان الذى يتولى تطبيق الشريعـــة الالهيـــة سيظل انسانا متحيزا مغرضا ظلوما جهولا ••) •

ثم ينتهى الى رفض « الاســـلام الشامل » لأنه ســـوف يؤدى الى : (اسدال ستار كثيف بيننـــا وبين تيارات الفكر والأدب والفن التى يموج بها عالمنـــا المعاصر) • أو لأن هذا الاسلام الشامل سيؤدى

على الأقل الى (أنتفتح الأبواب علىمصراعيها أمام أصحاب هذا النوع من الأفـكار [١] وسيكون من الصعب عندئذ الوقوف فى وجه تيارهم المكتسح ، مادام الأساس الذى يقوم عليه المجتمع هو أن الاسـلام ينبغى أن يكون شاملا لـكافة ميادين الحياة) •

وهو يدعى أن الحـديث الشريف « أنتم أعلم بأمور دنياكم » (يعارض بصراحة قاطعة مبدأ الاسلام الشامل) •

ثم يدعو الى الشرك مع الدين قائلاً (ان هذا الحـديث الشريف أكد ان الدين انما يمثل واحدا من جوانب متعددة تشتمل عليها حيـاة الانسان) [٢] •

ونحن نبطل هذه المزاعم من ست جهات :

الأولى : من حيث نبين سخف القول بالحـائل المعرفى بين النص الالهى وبين التطبيق •

الثانية : حيث نبين ماقـدمه الاسـلام كنظام تطبيقى ناجح فى الحضارة « الاسلامية » •

الثالثة : حيث نبين ماقـدمه الاسـلام كنظام تطبيقى للحضارة الغربيـة •

الرابعة : حيث نبين فشل « العلمانيـة » والحضـارة الغربيـة بالمقاييس الانسانيـة •

الخامسة : حيث نشير الى مايعـد الاسـلام بتقـديمه لمستقبل الانسانيـة •

---

(١) يقصـد دعاة النظـام الاسـلامى •

(٢) انظر جـريدة الأهرام ٧/٢٩ ، ٨/٥ ، ٨/١٢ ، ٩/١٦ ، ٩/٢٣ من عام ١٩٨٥ •

السادسة : حيث نبين أن رفض « الاســـلام الشامل » هو رفض صريح للاسلام ذاته •

أولا : أما أقوالهم باستحالة النفوذ الى النظام الالهى واستحالة تطبيقه لأنه تحول بين هذا النظام وبيننا — على الدوام — ضرورة التفسير البشرى للنصوص ، فهو — أى النظام الالهى — يرجع بالضرورة الى أن يكون نظاما بشريا أولا وأخيرا •

فنرد على ذلك بأن النص الالهى :

١ — اما أن يكون واضحا جليا لايحتـــاج الى اجتهاد أو تفسير كآية الجلد للزانى والزانيـــة وآيات المواريث ، على سبيل المثال ، فنحن هنـــا أمام النص الالهى بغير حائل •

٢ — وأما أن يكون بحاجة الى نوع من أنواع التفسير أو الاجتهاد وهنـــا لابد للمفسر أو المجتهد من أن يتقيد فى تفسيره أو اجتهـــاده بقيود موضوعية تشف عن النص الالهى ، وتصونه من التفسير بالهوى أو التحكم بالرأى (٣) •

وهذه القيود ترجع الى قواعد اللغة فى النحو والصرف والبلاغة والوضع ، وقواعد المنطق والتفكير ، وعلوم القرآن التى تشمل معرفـــة مناسبات النزول ، والناسخ والمنسوخ وترتيب الآيات والسور ، وعلم أصول الفقه بما يشمله من الخاص والعام ، والمطلق والمقيد ، ومقاصد الشريعـــة ، ودلالات الألفاظ ، وأنواع الأحكام ، وعلم الحديث ، بما يشمله من معرفة بالرجال ، وقواعـــد الجرح والتعـــديل ، والصحيح

---

(٣) يبدو أن العلمانى يروق له أن يتحدث عن الاســـلام وفى ذهنـــه مذاهب الباطنية من القرامطة وغيرهم الذين هم موضع الرضـــا من اليسار المعاصر .. ومعروف أن منهج الباطنية لايتقيد بالقيود التى نذكرها .

والحسن ، والضعيف والموضـوع والمتواتر والآحاد .. الخ ... فتلك قيود لا مفر من أن يتقيد بهـا المفسر أو المجتهد وأن يكون على علم بها ، لكى يكون اجتهـاده ، أو تفسـيره تعبيرا عن النص لا عن ذات نفسـه .

٣ — واما أن يكون الحكم الذى يقـدمه المفسر أو المجتهد نابعا من اقتنـاع شخصى بحت وحينئذ فهو يقـدمه على هـذا الأساس ، فلا يكون ملزما بالاتباع .

وهذا هو أبو بكر رضى الله عنه قـد نزلت به قضية فلم يجد فى كتاب الله منها أصـلا ولا فى السنة أثرا فاجتهد رأيه فيقول : هـذا رأيى فان يكن صوابا فمن الله وان يكن خطأ فمنى واستغفر الله [٤] .

وحتى هـذه الحالة التى يتحدث فيهـا المجتهد عن رأيه لايمكن مساواتها بالآراء البشرية الأخرى (العلمانية) لأن المجتهد فى الحالة الأولى ملتزم بالمبـادىء والأصول الالهية خاضـع لها قابل للاحتكام اليها ، أما الأخير فقد أزاح النص الالهى وأخذ وظيفته ، وأعلن تحرره منه وشتان بين الموقفين .

(ب) كذلك فاننا نرد هذا المنطق العلمانى :

بأن نطبقه على صاحبه ، فيظهر كذبه ، ذلك لأن هذا المنطق — ان صح جدلا أنه يحول بيننـا وبين النص الالهى — كما يزعم العلمانى — فانه يحول بيننـا وبين النصوص البشرية التى هى فى حاجة أيضـا الى تفسير وبيـان ، فيستحيل علينـا معرفة أفلاطون وأرسطو وكانت، كما يستحيل علينا معرفة مايقوله العلمانى نفسه .

وهكذا ينفضح هـذا المنطق عن السفسطة المعـاصرة فى أحـدث طبعـاتها .

---

(٤) اعلام الموقعين لابن القيم جـ ١ ص ٣٨ .

ثانيا : ماقدمه الاسلام كنظام تطبيق فى حياة المسلمين :

يقول توماس كارليل المفكر الانجليزى الشهير :

(لقد أخرج الله العرب بالاسلام من الظلام الى النور •

وأحيا به من العرب أمة هامدة ، وأرضا هامدة •• وهل كانت الا فئة خامدة فقيرة •• فاذا الخمول قد استحال شهرة ، والغموض نباهة ، والضعة رفعة ، والضعف قوة ، والشرارة حريقا وسع نوره الأنحاء ، وعم ضوؤه الأرجاء ، وعقد شعاعه الشمال بالجنوب ، والمشرق بالمغرب ، وما هو الا قرن بعد هذا الحادث حتى أصبح لدولة العرب رجل فى الهند ، ورجل فى الأندلس وأشرقت دراسة الاسلام حقبا عديدة ودهورا مديدة بنور الحق والهدى على نصف المعمورة) (٥) •

ويقول الأستاذ عبد العزيز البدرى عن تطبيق الشريعة الاسلامية على مستوى القضاء فى البلاد الاسلامية :

(أما القاضى فمن الثابت بشكل قطعى ان جميع القضاة الذين تولوا القضاء منذ عهد الرسول الأعظم ﷺ الى انتهاء الحكم الاسلامى فى الدولة العثمانية كانوا يفصلون الخصومات المعروضة أمامهم وفق أحكام الاسلام • سواء كان ذلك فى القضايا الجزائية أم الحقوقية أم فى قضايا الزواج والميراث ، أم فى البينات وسائر المعاملات •

ولم يرو أن محكمة قضائية فى طول البلاد الاسلامية وعرضها قضت بقضية واحدة على غير أحكام الشرع •• وأقرب دليل هو السجلات الخاصة بتلك المحاكم التى مازالت محفوظة فى العراق

---

(٥) الأبطال لتومارس كارليل جـ ١ ص ١٥٧ نشر المكتبة التجارية بالقاهرة •

ومصر والشام والقــدس واستانبول ، وبقى الحال كذلك الى أن فصلت المحــاكم الى شرعية ومدنيــة ، وعند ذاك أخذت القضايا والخصومات المعروضة أمام المحاكم تقضى بغير أحكام الاسلام وذلك عام ١٣٣٦ هـ ١٩١٨ م حين سقطت آخر دولة اسلامية) (٦) •

ثم يقول عن تطبيقها على مستوى الحاكم :

(أما الحاكم فقد كان يطبق أنظمة الاسلام ، ويبرز هذا التطبيق فى خمسة أمور ، فى الناحية الاجتماعية والناحيةالاقتصادية ، والناحية التعليمية ، والناحية السياسية داخليا وخارجيا وناحية الحكم ، وهذه طبقت جميعها من قبل الحاكم فى مختلف العصور الاسلامية) (٧) •

ثم يستطرد فى بيــان التطبيق فى هــذه الأمور ، ثم يتعــرض للشبهة التى تتخذ من بعض الاساءات ، ووقوع بعض المظالم دليلا على البعد عن تطبيق الشريعــة الاســلامية فيردها بقوله : (ان معرفــة أحوال المجتمع وحيــاة أهل العصر تكون بمعرفة نوعية النظــام الذى كان مطبقــا ومدى تطبيق الحاكم والمحكوم له ، وهذه المعرفة تــكون بدراسة ناحيتين :

الأولى : معرفة مصادر النظام المطبق فى ذلك العصر •

الثانية : معرفة مصادر التاريخ الذى يذكر كيفية تطبيق النظام •

ومصادر نظام الاسلام هو الــكتاب والسنة وما استند عليهما •• وهــذه المصــادر مفصلة فى كتب الفقه ، وعلى هذا الأساس نجد أن النظام الذى كان مطبقــا فى المجتمع الاسلامى فى العصور الاسلامية كلها هو نظــام اسلامى محض ، حيث لم يكن يوجد نص فقهى واحد من غير الاسلام مما يدل على أن الاسلام كان وحده موضع التطبيق •

---

(٦) كتاب « الاسلام بين العلماء والحكام » ص ١٧ — ١٨ •

(٧) المصــدر السابق ص ١٨ •

ثم يتحدث عن مصادر التاريخ فيقول :

(ان بعض هـذه الـكتب التى بين أيدينا اليوم خضعت للظروف السياسية [٨] وعلينـا بالـكتب التاريخية المعتبرة التى لايتطاول اليها الشك ، ومن فضل الله تعـالى على هذه الأمة أن منحها مؤرخين ينـدر أن نجد أمثالهم فيما بذلوه من جهد صادق •• واذا درسنا هذه الـكتب بنزاهة علمية وقلبنـا أوجه حوادثها وربطنا بين تلك الحوادث تاريخيا وواقعيا نجد أن المجتمع فى العصور الاسلامية كان مجتمعا اسلاميا ، وأن أهله من حكام ومحكومين كانوا يطبقون الاسـلام ، ولم يطبقوا غيره ، بل لم يترجم العلماء نظام غيرهم ولو للاطلاع والرد ، كما فعلوا فى الفلسفة ، لأنهم كانوا فى غنى عن ذلك) •

ثم يحذر من الثقـة المطلقـة فى بعض المصادر التاريخية فيقول (ان تاريخ الحكم الاسلامى وأحوال الحكام لاتؤخذ من أعداء الاسلام أو من المبغضين له ، أو من الذين دخلوا فى الاسـلام نفاقا ••• ومن المؤرخين من خضع لعـامل الاختـلاف المـذهبى مما كان له أثره فى كتابة بعض الحوادث ••• وخضع بعضهم لأغراض الحكام حين الكتابة عن الذين سبقوهم •• فضـلا عن أنه لم يكتب تاريخ المجتمع الاسلامى كتابة دقيقـة تمحيصية والذى كتب هو أخبار الحكام ، وهذه لاتعطى صورة واضحة عن المجتمع الاسلامى ولا عن حكم الاسلام) •

ثم يدعو الى الحذر مما يهدف اليه خصـوم الاسلام ، من سرد بعض مظاهر الفساد فى التاريخ الاسلامى قائلا (ان الباحث المـدقق لايجوز له أن يستعمل القيـاس الشمولى — التعميم — على المجتمع من تاريخ بعض أفراده أو حكامه ، كما لايجوز له أن يحكم على نواحى المجتمع كلها بالفساد لفساد حاكمه ، أو لفساد ناحية فيه •

---

(٨) انظر الاعتراف بالنظرة الانتقائية والذاتيـة والأداتيـة لـكتابة التاريخ فى كتاب فلسفة التقـدم لدافيد مارسيل ترجمـة خالد المنصـورى ص ١٧٤ ، ٢٠٩ •

فليس من الصواب أن يحكم على المجتمع فى العصر الأموى من تاريخ يزيد بن معاوية ، أو الحجاج الثقفى [٩] .

أو يحكم على المجتمع فى العصر العباسى بالفسق والمجون من قراءة كتاب الأغانى لأبى الفرج) [١٠] .

ثم يعترف بحدوث الانحرافات ولكنه ينبه الى الموقف الصحيح منها فيقول (ان حوادث الظلم ووقائع الجور من قبل بعض الحكام لاتعنى أن الحكام فساق فجار كافرون مارقون كما يتصور البعض ، ولا تعنى أن المجتمع غير اسلامى [١١] .

وانما تعنى أن الأمة الاسلامية كانت فى تلك العصور من أسعد الأمم لتطبيق أحكام الاسلام عليها ، وأن لواء الاسلام كان خفاق البنود فى الأرض وان الاساءات التى وقعت من الحكام لم تصل الى حد تغيير أحكام الشرع) [١٢] .

واذا كان من المسلم به أن عصر الخلفاء الراشدين كان العصر الأقرب الى مثالية النظام الاسلامى ، فان هذا لايعنى شذوذية هذا العصر ، وانه كما يقول العلمانى ، عن عمر بن الخطاب (شخصية ظهرت مرة واحدة ولن تتكرر) .

فذلك لأن القول بشذوذية هذه الشخصية والحكم بأنها لن تتكرر قول لايصح فى مقياس النظرة العلمية ، أو النظرة الدينية على السواء . ذلك لأن النظرة العلمية تؤمن بموضوعية السبب والنتيجة ،

---

(٩) مع التشكيك ايضا فى صحة كثير مما كتب عنهما بدافع التعصب ضد الدولة الأموية .

(١٠) كتاب الاسلام بين العلماء والحكام ص ١٨ — ٢٢ .

(١١) ولا تعنى فى المقام الأول أن النظام الاسلامى فشل فى المجال التطبيقى .

(١٢) المصدر السابق ص ٢٥

وانه كلما حصل السبب كان لابد للنتيجة أن تحصل ، وليس فى الأمر خصوصية فرد ، أو معجزة عصر ، وكان أجدر بهذا العلمانى ألا يلجأ الى مثل هذا القول لو أخلص لمنهجه العلمى •

والنظرة العلمية تسجل الظاهرة لتبحث عن أسبابها ، ولا تقفل باب البحث بمقولة تلك حادثة (حصلت مرة واحدة ولن تتكرر) •

على أن النظام الاسلامى لم يكن مجرد حادثة عابرة ولكنه كان عصرا انسانيا وأجيالا بشرية عاشت على أرض الواقع ولم يكن سبب لظهورها غير النظام الاسلامى •

والنظرة العلمية هنا تقول لنا — تبعا لمنطق السبب والنتيجة — أنه حيث يتوفر السبب — وهو النظام الاسلامى — يظهر الانسان المشابه لانسان عصر الخلفاء الراشدين •

فالعلمانى قد اعترف بظهور النظام الاسلامى فى مجال التطبيق، وعليه أن يعترف بامكانية التكرار كلما اجتمعت الأسباب النابعة من هذا النظام •

على أنه من المبالغة المغرضة القول بأن النظام الاسلامى اختفى منذ انتهى عصر الراشدين ، مهما يقل ذلك الناقدون لمسيرة النظام الاسلامى سواء فعلوا ذلك بدافع من حسن النية والتطلع الدائم الى الأفضل ، أو فعلوا ذلك بدافع من الحزبية السياسية ، أو فعلوا ذلك بدافع من سوء النية التى يمتلىء بها قلب العلمانى •

وسنذكر فيما يلى نماذج تدل على تغلغل النظام الاسلامى فى العقول والقلوب والسلوك فى عصور مختلفة •

معاوية : (رضى الله عنه) يحكى التاريخ عن سيدنا معاوية أنه (وقف يوما على منبره بعد أن قطع بعض الأعطيات المالية عن أفراد

المسلمين فقال : اسمعوا وأطيعوا فقام اليه أبو مسلم الخولانى ليحاسبه عن هذا التصرف ، فقال : لا سمع ولا طاعة يا معاوية ٠

فقال : ولم يا أبا مسلم ؟

فقال : يا معاوية كيف تمنع العطاء وانه ليس من كدك ، ولا من كد أبيك ، ولا من كد أمك ٠

فغضب معاوية ونزل عن المنبر وقال للحاضرين : مكانكم ٠

وغاب ساعة عن أعينهم ثم خرج عليهم وقد اغتسل فقال : ان أبا مسلم كلمنى بكلام أغضبنى ، وانى سمعت رسول الله يقول : « الغضب من الشيطان ، والشيطان خلق من النار ، وانما تطفأ النار بالماء فاذا غضب أحد فليغتسل » ، وانى دخلت فاغتسلت ٠ وصدق أبو مسلم انه ليس من كدى ، ولا من كد أبى ، فهلموا الى عطائكم) (١٣)

فهل يأتى مثل هذا التصرف الا ممن ملأ الاسلام قلبه ؟

وهاهو عبد الرحمن الثالث الأموى (٣٠٠ — ٣٥٠ هـ) عالم الملوك وحامى الآداب والعلوم والفنون والتجارة ورب السيف والقلم الذى أصبحت أسبانيا بأعماله وأعمال أخلافه أحسن الممالك حضارة وحسن ادارة فى القرون الوسطى ٠

كنت ترى فى رعيته ، بل فى عماله ، من يقرعه لأنى بنى قصر الزهراء واستفرغ جهده فى زخرفته ، يقوم قاضى الجماعة بقرطبه منذر بن سعيد البلوطى ويعظه على المنبر مبتدئا خطبته بقوله تعالى « أتبنون بكل ريع آية تعبثون ، وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون ٠٠ » ويأتى بما شاكل ذلك من التخويف والوعظ فيبكى الناس والخليفة ،

---

(١٣) الاسلام بين العلماء والحكام للاستاذ عبد العزيز البدرى نقلا عن الاحياء للامام الغزالى ج ٥ .

ويشكو هذا الى ولده الحكم تقريع منذر بن سعيد له مقسما أن لايصلى خلفـه الجمعـة أبدا • فيقول له الحكم « وما الذى يمنعك عن عزل منذر بن سـعيد والاستبدال به ؟ فيزجره وينتهره ويقول : أمثل منذر ابن سعيد فى فضله وورعه وعلمه وحلمه يعزل ارضـاء لنفس ناكبة عن الرشد ؟ هذا مالا يكون ، وانى لأستحى من الله تعالى ألا أجعل بينى وبينـه شفيعا فى صـلاة الجمعة مثل منذر بن سعيد ، ولـكنه قـد وقذ نفسى [١٤] وكاد يذهبهـا ، والله لوددت أن أجد سبيلا الى كفارة يمينى بملـكى ، بلى يصلى بالنـاس حياته وحياتنا فما أظننـا نعتاض منـه أبـدا » •

والأمويون عموما كانوا كما يقرر المؤرخون أصحاب ثقافة عربيـة راقية ، فيهم المرونة السياسية والادارية ، تمرنوا على قيادة الجيوش وحكم النـاس منذ عهد الرسول ﷺ ، وكان أكثر عمـاله منهم ، ولم يكن فى عماله ولا فى عمال أبى بكر وعمر أحد من بنى هاشم •

امتد ملك الاسـلام فى عهدهم من سـواحل الأطلنطى الى بلاد الصين ، ومن جبـال القوقاز وما وراءها الى خط الاستواء وما وراءه ، ودخلت فى الاسلام فى عهدهم أمم كثيرة من السلالة السامية : العرب والسريان والـكلدان ، ومن السـلالة الحامية : المصريون والنوبيون والبربر والسودان ، ومن السلالة الآرية : الفرس واليونان والأسبان والاهاند ، ومن السلالة التورانية : الترك والتتار •

وأمست تتلى آى القرآن فى سمرقند كما تتلى فى قرطبة) [١٥] •

المهـــدى :

قال الامام سفيان الثورى : لمـا حج المهدى — قال لابد لى من سفيان ، فوضعوا لى الرصـد حول البيت فأخذونى بالليل ، فلما مثلت

---

(١٤) وقذه أى ضربه حتى اشرف على الموت .

(١٥) الاسلام والحضارة العربية لمحمد كرد على ج ١ ص ٤١٣ .

بين يديه أدنانى ، ثم قال : لأى شىء لا تأتينـا فنستشيرك فى أمرنا، فما أمرتنـا من شىء صرنا اليه ، وما نهيتنـا عن شىء انتهينا عنه ؟ فقلت له : كم أنفقت فى سفرك هـذا ؟ قال : لا أدرك — لى أمنـاء ووكلاء .

قلت : فما عذرك غدا اذا وقفت بين يدى الله تعـالى فسألك عن ذلك ؟ لـكن عمر بن الخطاب رضى الله عنه لمـا حج قال لغـلامه : كم أنفقت فى سفرنا هـذا ؟ قال : يا أمير المؤمنين ثمانيـة عشر دينارا ، فقال : ويحك أجحفنا بيت مال المسلمين .

وقـد علمت ماحدثنـا به منصور بن عمار وأنت حاضر ذلك وأول كاتب كتبه فى المجلس ، عن ابراهيم عن الأسود بن علقمـة عن ابن مسعود أن رسول الله ﷺ قال : رب متخوض فى مال الله ومال رسول الله فيما شاءت نفسه ، له النار غدا ؟.

فقال أبو عبيد الـكاتب أحد متزلفى الحاشية :

أمير المؤمنين يستقبل بمثل هذا ؟

فأجابه سـفيان : اسـكت ، انما أهلك فرعون هامان ، وهامان فرعون) (١٦) .

غازان التترى :

وردت الأنبـاء فى أواخـر عام ٦٩٨ هـ بزحف غازان التترى — رابع ملك مسلم من التتـار — وجيشه من ايران نحو حلب ، وفى وادى سلمية عام ٦٩٩ هـ التقى جمع غازان بجمع الناصر بن قلاوون وبعد معركة حاميـة هزم جمع الناصر ، وولى الجند وأمراؤهم الأدبار،

---

(١٦) الاسلام بين العلماء والحكام للاستاذ عبد العزيز البدرى نقلا عن مسند الامام أحمد تحقيق الأستاذ أحمد محمد شاكر الجزء الأول .

ونزح أعيـان دمشق الى مصر يتبعون سير الناصر ، حتى خلت دمشق من حاكم أو أمير أو أعيـان البـلاد ، ولـكن شيخ الاسلام — أحمد ابن تيمية رحمه الله تعالى — بقى صـامدا مع عامة النـاس ، فاجتمع شيخ الاسـلام مع من بقى من أعيان البـلاد ، واتفق معهم على تولى الأمور ، وأن يذهب هو على رأس وفـد من الشام لمقابلة غازان فقابله فى بلدة النبك ، ودارت بينهما مناقشة عنيفـة سمعها الشيخ الصالح أبو عبد الله محمد بن عمر البالسى الذى كان من أعضاء الوفـد ، قال البالسى : (ان الشيخ ابن تيميه قال لغازان ، وترجمانه يترجم كلام الشيخ : أنت تزعم أنك مسلم ومعك قاض ، وامام وشيخ ومؤذنون ، على مابلغنـا ، فغزوتنـا وبلغت بلادنا على ماذا ؟ وأبوك وجدك كانا كافرين وما غزوا بلاد الاسـلام بعد أن عاهـدونا ، وأنت عاهـدت فغدرت ، وقلت فما وفيت .

وجرت لابن تيمية مع غازان أمور قام بها ابن تيميه كلها ، وقال الحق ولم يخش الا الله عز وجل .

ثم قرب غازان الى الوفـد طعـاما فأكلوا الا ابن تيميه ، فقيل له : ألا تأكل ؟ فقـال : كيف آكل من طعـامكم ، وكله مما نهبتم من أغنام الناس ؟ ، وغازان مصغ لمـا يقوله ، شاخص اليه لايعرض عنه، وسأل غازان : من هـذا الشيخ ؟ فأخبر بحاله وما هو عليه من العلم والعمل ، فطلب منه غازان الدعاء فقال الشيخ : اللهم ان كان عبـدك هذا انما يقـاتل لتكون كلمتك العليـا ، وليكون الـدين كله فانصره وأيده ، وان كان قد قام رياء وسمعة وطلبـا للدنيا ولتكون كلمته هى العليا ، وليذل الاسلام وأهله ، فاخذله ، وزلزله ، واقطع دابره).

وهنـا تخوف الوفد من مصير ابن تيميه ، فانصرف عنه جمـاعة منهم (وتأخر هو فى خاصة نفسه ومعه جمـاعة من أصحابه فتسامعت به الخواتين والأمراء وأصحاب غازان فأتوه يتبركون بدعائه وهو سائر

الى دمشق ، فما وصـــل الى دمشـــق الا فى نحو ثلاثمائة فارس فى ركابه) [١٧] .

الخـــديوى اسماعيل :

روى الشيخ محمد سليمان نائب المحكمة العليا الشرعية بمصر [١٨] : (لـمـا وقعت الحرب بين مصر والحبشة وتوالت الهـزائم على مصر لوقوع الخلاف بين قواد جيوشها ، ضاق صـدر الخديو لذلك ، فركب يوما مع شريف باشا وهو محرج ، فأراد أن يفرج عن نفسه فقـال لشريف باشا : ماذا تصنع حينما تلم بك ملمة تريد أن تدفعها ؟ فقال : يا أفندينا : ان الله عودنى اذا حاق بى شىء من هذا أن ألجأ الى صحيح البخارى يقرؤه علماء أطهار الأنفاس فيفرج الله عنى .

قال : فـكلم شـيخ الأزهـر ، وكان الشيخ العروسى فجمع له العلماء جمعا أخذوا يتلون من البخارى أمام القبلة القديمة فى الأزهر ، ومع ذلك ظلت أخبـار الهزائم تتوالى ، فذهب الخديوى ومعـه شريف باشا الى العلماء ، وقال لهم محنقا ، اما أن هـذا الذى تقرءونه ليس صحيح البخارى ، أو أنـكم لستم العلمـاء الذين نعهـدهم من رجال السلف الصالح . فان الله لم يدفع بكم ولا بتلاوتكم شيئا .

فوجم العلماء لذلك ، وابتدره شـيخ من آخر الصف يقول له : « منك يا اسماعيل ، فاننــا روينــا عن النبى ﷺ أنه قال : لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليسلطن الله عليكم شراركم فيدعو خياركم فلا يستجاب لهم » [١٩] .

---

(١٧) الاسلام بين العلماء والحكام لعبد العزيز البدرى ص ٧٨ ، ٧٩ نقلا عن البـداية والنهاية لابن كثير ج ١٤ ص ١ ، ص ٧١٨ ومختصر منهاج السنة للذهبى .

(١٨) أنظر كتابه من أخلاق العلماء طبعة الأزهر ص ٩٧ وما بعدها .

(١٩) حديث حسن . رواه البزار والطبرانى فى الأوسط من الجـامع الصغير .

فزاد وجوم المشايخ ، وانصرف الخديوى ومعه شريف باشا ولم ينبسا بكلمة ٠

وأخـذ العلماء يلومون القائل فبينما هم كذلك اذا بشريف باشا قـد عاد يسأل أين الشيخ القائل للخـديو ماقال ؟ فقال أنا فأخـذه وقام ، وسار شريف باشا بالشيخ الى أن دخلا على الخديو فى قصره، فاذا به قاعـد فى البهو ، وأمامه كرسى فأجلس عليه الشيخ وقال له : أعد يا أستاذ ماقلته لى فى الأزهر ، فأعاد الشيخ كلمته وردد الحديث وشرحه فقال له الخـديو ، وماذا صنعنا حتى ينزل بنـا هذا البلاء ، قال له : يا أفنـدينا ، أليست المحاكم المختلطة قـد فتحت بقـانون يبيح الربا ؟ أليس الزنا برخصـة ؟ أليس الخمر مباحا ؟ أليس ، أليس وعدد له منكرات تجرى بلا انـكار ، وقال : فـكيف تنتظر النصر من السماء) ٠

فماذا قال الخديوى ردا على ذلك ؟

أخذ يعتذر بمثل مايعتذر به العلمانيون اليوم ٠

قال (وماذا نصنع وقد عاشرنا الأجانب ، وهذه مدنيتهم ؟) ٠

قال الشيخ (اذن فماذنب البخارى وما حيلة العلماء) ٠

ونحن نقول للعلمانيين اليوم :

فما ذنب الشريعة الاسلامية ، وما حيلة الفقهاء ؟؟؟

يقول الأستاذ محمد كرد على بعد أن يسوق أمثلة أخرى :

(هكذا كان المسلمون فى العـالم حكاما ومحكومين : السلطـان يعمل ، والواعظ يعظ ، والناس آمنون ، والحرية مشاعة شاملة ٠

وبهـذه الحرية التى تمتع بهـا العرب فى دولهم قبل أن تعرف معناها أمة من الأمم قبلهم نشأ رجال فى السياسة والحرب والادارة

والعلم والفن ، كانوا غرة فى جبين الدهر ، ولو جئنا نعــدهم ونشير الى مارزقوا من ثقوب أذهان ووفرة علم ، وسمو أخلاق ولطف حيلة لاقتضى الخروج عن حد الايجاز) (٢٠) •

ثم أنظر الى ماقدمه الاسلام على يد هؤلاء الحكام مقارنا بما كان عليه الحال فى أوربا • يقول الأستاذ محمد كرد على :

(لمـا جاء الصليبيون الى « المعـرة » قتـلوا على رواية ميشو فى كتابه « تاريخ الحروب الصليبية » جميع من كان فيها من المسلمين اللاجئين الى الجوامع المختبئين فى السراديب وأهلكوا صبرا مايزيد على مائة ألف انسان فى أكثر الروايات ••

قال ميشو : تعصب الصـليبيون فى القـــدس أنواع التعصب الأعمى الذى لم يسبق له نظير ، حتى شــكا من ذلك المنصــفون من مؤرخيهم ، فــكانوا يكرهون العرب على القاء أنفسهم من أعالى البروج والبيوت ، ويجعلونهم طعــاما للنار ، ويخرجونهم من الأقبية وأعماق الأرض ويجرونهم فى الساحات ، ويقتلونهم فوق جثث الآدميين ، ودام الذبح فى المسلمين أسبوعا حتى قتلوا منهم على ماتفق على روايتــه مؤرخو الشرق والغرب سبعين ألف نسمة••ولم ينج اليهود ــكالعربــ من الذبح ، فوضع الصليبيون النــار فى المــذبح الذى لجأوا اليــه وأهلــكوهم كلهم بالنار) (٢١) •

فما هى الصورة المقابلة لهذه الهمجية ؟ ما الذى كانت تمليه الروح الاسلامية على المعسكر الاسلامى فى الجهة المقابلة ؟

(كان فى القــدس لمــا استرجعها صــلاح الدين (٥٨٣ ﻫ) من الصليبيين مائة ألف صليبى ، منهم ستون ألف راجل وفارس ، سوى

(٢٠) الاسلام والحضارة العربيــة ص ٢٠٤ •
(٢١) الاسلام والحضارة العربية لمحمد كرد على ج ١ ص ٢٩٦ •

من تبعهم من النساء والأطفال ، فأبقى صـــلاح الدين على حياتهم ، واستوصى بهم خيرا ••• واكتفى بأن ضرب على كل رجل منهم عشرة دنانير وعلى كل امرأة خمســـة ، وعلى كل طفل دينـــارين ••• ورخص للبطريرك الأكبر أن يسير آمنا بأموال البيع وذخائر الجوامع مع التى كان غنمها الصليبيون فى فتوحهم ••

ذاك ما عاملت به السياسة الاسلامية غزاة الصليبيين يوم ضعفهم وقوة المسلمين) [٢٢] •

ويحذر خصوم الاسلام من الحكم الاســـلامى بدعوى أنه يعنى نظاما قائما على الحق الالهى الذى استعملته البابوية :

وهؤلاء اما أنهم جهلة بالنظام الاسلامى يرتشفون معلوماتهم من ثدى المبشرين والمستشرقين ، واما أنهم مضللون •

فالنظام الاسلامى لايعرف مايسمى فى النظام البـــابوى : رجال الدين ، أو السلطة الدينية [٢٣] ، فالحاكم فى الاسلام محكوم بالنص الشرعى وليس حكما له ، وهو يرد أو يعـــزل اذا أصـــدر أمرا فيـــه مخالفة للنص ، وفقا لقوله ﷺ (لاطاعة لمخلوق فىمعصية الخالق)[٢٤] وأبو بكر رضى الله عنه يقول فى خطبتـــه بعد البيعـــة له « أطيعونى ما أطعت الله ورسوله فان عصيت الله ورسوله فلا طاعة لى عليكم » • وعمر رضى الله عنه يقول فى خطبـــة له « أيها الناس من رأى منكم فى اعوجاجا فقومونى ••• » •

---

(٢٢) الاسلام والحضارة العربية جـ ١ ص ٢٩٧ ، ٢٩٨ •

(٢٣) وهذه من المصطلحات المغرضـــة التى سلـــكها خصوم الاسلام واخذوا يروجون لها فى الثقافة الاسلامية •

(٢٤) طبعا مع الأخـــذ فى الاعتبـــار لأمور اخرى تتعلق بأمن المجتمع والخوف من الفتنة ، مما ورد فى الشريعة الاسلامية ايضا •

وتفسير النص ليس من اختصاص الحاكم باعتباره حاكما ، وانما هو من اختصاص من تتوفر لهم شروط الاجتهاد ، وهى شروط موضوعية لا صلة لها بالأشخاص أو المناصب ، وتولية الحاكم تكون ببيعة المسلمين له ، وممارسته للسلطة تكون على أساس الشورى ، فأين هذا من دعاوى خصوم الاسلام فى الحكومة الثيوقراطية ؟

* * *

ونحن اذا كنا قدمنا فيما سبق حقيقة التزام الحكام — اجمالا — بالنظام الاسلامى من خلال نماذج مما كان يدور بين الحكام والعلماء ، فذلك لادراكنا لحقيقة يجب ألا تغيب عن بال أولئك الذين يتناولون النظم الاسلامية بالبحث والتحليل — ولكنها للأسف الشديد تغيب عن بالهم فى معظم الأحوال — تلك الحقيقة هى أن « العلماء » كانوا يمثلون بالنسبة لتلك العصور مؤسسة قائمة بذاتها ، تتغلغل بنفوذها فى المجتمع ، وتقوم فيه بدور المؤسسة البرلمانية الحديثة من التشريع والرقابة على السلطة التنفيذية ، ولا تستقيم نظرتنا الى التاريخ الاسلامى بغير ادراكنا لهذه الحقيقة ، كما أنه بغير هذا الادراك لن تستقيم محاولاتنا لانشاء مؤسسة تقوم بدور « البرلمان » ؟! فى الحاضر أو المستقبل !!

* * *

ويقارن الأستاذ محمد كرد على بين الانجاز الحضارى الذى قدمه الاسلام وبين ماكانت عليه أوربا فى ذلك الحين : فيقول :

(فى القرون التى كانت فيها العرب تنعم بلذائذ العقل والعمل والمال وتأخذ من مسرات الحياة الفاضلة بأوفر نصيب ويهاب سطوتها البدو والحضر وتؤلف أمة متحضرة وحكومات ناهضة كان الغربيون متوحشين جاهلين لايعرفون الترف ولا يتذوقون عيش

الرفاهية ، لا أمن ، ولا ادارة ، ولا ملوك يعــرفون واجبهم فى اقامة العدل وتوطيد الأمن) •

ويقول (كانت انجلترا الانجلوسكسونية فىالقرن السابع الميلادى الى مابعد العاشر فقيرة فى أرضها ، منقطعــة الصلات بغيرها ، سمجة وحشية ، تبنى البيوت بحجر غير نحيت ، وتشيدها من تراب مدقوق ، وتجعلها فى وطأ من الأرض : مساكن ضيقةالمنافذ ، غير محكمة الاغلاق، واصطبلات وحظائر لا نوافذ لها ، تقرض الأمراض والأوبئــة المتكررة المواشى والسائمة ولم يكن الناس أحسن مسكنا وأمنا من الحيوانات •

يعيش رئيس القبيل فى كوخه مع أسرته وخدمه ومن اتصل به ، يجتمعون فى قاعة كبرى فى وسطها كانون ينبعث دخانه من ثقب فتح من السقف فتحة غليظة ، ويأكلون كلهم على خوان واحد •

يجلس السيد وقرينتــه فى أحد أطراف المائدة وينتقل السيد الى غرفتــه فى المساء بعد أن يتناولوا الطعام ويعربدوا على الشراب ، لم ترفع المنضــدة والصقالات ، وينــام جميع المجتمعين فى تلك القــاعة على الأرض أو على دكات ، واضــعا كل فرد سلاحه فوق رأسه ، لأن اللصوص كانوا من الجــرأة بحيث يقضى على النــاس أن يقفوا لهم بالمرصاد كل حين ، لئلا يؤخذوا على غرة •

وكانت أوربا فى ذلك العهد غاصة بالغــابات الــكثيفة ، متأخرة فى زراعتها ، تنبعث من المستنقعات الــكثيرة فى أرباض المــدن روائح قتالة ، تجتاح النــاس وتحصدهم ، وكانت البيوت فى باريز ولنــدرا تبنى من الخشب والطين المعجون بالقش والقصــب ، وكانت البســط مجهولة عندهم ، لابساط لهم غير القش ينشرونه على الأرض ، ولم يكونوا يعرفون النظافة ، ويلقون بأحشاء الحيوانات وأقــذار المطابخ أمام بيوتهم •

وكانت الأسرة الواحدة تنـام فى حجرة واحـدة ، تضم الرجال والنساء والأطفال ، وكثيرا ماكانوا يؤوون معهم الحيوانات الداجنة ، وكان السرير عندهم عبارة عن كيس من القش ، فوقه كيس من الصوف، يجعل مخدة أو وسادة ، ولم يكن للشوارع مجار ولا بلاط ولا مصابيح.

قال درابر : وكان من أثر ذلك أن عمت الجهالة أوربا ، وساورتها الأوهام ، فانحصر التداوى فى زيارة الأماكن المقدسة ، ومات الطب ، وحييت أحابيل الدجالين ، وكلما دهم البلاد وباء فزع رجال الدين الى الصـلاة وأغفلوا أمر النظافة ، فكانت الأوبئة تفتك بهم فتكا ذريعا ، وكانت تزور أوربا مرارا فتجتاح الملايين فى أيام قليلة) (٢٥) .

ثم يقول :

(كان العالم القـديم يقتسمه فى القرن الحادى عشر مدنيتان : فى الغرب مدن حقيرة صـغيرة ، وأكواخ فلاحين ، وقلاع لا هنـدسة لها ، وممالك مضطربة على الدوام بالحرب ، لا يتأتى أن يسـير فيهـا السائر عشرة فراسخ دون أن يسلب وينهب .

وفى الشرق مدن القسطنطينية والقاهرة ودمشق وبغـداد وجميع مدن ألف ليلة وليلة بما فيها من قصـور المرمر ، وما حوت من المعامل والمـدارس والأسواق والحدائق الممتدة على بضـعة فراسخ ، وبرية تروى أحسن ارواء ، غاصـة بالقرى والضياع ، وحركة التجار لاتنقطع يذهبون آمنين من أسبانيا الى فارس .

قال سنيوبوس : كان النصـارى — فى الغـرب — يشـعرون بنقصهم فى التهـذيب ، ويعجبـون باهتين بما يبـدو لهم من غرائب الشرق ومن يحب أن يتعلم يقصـد الى مدارس العرب ، وبدأ العالمان

---

(٢٥) الاسلام والحضارة العربية للاستاذ محمد كرد على ج ١ ص ١٩٥ وما بعدها نقلا عن « التاريخ العام » د. لافيس ورامبو .

الشرقى والغربى فى القرن الحادى عشر يتعارفان ، ودخل النصارى المتوحشـون الى حمى المسلمين المدنيين من طـريقين : الحـرب والتجـارة) [٢٦] .

ولقد دهش الصليبيون فى القرن الخامس من الهجرة اذ وقعت أعينهم على مدن حافلة منظمـة فى بيزنطة والشـام وغيرها من بلاد الاسلام ، اذ ما كان لهم عهد بغير قرى حقيرة ، ودساكر لا شأن لهـا فى بلادهم) [٢٧] .

واذا كانت المقارنة السابقة تبين ما قدمه النظام الاسلامى فى التطبيق فى مجال الحكم والأمن ، والرفاهية ومستوى المعيشة .

فان الانجاز الحضـارى للاسلام يتبين كذلك بالنظر الى الحـالة العلمية التى دفع اليها أتباعه :

(اذ أقبل العرب على اقتنـاء الـكتب اقبالا منقطع النظير يشبه الى حد كبير شغف الناس فى عصرنا هذا باقتناء السيارات والثلاجات وأجهزة التليفزيون بعد الدمار الذى أصابهم ابان الحرب العالمية ... فأصبحت الـكتب هى مطلب من يستطيع تحمل نفقات الحصول عليها ، وأقبل النـاس فى البلدان العربية على اقتنائها بلهفة متزايدة لم يعرف التاريخ من قبل لها مثيلاً .

وكما يقاس ثراء الناس اليوم بمدى مايملكون من عربات فاخرة مثلا قـدر الناس فى ذلك العصر الممتد من القرن التاسع حتى القرن الثالث عشر الثراء بمدى مايقتنى من كتب أو مخطوطات .

ولم يكن الخليفة ليهدى الجماهير هـدية تتفق مع مزاجهم أجمل من انشائه مكتبة ضخمة فى بغداد عرفت بدار الحكمة .

---

(٢٦) المصدر السابق ص ١٩٦ نقلا عن التاريخ العام لمـكسيم بتى .
(٢٧) المصدر السابق ص ١٩٧ نقلا عن لافيس ورامبو .

ونمت دور الـكتب فى كل مكان نمو العشب فى الأرض الطيبة • ففى عام ٨٩١ م يحصى مسافر عدد دور الـكتب فى بغداد بأكثر من مائة • وبدأت كل مدينة تبنى لها دارا للـكتب يستطيع عمرو أو زيد من النـاس استعارة مايشاء منها ، وأن يجلس فى قاعات المطالعة ليقرأ مايريد ، كما يجتمع فيها المترجمون والمؤلفون فى قاعات خصصت لهم، يتجادلون ويتناقشون كما يحدث اليوم فى أرقى الأندية العلمية •

فمكتبة صغيرة كمكتبة النجف فى العراق كانت تحوى فى القرن العاشر أربعين ألف مجلد ، بينما لم تحو أديرة الغرب سوى اثنى عشر كتابا ربطت بالسلاسل خفية ضياعها • ويحتاج تصنيف الكتب الموجودة فى مدينة الرى الى عشرة فهارس كبيرة • وكان لـكل مسجد مكتبتـه الخاصة ، بل انه كان لـكل مستشفى يستقبل زواره ، قاعـة فسيحة صفت على رفوفها الـكتب الطبية الحديثة الصدور ، تباع لتكون مادة لدراسة الطلاب ، ومرجعا للأطباء ، يقفون منه على آخر ماوصل اليـه العلم ، ولقد جمع نصير الدين الطوسى لمرصـده فى مراغه أربعمائة ألف مخطوط •

وحذا حذو الخليفة فى بغداد كل الأمراء العرب فى مختلف أنحاء العـالم العربى ، فأربت مثلا مكتبة أمير عربى فى الجنوب على مائة ألف مجلد •

ولا يستطيع أحد أن يقارن نفسه بالخليفـة العزيز فى القاهرة، حتى خليفـة قرطبـة الذى بعث رجاله وسماسرته فى كل أنحاء الشرق ليجلبوا له الـكتب •• لقد حوت مكتبة العزيز مليونا وسـتمائة ألف مجلد ، ولم يمنع هـذا ابنـه من بعده من أن يبنى مكتبة ضخمة فيها ثمانى عشرة قاعة للمطالعة الى جوار المـكتبة القديمة •

وكذلك فعل الوزراء ورجال الدولة ، فقد ترك الوزير المهلبى مثلا عند وفاته عام ٩٦٣ مجموعة من مائة وسبع عشر ألف مجلد ، واستطاع

زميله الشاب ابن عباد أن يجمع فى مكتبته مائتى ألف وستة آلاف كتاب ، وجمع أحد قضاته مليونا وخمسين ألف مجلد .

وتلك كتب لم تكن مطبوعة على آلة بل نسخت باليد وبذل فيها كاتبوها مجهودا مضنيا .

ولم يكن عشق الكتب وقفا على حفنة من العلماء فقط ، بل كان هواية العرب على اختلاف طبقاتهم ، فكل متعلم من أكبر كبراء الدولة الى بائع الفحم ، ومن قاضى المدينة الى مؤذن المسجد هو زبون عند بائع الكتب .

ان متوسط ماكانت تحتويه مكتبة خاصة لعربى فى القرن العاشر كان أكثر مما كانت تحويه كل مكتبات الغرب مجتمعة) [٢٨] .

وتستطرد المستشرقة الالمانية صاحبة كتاب « شمس العرب تسطع على الغرب » فى بيان ما قدمه الاسلام فى مجال التعليم مقارنا بما كانت عليه أوربا :

« لو أردنا دليلا آخر على مدى الهوة العميقة التى كانت تفصل الشرق عن الغرب لكفانا أن نعرف أن نسبة ٩٥٪ على الاقل من سكان الغرب فى القرون : التاسع والعاشر والحادى عشر والثانى عشر كانوا لا يستطيعون القراءة والكتابة .

وبينما كان شارل الاكبر يجهد نفسه فى شيخوخته لتعلم القراءة والكتابة .. وبينما كان أمراء الغرب يعترفون بعجزهم عن الكتابة والقراءة .. وفى الأديرة يندر بين الكهنة من يستطيع الامساك بالقلم الى درجة انه فى عام ١٢٩١ م لم يكن فى دير القديس جايلنوس من الكهنة والرهبان من يستطيع حل الخط ، بينما كان هذا كله يحدث فى

---

(٢٨) شمس العرب ص ٣٨٨ .

الغرب ، كانت آلاف مؤلفة من المدارس فى القرى والمدن — فى العالم الاسلامى — تستقبل ملايين البنين والبنات •• وكان الدافع الى هـذا رغبتهم الصادقة فى أن يكونوا مسلمين حقا كما يجب أن يكون المسلم ••

وهنا تتسع الهوة بين الشرق والغرب أيضا ، فالكتاب المقـدس لا يستطيع أحد اليه سبيلا ما عدا الكهنة ، والمواعظ التى تلقى — باللاتينية — لم يكن الشعب يفهمها ، على خـلاف ذلك كانت الحال فى العـالم الاسلامى ، اذ جعلت الدولة من التعليم واجبا ترعاه — فالاطفال من مختلف الطبقات يتعلمون التعليم الأولى ، وأمكن للفقراء أن يعلموا أولادهم مجانا ، ولم يكن التعليم مقتصرا عى مراحله الأولى ، وانما انشىء التعليم العالى لكل طبقات الشعب ، مجانيا ، وكان الطلبة يتناولون طعامهم مجانا ، ويتقاضـون مرتبا صـغيرا ، ويسكنون فى الأدوار العليا فى المدرسة دون مقـابل » [٢٩]) •

وكانت الامانة العلمية تقتضى انه اذا كان لأحد العلماء (أن يحاضر عن كتاب لغيره فان عليه أن يحصل أولا على اجازة من مؤلف هذا الكتاب ، ولم يكن لأحد أن يأخذ آراء استاذه التى ألقاها شفويا فى احـدى محاضراته ليدرسها لتلاميذه دون أن يسـتأذن استاذه صاحب الرأى أولا •• وبذلك كان حفظ حق المؤلف مرعيا مقدسا ، ورثته الجـامعات الغربية عن المدارس العربية العليا)[٣٠] •

هذه نماذج مقتطفة واشارات موجزة لمـا قدمه النظام الاسـلامى لاتباعه فى مستوى المعيشة ، والحكم والأمن والتعليم ، على السواء • وهى مطالب الحضارة تبعا للمقاييس الانسانية التى تقاس بها الحضارات فى مختلف العصور •

---

(٢٩) شمس العرب ص ٣٩٣ الى ٣٩٧ •

(٣٠) شمس العرب ص ٣٩٨ •

واذا كان يحلو للعلمانى أن يستبعد هذه النماذج بدعوى أنها خاضعة للانتقاء ، وانها لا تعبر عن تاريخ الاسلام فى جميع حالاته ، فهو خبير — بدراسته المزعومة للمنطق ، بأن قضيته وهى سالبة كلية تقول : لم ينجح الاسلام فى التطبيق فى جميع الحالات تكذب بموجبه جزئية ، تقول : نجح الاسلام فى التطبيق فى حالات . فضلا عن أن هذه الحالات « الجزئية » هى الأغلب ، وهى الصادرة عن الروح العام ، والثقافة العامة .

يقول الاستاذ الدكتور على عبد الواحد وافى :

« لم يكن الأمر مقصورا على وضع قواعد وتقرير مبادىء — بل ان التاريخ لينبئنا أن هذه القواعد والمبادىء كانت منفذة أدق تنفيذ فى عهد الرسول عليه السلام والخلفاء الراشدين من بعده أى فى أثناء المرحلة الذهبية للاسلام التى تمثل مبادئه أصدق تمثيل .

فقد نقل الينا التاريخ مئات من الحوادث القاطعة فى الدلالة على تقديس أولياء الامور فى هذا العهد لمبادىء المساواة أمام القانون ، وفى الحقوق العامة ، وشئون المسئولية والجزاء .

بل نقل الينا كثير من هذه الحادث فى العهدين الاموى والعباسى » [٣١]) .

ويرد روجيه جارودى على القائلين بفشل النظام الاسلامى ، فيقول:

« هناك من يسألنى بسخرية بلهاء : أين هو هذا الاسلام الذى تجعلونه مثاليا على الخريطة ؟ أى فى الواقع — وأنا أجيبه دون خوف : تجرأوا وضعوا أصبعكم على خارطة العالم لتبينوا لى أين هو المجتمع المسيحى ؟ أو المجتمع الاشتراكى ؟ »[٣٢] .

---

(٣١) المساواة فى الاسلام للدكتور على عبد الواحد وافى طبعة دار المعارف عام ١٩٦٢ م ص ٧١ .

(٣٢) الاسلام دين المستقبل ص ٧٠ .

وأضيف أنا أيضا الى تساؤله قائلا : والمجتمع العلمانى ؟ [٣٣] •

وأخيرا فاننا نتساءل :

لماذا ينكر الجاحدون مجد الاسلام وقوة نظامه ؟

يتبرع الامير شكيب أرسلان بالرد على هذا السؤال فيقول :

« هذا الميل فى النفس الى انكار الانسان لماضيه واعتــرافه بأن آباءه كانوا سافلين وانه هو يريد أن يبرأ منهم ••

لايصدر الا عن الفسل الخسيس الوضيع النفس أو عن الذى يشعر انه فى وسط قومه دنىء الاصل فيسعى هو فى انكار أصل أمته بأسرها لأنه يعلم نفسه منها بمكان خسيس ليس له نصيب من تلك الاصالة ، وهو مخالف لسنن الكون الطبيعية التى جعلت فى كل أمة ميلا طبيعيا للاحتفاظ بمقوماتها وشخصياتها من لغة وعقيدة وعادة وطعام وشراب وغير ذلك الا ما ثبت ضرره »[٣٤] •

ومهما يكن من أمر فان أحدا لا ينكر أن النظام الاسلامى لم يصل قط الى مرتبة التطبيق الكامل •

على أن ذلك لا يحسب على الاسلام ضد صلاحيته ، ولكنه يحسب له باعتباره هدفا خالدا لهذا التطبيق •

ان سرا عظيما من أسرار بقاء الاسلام وصلاحيته لكل زمان ومكان يكمن فى أنه يستعصى على التطبيق « الكامل » ليظل مثلا أعلى تسعى البشرية الى الاقتراب منه ، وتجاهد فى الوصول اليه ، وتختلف درجتها فى ذلك باختلاف الحضارات وتقلبها بين عوامل النمو أو الشباب ، وعوامل الانحلال أو الشيخوخة •

---

(٣٣) انظر ماذكرناه سابقا عن تغلغل المسيحية فى الثقافة الأوربية .
(٣٤) لماذا تأخر المسلمون وتقدم غيرهم ص ٨٩ .

انه يظل مثلا أعلى يتأيد على الدوام بما يقدمه للانسانية من انجاز فى ناحية ، وبما تتطلع اليه من طموح فى ناحية أخرى •

يرى المستشرق المسلم ليبولدفايس « محمد أسد » أن الجنس البشرى فى جميع أموره العقلية والثقافية والاجتماعية والاقتصادية لم يحقق ما يصبو اليه وهذا فى حد ذاته دليل على بقاء الاسلام واستمراره•

يقول : « فى جميع هذه الأمور نرى الجنس البشرى فى كل ما وصل اليه مقصرا كثيرا عما تضمنه المنهاج الاسلامى ، فأين ما يبرر القول اذن بأن الاسلام قد ذهبت أيامه ؟

أذلك لأن أسسه دينية خالصة والاتجاه الدينى زى غير شائع اليوم ؟ ولكن اذا رأينا أن نظاما بنى على الدين قد استطاع أن يقدم منهاجا عمليا للحياة[٣٥] أتم وأمتن وأصلح للمزاج النفسانى فى الانسان من كل شىء آخر يمكن للعقل البشرى أن يأتى به من طريق الاصلاح والاقتراح ، أفلا يكون هذا نفسه حجة بالغة فى ميزان الاستشراف الدينى ؟

لقد تأيد الاسلام بما وصل اليه الانسان من أنواع الانتاج الانسانى ، لأن الاسلام كشف عنها وأشار اليها على أنها مستحبة قبل أن يصل اليها الناس بزمن طويل •

ولقد تأيد أيضا بما وقع أثناء التطور الانسانى من قصور وأخطاء وعثرات لأنه كان قد رفع الصوت عاليا واضحا بالتحذير منها قبل أن تتحقق البشرية أن هذه أخطاء »[٣٦] •

---

(٣٥) كون نظام ما عمليا لايحتاج الى سند من التطبيق الكامل ولكن يكفى فيه « التطبيق المتقارب » وبخاصة اذا نظرنا اليه من زاوية كونه نظاما خالدا •

(٣٦) الاسلام فى مفترق الطرق ترجمة عمر فروخ طبعة ١٩٧٧ بيروت ص ١١٣ •

ثالثا — ماذا قدم الاسلام للحضارة الأوربية ؟ :

وقبل أن نجيب على هذا السؤال ينبغى أن نلقى نظرة على الحالة الفكرية التى كانت عليها أوربا •

تقول المستشرقة الالمانية زيغريد هونكة :

« لم يضمحل شأن الدراسات الاغريقية فى بلاد الغال وبريطانيا الا نتيجة لمجهودات مبعوثى روما فى القضاء على حضارة الكفار غير المسيحيين حتى أنها قضت على ما كانت هى نفسها قد اقتبسته عنهم • وأعلن الأب ايرونيموس أن الفكر الاغريقى لعنة على البشرية ، فأصبح استخدام العقل للبحث فى الطبيعة وعجائبها بدلا من الاهتمام بتعاليم الديانة الجديدة وأبحاثها ينظر اليه على أنه اساءة لاستخدام القوى التى منحنا الله اياها • ويدعم الأب لاكتانيوس هذا الرأى قائلا : « لو كان هناك احتمال للوصول الى الحقيقة عن طريق البحث والدراسة لكنا قد توصلنا اليها من زمن بعيد • وبما انه لم يتوصل اليها برغم ما ضاع فى سبيل ذلك من وقت وجهد ، فمن الواضح الجلى اذن أن الحكمة والحقيقة لا وجود لهما •• وكان أكبر دليل على هذا التفكير أعمدة الدخان واللهب التى اندلعت فوق مكتبة الاسكندرية •• ففى عام ٣٨١ م استصدر البطريرك تيوفيلوس من القيصر تيودوسيوس اذنا بتخريب السرابيون أكبر ما تبقى من الاكاديميات وآخرها ، واشعال النيران فى مكتبته الثمينة ، •• وهكذا اختنقت مراكز الحضارة الاغريقية واحدا اثر واحد ، وأقفلت آخر مدرسة للفلسفة فى أثينا عام ٥٢٩ م ، وأحرقت فى روما عام ٦٠٠ م مكتبة البلاتين •• وعندما دخل العرب الاسكندرية عام ٦٤٢م لم يكن هناك منذ زمن طويل مكتبات عامرة »[٣٧]•

---

(٣٧) شمس العرب ص ٣٦٢ ، ٣٦٣ •

لقد كانت كلمة بولس الرسول قائمة هناك اذ يتساءل مقرا « ألم يصف الرب المعرفة الدنيوية بالغباوة •• ؟ »[٣٨] •

ويظل هذا التفكير العقيم سائدا لا يتغير فيتحدث بمثل هذا فى القرن الثالث عشر القديس توما الاكوينى فيقول « ان المعرفة القليلة لأمور سامية أجل قدرا من معرفة كبيرة موضوعها أمور حقيرة »[٣٩] •

وفى هذا السياق « بدت للسادة المهيمنين على الامور ضرورة تحريم الكتب التى تهتم « بالامور الحقيرة » الدنيوية على المتعلمين ورجال الدين ، ففى عام ١٢٠٦ م نبه مجمع رؤساء الكنيسة المنعقد فى باريس رجال الدين بشدة الى عدم قراءة كتب العلوم الطبيعية واعتبر ذلك خطيئة لا تغتفر وقضى هذا التفكير على كل موهبة وعاق كل بحث علمى »[٤٠] •

هذه هى الضربات العنيفة التى كانت توجهها أوربا للفكر الاغريقى، ما يتصل منه بالفلسفة أو بالعلوم الطبيعية على السواء ، وظلت أوربا على هذا الحال ما يزيد على عشرة قرون الى أن اتصلت بالاسلام •

أما المسلمون فانهم عندما اتصلوا بالتراث الحضارى للامم السابقة فانهم أحاطوا بقلوبهم ، حتى المؤلفات الفنية الدقيقة فى الهندسة والميكانيكا والطب والفلك والفلسفة • وكما تطلب الدولة المنتصرة من الدولة المنهزمة تسليم أسلحتها وسفنها الحربية كشرط أساسى لعقد الصلح هكذا طلب هارون الرشيد بعد احتلاله لعمورية وانقرة تسليم المخطوطات الاغريقية القديمة • وكما يستولى المنتصرون اليوم على المناجم والصناعات الحربية الهامة والاسلحة المدمرة مع مخترعيها نرى

---

(٣٨) شمس العرب ص ٣٦٩ •
(٣٩) شمس العرب ص ٣٧١ •
(٤٠) شمس العرب ص ٣٧٢ •

المأمون بعد انتصاره على ميخائيل الثالث قيصر بيزنطة يطـالب بتسليم أعمال الفلاسفة القدماء التى لم تتم ترجمتها بعد ، ويعتبر ذلك بديلا عن تعريضات الحرب »[٤١] .

تقول زيغريدة هوكنة « ان مابقى من هذه الحضارة ـ الاغريقية ـ يجب أن تشكر البشرية عليه العرب •• ولا يعود لبيزنطة فيه الا فضل قليل » [٤٢] .

يقول المؤرخ « اغناسيو اولاغوية » فى كتابه « العرب لم يستعمروا أسبانيا » :

« أن عصر النهضة لم يرث مباشرة معطيات الحضارة اليونانية بعد مرحلة « مظلمة » سميت أحيانا بالعصر الحديدى •• وليست المسيحية أستمرارا للعبقرية الاغريقية وليس القديس توما الاكوينى خليفة أرسطو وأما غاليلى فليس هو الذى أعاد فى القرن السابع عشر للعلوم حركتها . وتطورها بعد أن توقفت بوفاة « ارخميدس » فى القرن الثالث قبـل الميلاد » .

لقد ولد الغرب المعاصر من « اسبانيا الفونس العاشر » ومن صقلية « فريدريك الثانى » وهما المعجبان بالحضارة الاسلامية المتحمسان لها، تلك الحضارة التى كانت كأنها « قابلة » أو أم مرضع للحضـــارة الغربية »[٤٣] .

وتقول المستشرقة الالمانية زيجريد هونكة :

« لو لم يبعث الشعب العربى الموهوب فى حضـارات البحـر

---

(٤١) شمس العرب ص ٣٧٥ .

(٤٢) شمس العرب ص ٣٧٧ .

(٤٣) مايعد به الاسلام لروجيه جارودى ص ١٤٠ .

المتوسط روحا جديدة لاندثرت تلك الحضارات تماما كما حدث لحضارات المايا والانكا »[٤٤] ٠

ويقول جوستاف ليبون فى كتابه حضارة العرب :

« كان تأثير العرب فى الغرب عظيما ، واليهم يرجع الفضـل فى حضارة أوربا ، ولم يكن نفوذهم فى الغرب أقل مما كان فى الشرق ، ولكنه كان يختلف عنه ٠

أثروا فى المشرق بالدين واللغة والفنون ٠

أما فى الغرب فلم يؤثروا فى الدين ، وكان تأثيرهم فى الفنـون واللغـة ضـعيفا ، وتأثيرهم بتعاليمهم العلمية والأدبية والاخلاقيـة عظيما »[٤٥] ٠ وبهذا يتبين لنا الانجاز الحضارى الذى قدمه النظـام الاسلامى الى الحضارة بوجه عام ، والى الحضارة الاوربية بوجه خاص٠ ذلك انهم انقذوا التراث الانسانى — وبخاصة الاغريقى — من الضياع ٠

واذا كانت الحضارة الاسلامية العربية قد حفظت الثقافة الاغريقية وقدمتها للعالم فانه يجب أن نقرر أن هناك اضافة أكثر أهمية ، ذلك أن الفكر الاغريقى كان يتجه دائما الى التأمل الموهوب فى كينونة الاشياء ، وترك بذلك طريق الخبرة المضنى ، ولم يعر العمل أى اعتبار ، وتطلع مباشرة الى القوانين والأفكار العامة ٠

ومن الطبيعى أن الاغريق لاحظوا وأجروا التجارب ومن الطبيعى كذلك أن ارسطاليس قد بذل جهده فى التعرف على الجزئيـات ، ولكن

---

(٤٤) شمس العرب تسطع على الغرب للمستشرقة الألمانية زيغريد هونكة ص ٣٥٩ ، والمـايا هنود من أمريكا الوسطى بلغوا شأوا عظيما من الحضارة قبل اكتشاف أمريكا ، والانكا شعب من الهنود الحمـر كانت لهم حضارة زاهرة فى أمريكا وقد انقرض هذا الشعب فى القرن الخامس عشر ٠

(٤٥) انظر الاسلام والحضارة العربية لمحمد كرد على ص ٢٠٤—٢٠٥

هذا لم يغير من تركيب الحضارة الاغريقية شيئا ، فالعلوم الاغريقية بقيت كلها فلسفية .

لقد سرت بين العلماء الاغريق رغبة فى ملاحظة الجزئيات ولكنهم تقيدوا دائما بسيطرة الآراء النظرية .. » .

وهنا يبرز الدور الرئيسى للحضارة الاسلامية : ذلك انها — أى هذه الحضارة — « لم تأخذ عن الحضارة الاغريقية أو الهندية الا بقدر ما أخذ طاليس أو فيتاغورث من الحضارتين البابلية والمصرية .

لقد طور العرب بتجاربهم وأبحاثهم العلمية ما أخذوه من مادة خام عن الاغريق ، وشكلوه تشكيلا جديدا ، فالعرب فى الواقع هم الذين ابتدعوا طريقة البحث العلمى الحق القائم على التجربة ، ولم يبدأ البحث العلمى الحق القائم على التجربة الا عند العرب ، فعندهم فقط بدأ البحث الدائب الذى يمكن الاعتماد عليه ، يتدرج من الجزئيات الى الكليات .

وعلى هذا الاساس العلمى سار العرب فى العلوم الطبيعية سيرا أثر فيما بعد على مفكرى الغرب وعلمائه أمثال روجر بيكون ، وليوناردو دافنشى ، وجاليليو .

ان العرب لم ينقذوا الحضارة الاغريقية من الزوال ثم نظموها ورتبوها ثم أهدوها الى الغرب فحسب ، انهم مؤسسو الطرق التجريبية فى الكيمياء والطبيعة والحساب والجبر والجيولوجيا وحساب المثلثات وعلم الاجتماع .

لقد قدم العرب أثمن هدية : وهى طريقة البحث العلمى الصحيح التى مهدت أمام الغرب طريقة لمعرفة أسرار الطبيعة ، وتسلطه عليها اليوم »[٤٦] .

---

(٤٦) شمس العرب ص ٣٣٩ ، ٤٠٢ .

فمن الواضح اذن أن الحضارة الاسلامية لم يقتصر دورها على رعاية تراث الفكر الانسانى السابق عليها وتقديمه للحضارة الاوربية ، ولكنها تعدت ذلك الى وضع المنهج العلمى الذى احتقره الاغريق واحتقرته أوربا فى عصورها المظلمة • أو بعبارة أدق كشفت عن الطريق الواصل بين العلم والتطبيق ، أو النظر أو العمل •

يقول فيليب فرانك فى كتابه « فلسفة العلم » :

« كانت العادات الاجتماعية[٤٧] لا تشجع الاتصال بين نمطى المعرفة • واذا حاول انسان ذو مكانة اجتماعية عالية أن يطبق « الفلسفة » أو « العلم » على احدى المشاكل التقنية فانه كان يواجه بنقد مرير • اما الاختبار العلمى للمبادىء العامة فقد كان يتطلب عملا يدويا ، وكان العمل اليدوى فى نظر اليونانيين القدامى شيئا يلائم العبيد ولا يليق بالرجال الاحرار »[٤٨] •

ويقول :

« يمكننا أن نرى مدى ازدراء الذهن اليونانى للعمل اليدوى عندما نقرأ سيرة رجل الدولة الاثينى العظيم التى كتبها بلوتارك فنحن نعتبر اليوم أن ازدهار الفنون كان الجانب المتألق « للعصر البيريكليسى » لكن بوتارك كتب يقول :

« ان الاعجاب بالشىء لا يقود دائما الى تقليده ، بل على العكس ، فاننا بينما نكون مفتونين بالعمل فاننا غالبا مانزدرى صحبه• ومن ثم

---

(٤٧) يقصد الوضع الاجتماعى الذى كان الفلاسفة والعلماء فيه ينتمون الى طبقة اعلى من الطبقة التى ينتمى اليها « الصناع والحرفيون » ص ٤٩ •

(٤٨) فلسفة العلم ترجمة د• على على ناصف • طبعة بيروت ١٩٨٣ ص ٤٩ •

فاننا بينما نبتهج بالعطور والألوان •• فاننا ننظر الى صـناع العطور والصباغين على أنهم ميكانيكيون دنيئون •• واذا أسلم الانسان نفسه الى الوظائف الذليلة والميكانيكية فان اشتغاله بهذه الأمور يكون دليلا على أنه لم يتنبه الى الدراسات الراقية •

فما من شاب رفيع المولد يتمنى أن يكون فيدياس « النحـات » عندما يرى تمثال جوبيتر فى بيزا •• أو يتمنى أن يكـون اناكريون أو فيليتاس رغم اعجابه بشعرهما ، فبالرغم من أن العمل قد يكون جيدا، فان احترام صاحبه لن يكون نتيجة ضرورية لذلك » •

ثم يقول فيليب فرانك أيضا :

« وقد جرى تقييم مماثل فى مجال العلم • فقد اعتبرت الرياضيات البحتة مجهودا عقلانيا ينتمى الى الدراسات الراقية أو المتحررة • بينما كان تفسير الهندسة بنماذ جميكانيكية امرا يدعو الى الازدراء •

وقد كتب بلوتارك فى سيرة الجنرال الرومانى مارشيللوس ان العالم اليونانى ارشميدس قد أسهم بأجهزته الميكانيكية فى الدفاع عن بلدته التى ولد فيها سيراكسيو ضد الرومان الغزاة ، لكنبلوتارك كتب يقول : « ان ارشميدس لم يكن يرى أن اختراع الالات لاغراض عسكرية هو أمر يستحق دراساته الجادة » •

وقد وجه افلاطون نقدا شديدا الى هؤلاء العلمـاء الذين عززوا نظريات الميكانيكا البحتة أو الرياضيات البحتة باختبارات مفردة •• ويقول بلوتارك عن أمثال هؤلاء التطبيقيين :

« لقد عيرهم أفلاطون ساخطا عليهم سخطا كبيرا ، لانهم أفسدوا الهندسة ، وحقروا من تميزها بأن جعلوها تهبط من شىء عقلانى وغـير مادى الى شىء « مادى ومحسوس » وكل من استخدم الادوات الميكانيكية

فى الهندسة كان عليه أن يستخدم « المادة » وهى تحتاج الى كثير من العمل اليدوى وهى موضوع العمل الحقير » •

ويتضح لنا من هذا النص أن اليونانيين كانوا يعتبرون الابحـــاث التجريبية فى الميكانيكا والفيزياء عملا يحط من قدر الرجل الحر ، ويحول بينه وبين متابعة الدراسات الراقية والسامية » [(٤٩)] •

ويقول روجيه جارودى :

« جدير بالذكر أن ما يســمى بـ « العلوم اليونانية » لم توجــه اهتمامها الى العلوم الطبيعية وتطويرها لا فى أثينا ولا فى اليونان كلها • بل ان ذلك قد تم فى آسيا الصغرى فى مصر أو صقلية •

ان العلماء والفلاسفة الذين سبقوا « سقراط » وفيزيائى ايونيــا الذين اهتموا بالطبيعــة وبالتجربة هم من آسيا الصغرى ، وهم الذين تابعوا طريق الفلكيين والأطباء من بلاد مابين النهرين والهند •

أما بقراط •• فهو من آسيا الصغرى •

وأما ارخميدس •• فــكان من صقلية •

وأقليدس وبطليموس كانا من الاسكندرية •

أما ارسطو فقد اهتم بالفيزياء وعلوم الطبيعــة حبــا فى تصنيف العلوم السابقة وليس سعيا وراء التجديد أو تسخير الاكتشاف للتطبيق•

ويعترف « اندريه بونار » وهو من المتحمسين للحضارة الاغريقية بأن « العلوم اليونانيــة كانت فى بداية عهد الاسكنــدر علوما مجردة

---

(٤٩) فلسفة العلم ص ٥٠ — ٥١ •

وممارسة لـ الحســاب لا أكثر ••• وبأن البحث الفلســفى انقلب الى تأملات نظرية » (٥٠) •

ولم يكن هــذا الغبــاء اليونانى — والأوربى بصفة عامة قبل أن تتلقى أوربا الدرس من الاســلام — الا لأنهم كانوا يجهلون ان التطبيق أمر رئيسى لتقدم النظرية أو بعبارة أخرى أن « العمل » هو مهماز التقدم فى « العلم » •

هذا بينما كان السلف من المسلمين يقررون (العلم يهتف بالعمل فان أجاب حل والا ارتحل) •

واذا كان الاسلام قــد أسدى للانسانية خدمة عظيمة فى توجيهاته الى الربط بين النظر والتطبيق أو بين العلم والعمل •••

فان الانسانية مانزال تتطلع اليه فى لهفة لتأخذ من يده التوجيــه الذى تشتد حاجتها اليه • وهو الربط بين العلم العملى ، وبين الهدف ، من وجود الانسان والعلم والحضارة •

أو بعبارة أخرى : الربط بين العلم والدين وهذا مانزيده ايضاحا فى كلامنا عما يعد به الاسلام •

رابعا — فشل العلمانية والحضارة الغربية :

لماذا النموذج الغربى « العلمانى » فى التقدم ؟

نحن نطرح هذا السؤال الذى يطمســه العلمانيون كأنهم يجعلون الأخذ بالنموذج الغربى « العلمانى » بديهية لاتحتاج الى سؤال •

لــكنا نطرح هذا السؤال بقوة •

---

(٥٠) مايعــد به الاســلام ص ١١٨ — ١١٩ •

فمنهج الشك ليس موظفا ضد بدهيات الدين لأنه — أى الدين — ضامن لسلامة الانسان وأمنه فى حياته وموته على السواء .

ولـكنه — أى منهج الشك — صالح فى المقـام الأول للتعامل مع مسلمات أعـداء الدين ، لأنهم الذين يعرضون الانسان للهلاك (٥١) .

لقد اقتحم العلمانى حصن المسلمات الدينية متسائلا : لماذا الشريعة الاسـلامية ؟ (٥٢) .

والمسلم يجيب على ذلك بايمانه كما يجيب على ذلك بعلمه، وفكره، ولـكننا الآن نرد السـؤال على صـاحبه « لـماذا النموذج الغربى « العلمانى » فى التقدم ؟؟ » .

لـماذا يكون النموذج الأوربى للتقـدم هو النموذج العالمى الذى يجب أن تتطلع اليه جميع المحاولات ؟

اننـا لانملك أن نتغـافل هنـا — كمـا يريد العلمـانى — عن الدراسات المستفيضة التى تقـدم بها فلاسفة الغرب ورواده ، أنفسهم حول نقد الحضارة الغربية والأسس التى تقوم عليها (٥٣) .

وفى هـذا يذهب شبنجلر الى أن الرجل الأوربى يتملـكه ازاء التـاريخ وهمان :

---

(٥١) أنظر كتابنا فلسفة الانذار وكتاب بحوث فى الفلسفة .

(٥٢) أنظر جريدة الأهرام عدد ٧/٢٩ ، ٨/٥ ، ٨/١٢ لعام ١٩٨٥ .

(٥٣) اقرأ فى هـذا كتاب « انحلال الغرب » لـ اشبنجلر ، مترجم الى العربية ، وكتاب فلسفة الحضـارة لالبرت اشفيتسر ترجمة الدكتور عبد الرحمن بدوى ، وكتاب أزمة الانسان الحديث ترجمة الدكتور نقولا زيادة، وكتاب آفاق القيمة لرالف بارتن بيرى ترجمة عبـد المحسن عاطف سـلام وكتاب فـكرة التقدم لـ ج.ب. بيورى ترجمة أحمد حمدى محمود . وكتاب فلسفة التقدم لدافيد ، ومارسيل ترجمة د. خالد المنصورى .

أحدهما : وهم الـكبرياء والغرور الذى يجعله ينظر الى التاريخ العام من خلال محور ثابت هو الحضارة الغربية المعاصرة .

والثانى : وهم أن التاريخ العـام يسير على خط أفقى ممتد يمثل انسانيـة واحدة تتقـدم باستمرار ، وانه فى تيـار هذا الوهم انساق نفر من المفكرين والفلاسفة والمصلحين الذين رأوا فيه تحقيقا وتأييـدا لمـا يحلمون به من مثل عليا : سموها تارة « سيطرة العقل » وأخرى « تقدم الانسانية » وثالثة « سعادة العدد الأكبر » ورابعة « التطور الاقتصادى » و « التنوير » و « حرية الشـعوب » و « السيطرة على الطبيعة » و « السلام الدائم » ... الخ .

وهو — أى شبنجلر — يرى بدلا من ذلك (مسرحا لعدد كبير من الحضارات العظمى .. ولـكل منها فكرتها وعواطفها وحياتها وارادتها وشعورها وموتها الخاص بها) [٥٤] .

ومن هنـا نقول لدعاة (حـذوك النعل بالنعـل) الذين عميت عيونهم عمـا عـدا النعل « الأوربى » : كفوا عن دعوى التبعيـة ،

---

(٥٤) انظر شبنجلر للدكتور عبد الرحمن بدوى ص ٩٦ الى ص ١٠٠ . نشرة دار العلم بيروت عام ١٩٨٢ م وقـد يكون فى هذه الفكرة نوع من التحدى للاسلام .. اذ ينظر اليه حينئذ باعتبـاره حضارة ادت دورها وانتهت . ولـكن هذا التحدى ينفك تماما اذا تنـازلنا عما درجنا عليه أخيرا من تسمية الاسلام « حضارة » فالاسـلام فى مواجهة هـذه الفكرة ليس « حضارة » ولـكنه دين يصنع حضارات .

ويمكننا حينئذ ان نقول : ان الاسـلام صنع حضارات تاريخية متقاربة مما يسمح لنـا بأن نتجاوز فنقول انها حضارة واحدة ومتنوعة بحيث نسمح لها بدرجة أكبر من التفاوت كلما امتد الزمن .

ويمكننا حينئذ أن نقول : ان مستقبل الاسلام ليس مقيـدا بمظـاهر حضـارية محددة سبق صنعها فى حضارات ماضية ، وانمـا هو مقيـد فحسب بنصوص الوحى من جهة ، (فى الـكتاب والسنة) وبالفهم التطبيقى لهذه النصوص المستمد من مجتمع المدينة فى عصر الرسول من جهة ثانية .

وارفعوا رؤوسكم الى الأفق ، فهو يعد باحتمالات حضارية جديدة ، واتركوا لحركة البعث الاسلامى مجالها لصنع حضارة اسلامية « جديدة » ..

واذا كان العلمانى يتلقف ماقرره بعض الباحثين الاسلاميين من اعتماد الديمقراطية أساسا للحكم الاسلامى ليرتب على ذلك طعنه على هذا الاتجاه « التوفيقى » أو « الانتقائى » من هذا الجانب أو ذاك .

فقد كان ينبغى عليه لا أن يشير الى معارضة بعض الاتجاهات الاسلامية للديمقراطية باسم الاسلام ..

ولكن الى المحنة التى تمر بها الديمقراطية فى أوربا ، من حيث فشلها فى تحقيق أهدافها فى « الحرية » وقد كتب فى ذلك الكثيرون وحسبنا أن نشير هنا الى كتاب « محنة الديمقراطية » لهارولد لاسكى الذى نشر فى جزأين فى ترجمته العربية [٥٥] .

أما عن فشل هذه « الديمقراطية » فى أهدافها فى المساواة فيكفى أن نشير الى التمييز العنصرى الذى تتبناه حكومات وقوانين وشعوب ونظريات سياسية وفلسفية : على اتساع المدى الذى يشغله الأوربى المعاصر فوق هذه الأرض .

وبعد فماذا عن الدمار الذى تنذر به الحضارة الصناعية المعاصرة من خلال التقدم الصناعى نفسه ؟ وبخاصة فى مجال التلوث البيئى ؟؟

(يقول بارى كوموز فى كتابه الشهير « الدوامة » : انقذوا الانسان من الموت المؤكد ، ساهموا فى مكافحة التلوث ، ان مدنية

---

(٥٥) انظر مجموعة « اخترنا لك » العدد ٦٥ ، ٦٦ .

قبائل البوشمن فى افريقيا الوسطى الجافة هى أرقى — على بدائيتها — من مدنيـــة الانسان المعاصر فى البيئة المرفهة الأمريكية ») •

وأمثال الدكتور كوموز كثيرون علا صـــوتهم فى السنوات الأخيرة وهم قـــد بدأوا يشعرون أن حضارة العصر تقف اليوم عاجزة عن توفير الراحة والأمان ، كما عجزت عن أن توفر الحمـــاية للبيئـــة التى يحيـــا فيها الانسان « هذه الحماية التى تقتضى أن تأخذ بالحسبان محدودية موارد البيئة من ناحية ، واتزانها من ناحية أخرى » •

وقـــد شهدت السنوات الأخيرة وعيا متزايدا بأن مستقبل جهود التنمية بل وربما الجنس البشرى أصبح محفوفا بأخطار متزايدة بسبب تأثير الانسان على البيئة •

ان حمـــاية البيئـــة والمحافظة عليها هى الشغل الشاغل للانسان اليوم • (فلم يعد من المقبول القول بأن الانسانية يجب عليها أن تعدل سيرها وتتمشى مع حتميات التكنولوجية بل ان النظرة الحالية ترى أن الصـــناعة يجب أن تتمشى مع طبيعـــة الانسان ، وتعمل ضـــمن قيود بيئيـــة صارمة • وهل مقيـــاس الحضـــارة أن تقل نسبة الأوكسجين بالهواء فى بعض مدن اليـــابان حتى تضطر الحكومة لوضع مصـــادر للأوكســـجين فى الشـــوارع يستعملهـــا رجال البـــوليس فى الأيـــام السيئة ؟) [٥٦] •

واذا كان دعاة المـــدنية الغربيـــة والسير خلفها حذو النعل بالنعل يزعمون أن النظام الاســـلامى قـــد فشل فى التطبيق لأنه لم تتمكن الانسانيـــة من الوصـــول اليه ••• فبأى مقياس نحكم على المـــدنية

---

(٥٦) انظر كتاب « البيئـــة ومشكلاتها » تأليف رشد الحمد ومحمـــد صباريني ص ١٩٩ وما بعدها — نشر عالم المعرفة بالـــكويت •

الغربيـــة التى يدعوننـــا اليها لنرى أنقول عنها فشلت أم نقول عنها نجحت ••

أنظر الى شـــهادة فيلسوف فرنسى معاصر تمـــرس بالمـــذاهب المعاصرة — حتى وصل الى الاسلام — أنظر اليه وهو يقول :

(لقد أطلق مؤرخونا بحق على الأعاصـــير العاصـــفة — مثلا : الأهرامات التىبنـــاها تيمورلنك بسبعمائة ألف جمجمة بعـــد احتـــلاله أصفهان — اسم الغزوات البربرية ، ولـــكن مما يدعو الى العجب أن هذه التسمية تتغير حينما يقوم الأوربيون بمثل تلك الغزوات) •

فماذا نقول اذن عن ابادة ملايين الهنود الحمر فى أمريكا على يد الفاتحين الأوربيين أصحاب المـــدافع ؟

وماذا نقول عن تخريب افريقيـــا بانتزاع عشرة ملايين الى عشرين من سكانها السود وهذا يعنى أنعدد الضحايا بلغ مائة مليون الىمئتين، اذ كان أسر كل أسير يكلف قتل عشرة أفراد •

بل ماذا نقول عن مذابح آسيا وحرب الأفيون والمجـــاعات التى فتكت بملايين الهنود بفضل نظام الاستعمار وفرض الضرائب ؟

وماذا نرى فى قنبلة هيروشيما الذرية ؟

وماذا نرى فى حرب فيتنـــام ؟ (٥٧) •

وماذا نسمى فى عالم اليوم النظـــام العالمى للسيطرة الغربية ، هـــذا النظام الذى أنفق أربعمائة وخمسين مليارا من الدولارات على

---

(٥٧) أضـــف الى ذلك بالأولى تشريد الشعب الفلسطينى والمـــذابح التى دارت عليه .

التسلح عام ١٩٨٠ ، وتسبب فى العـــام نفسهفى موت خمسين مليونا من البشر فى العالم بسبب لعبة المبادلات التجارية الظالمة ؟

وهكذا يعتبر الغرب الى أبد الآبدين أكبر مجرم فى التاريخ •

واليوم يفرض الغــرب بسبب انفــراده بالســيادة الاقتصادية والسياسية والفكرية والعسكرية على العــالم كله طرازه فى التنمية ، هــذا الطراز الذى سيؤدى الى انتحــار كوكبنا الأرضى ، لأنه يخلق تفاوتا ظالمــا مستفحلا ، ويئد كل تطلع لدى المحرومين ، كما ينضــج ألوان التمرد اليــائس ؟ ، وهو فى الوقت نفسه يوزع مايعادل خمسة أطنان من المتفجرات على هامة كل مواطن على سطح الأرض •

ولقــد آن الأوان لــكى نعى أن هذا الأسلوب الغربى للتنميــة المؤدى بنــا الى حيــاة بلا معنى ، بل الى الموت : يحاول أن يسوغ وجوده بنموذج ثقافى وايديولوجى يحمل فى داخله عناصر الفناء •

ويتجلى هــذا النموذج فى ذلك المفهوم المغلوط عن الطبيعة الذى ينظر اليها على أنها ملــكية خاصــة ، لنا الحق فى استخدامها والافراط فى هذا الحق (مثلما يعرف القانون الرومانى هذه الملــكية) مما يؤدى بنا الى اعتبار الطبيعة مستودعا للثروات ومجمعا للنفايات •

وبهذا وعن طريق الاستنزاف اللامبالى لثروات الطبيعة — أضف اليه عنصر التلوث — نعمل على تخريب بيئتنا الحياتية ، ونسهم دون وعى منا فى تكريس قانون انحلال الطاقة ، وتزايد الفوضى •

— ويتجلى هــذا النموذج كــذلك فى المفهوم اللاانســانى عن العلاقات الانسانيــة • هــذا المفهوم القــائم على فردية مغرقة ، لم تخلق غير مجتمعات متنافسة ، ولم تولد الا ألوان الصــدام والعنف ، فلا ترى الا تكتلات اقتصــادية أو سياسية طاغية عمياء تستنزف أو تلتهم الأضعف منها •

— أضف الى ذلك النظرة اليائسة الى المستقبل التى لن تؤدى الا الى تزايد كمى محض للواقع الراهن دون أى هـدف انسانى ، ودون توجه الى التسامى بآفاق حياتنـا لنخلع عليها شيئا من معنى ، وننجو بذلك من الهـلاك [٥٨] .

ويقول روجيه جارودى (ان التنمية على الطريقـة الغربيـة فى البلدان « المتخلفة » لايمكن أن تتم الا بسرقة خيرات هـذه البـلاد واستنزاف طاقاتها البشرية . والحق فى رأينا أنه ليس هنـاك بلدان « متطورة » وأخرى « متخلفة » وانما هنـاك بلاد « مسيطرة » وأخرى « مسيطر عليها » . بل بلاد « مريضة مسيطرة » وبلاد « مخدوعـة مسيطر عليها » ، أما المريضة فبسبب التخمة فى التنمية وأما المخدوعة فبوهم تلك التنمية السرابيـة الانتحارية التى يقوم عليهـا « نخبة » جرى تعليمها و « قولبتها » فى الغرب « تلك النخبة التى علموها أن مصير بلادها المخدوعة مرهون بتقليد البـلاد المريضة المسيطرة والسير على منوالها » . ان الاعتقاد بقدرة العلوم الوضعية والتقنيات النابعة عنها على حل مشكلاتنا ، والقول بأن مفتاح جميع القضايا الانسانيـة فى يد هـذه العلوم والتقنيات [٥٩] .. ان هذا الاعتقاد وهم خرافى فتـاك . وقـد صب هـذا الاعتقاد بكل غباء ولا مبالاة انتحارية فى قالب شعار عصرى كاذب يقول « لايمكننا وقف التقدم » [٦٠] .

---

(٥٨) روجيه جارودى فى كتابه « مايعد به الاسـلام » ترجمة قصى اتاسى وآخرين نشر دار الوثبة الطبعة الثانية ١٩٨٣ ص ٣٧ — ٣٩ .

(٥٩) انظر مقالات زكى نجيب محمود وتلاميذه فى هـذا الاتجـاه فى الأهرام وغيره .

(٦٠) انظر ماكتبناه عن سقوط حتمية قوانين الطبيعـة ، فى كتابنا الاسـلام والاتجاهات العلمية المعـاصرة ، وما كتبناه عن مفهوم التقدم فى كتابنا « العقيدة الاسلامية بين الفلسفة والعلم » .

وبيت القصيد فى افــلاس هــذا النموذج للتقدم « الصناعى » هو أنه يفتقد « الهــدف » •

وذلك لأن العلم والتقنية لايستطيعان أن يصــبحا غاية فى حــد ذاتهما كما هو الأمر فى الاتجاه الغربى منذ عصر النهضة •

هذا المرض سمى فى الحضارة الغربيــة « الحداثة » وهو عكس للعــلاقة بين الوسائل والغايات •

لقد أصبحت الوسائل فى المنظور الغــربى غاية ولم يعــد العلم والتقنية متلائمين مع البيئة [٦١] ، ولا فى خدمة الانسان •

بل على العكس أصبح الانسان ومحيطه خاضــعين لتطور العلوم والتقنيات المستقلة والفتاكة •

ونتيجة لعكس هذه العلاقة بين الوسائل والغــايات مازال نصــف سكان العــالم يناضلون فقط من أجل العيش ، بعد الثورة الصــناعية بقرنين ، تلك الثورة التى تنبأ لها أنبياؤها الــكذبة بازدهار غير محدود للانسان • كما مات خمسون مليونا من الــكائنات البشرية فى العــالم الثالث من الجوع فى عام ١٩٨٠ م •

الــكمية ، السعى وراء القوة ، والنمو ، والفــردية ، أشــهرت افلاسها • فلا يمكن لأى حضــارة أن تبنى على هذه الأسس • فقــد انتهى العلم والتقنيــة اللذان ولدا فى هذه التربة الى نتائج متعارضة تماما مع مشاريع ووعود النهضة الغربية) [٦٢] •

---

(٦١) انظر الخطر الداهم الذى يواجه البيئــة نتيجة للتقدم التكنولوجى فى الدراسات البيئيــة الحديثــة — كتاب « البيئــة ومشكلاتهــا » عالم المعرفــة بالــكويت •

(٦٢) الاسلام دين المستقبل لروجيه جارودى ص ١٠٧ •

انه ينبغى على كل مسلم أن يصرخ فى وجه كل علمانى متسائلا :

هل نطرح عنا الاسلام ونرفضه كنظام للحياة ونتجه الى احتذاء خطوات الحضـــارة الغربية المعاصرة فى الوقت الذى أخذت تــكشف فيه عن مصيرها القاتم ؟

يقول هارولد لاسكى (ان منهج الغرب فى الحيـــاة قد وضع فى بوتقـــة الانصهار • وصارت العلوم — سواء علوم الطبيعـــة أو علوم الأحيـــاء جزءا من رد الفعل شبه التلقائى ، وتفتقر الى الهـــدف فهى لاتقدم لنـــا شيئا غير تلك القيم التى تشيع الفوضى ، وفى مقدور هذه العلوم أن تتيح الرفاهية المـــادية ولـــكن يبدو أنها عاجزة عن اكتشاف مبادىء الرضا الروحى) •

ويعلق هارولد لاســـكى أملا على « الشرق » ••• ويأسف لفوات الفرصة على التقدم فى اليابان ويقول :

(لقد كان من الممكن أن تتعلم اليابان كيف تكون قنطرة بين الشرق والغرب ، ولـــكن يبدو أنها لم تســـتفد شيئا من تجربتهـــا فى العصر الفكتورى سوى ذلك الدرس الغث : الاستعمار الاقتصـــادى ، لقـــد اكتشفت سر المهارة فى لندن وبرلين وباريس ونيويورك • ولـــكن يبدو أنها تفتقر الى الهدف الـــكبير الذى تهب له هذه المهارة) [٦٣] •

كذلك فان روجيه جارودى اذ يدمغ النموذج الغربى فى التقـــدم قائـــلا :

(ان المعركة الأساســـية الحيوية فى عصرنا يجب أن توجـــه الى

---

(٦٣) محنة الديمقراطيـــة لهارولد لاسكى مجموعـــة اخترنا لك العدد ٦٥ جـ ١ ص ١٢ ، ١٣ •

أسطورة التقدم الانتحارية والى الطريقة الغربية فى التنمية [٦٤] .

انها الايديولوجية التى تميزها تلك القطيعة بين العلوم والتقنيات من طرف ، وبين تحكيم العقل من طرف آخر ..) فانه يشير الى الحل الاسلامى قائلا :

(لقد سبق للاسلام أن أنقذ امبراطوريات كبرى متهافتة من الفناء فى القرن السابع الميلادى) [٦٥] .

وبعد : فاذا كنا فى الفقرة السابقة قد بينا فضل الاسلام على الحضارة الاسلامية ، ثم على الحضارة الغربية :

بأن أنقذ التراث الانسانى من الضياع أولا .

وبأن أبدع المنهج التطبيقى وأهداه للحضارة ثانيا .

فانه بقى علينا أن نقرر أنه — أى الاسلام — مازال هو الذى يملك امكانية تجاوز المحنة التى تتعرض لها الحضارة المعاصرة ، ومازال هو الذى يملك الصراط الممتد فوق نارها الى نقطة النجاة ، انه هو الذى يملك مفاتيح المستقبل : بربط المنهج التطبيقى بالهدف ؟.

وهذا ما نبينه فى الفقرة التالية :

خامسا :

والسؤال الآن هو : ماذا يمكن أن يقدمه الاسلام لانقاذ « المستقبل » ؟ مستقبل الانسانية والحضارة ؟

---

(٦٤) ولا يفرق جارودى فى هذا بين رأسمالية الغرب واشتراكية السوفييت التى « تبنت أهداف التنمية الرأسمالية الغربية نفسها فراحت تضغط على شعبها وتستغل العالم الثالث وتشارك على نفس المستوى فى التسلط وانتاج أسلحة الرعب » أنظر ص ٣٩ من كتابه مايعد به الاسلام .

(٦٥) مايعد به الاسلام ص ٤٢ .

لقد تبين لنـــا فى الفقرة السابقة ضياع الهدف من بين أقـــدام التقدم التكنولوجى « الأعمى » الذى تقوم عليه الحضارة •

وهنـــا فان الاسلام الذى أبدع المنهج التطبيقى الذى يربط بين النظر والعمل ، وبين الفكرة والتطبيق ، وقدمه للحضارة الاسلامية ••• يلفت النظر الى الجريمة التى تمت ، ألا وهى تجريد هذا المنهج ، من الهـــدف •

يقول روجيه جارودى :

(اذا كانت العلوم الاسلامية لم تنهج منهج الغرب منـــذ القرن السادس عشر ، فليس مرد ذلك الى نوع من العجز أو القصور الذاتى بل مرده الى أن الاسلام رفض الخوض فى بعض المجالات العلمية التى نظر اليها على أنها لاتتصل بغاية الوجود ومعناه) •

ثم يقول (من هذا المنطلق نود تبيـــان دور العلوم الاســـلامية وتطلعاتها المستقبلية كى لانقع فيما وقع فيـــه معظم مؤرخينا الغربيين حينما لم يروا فى العلوم الاسلامية الا ناقلا للعلوم اليونانية والهندية والفارسية والصينية ، والا سلسلة من الاكتشافات لا دور لها ســـوى أنها مهدت الطريق أمام العلوم « الحديثـــة » التى نخلع عليها بتعميم وادعاء صفة « العلوم » والأجدر أن توصف بأنها « العلوم الغربية »•

ويجدر بنـــا فيما يخص العلوم الاسلامية وامتيازها النوعى أن ندرك مافيها من معان وما لها من خصائص وأن لانفصلها عما يمنحهـــا أهدافها وغايتها [٦٦] ، نعنى به ذلك « الايمان » وهو القوة الحية التى كانت روح هذه العلوم وجوهرها •

---

(٦٦) هذه نظرة اشد جذرية وتأصـــيلا من الفكر الاسلامى الحديث الذى لايسمح باستيراد الثقافة الأوربيـــة ، ولـــكنه يسمح باستيراد « العلم التجريبى » باعتباره عالميا لايختص بحضارة معينة •

ان مبدأ التوحيد ، وهو حجر الزاوية فى الايمان يرفض كل فصل بين العلم والعقيدة ، فــكل مافى الطبيعة شاهد على وجود الله •

لذا كانت كل معرفة للطبيعة عن طريق العلم نوعا من الصلاة ولونا من ألوان القرب من الله) (٦٧) •

واذن فالدور الذى سيقوم به الاسلام من أجل المستقبل هو :

اعادة تقديم المنهج التطبيقى وهو اذ يفعل ذلك : يعيد تقــديمه مقيدا بالهــدف •

يقول جارودى :

(نحن لا نؤكد على المظاهر التى لعب الاســلام فيها باكتشافاته دور السابق للعلم الغربى الحالى •• ولــكن على مزاياه الخاصــة فى اخضاع الوسائل البشرية للغايات الالهيــة •

وفى هذا المنظور فان على القرن العشرين وبعد حين القرن الحادى والعشرين أن يتعلما الــكثير من الاسلام •

ولابد لنــا هنا أن نكرر أن المسلمين بايمانهم قدموا أكبر مساهمة فى العلم العالمى ، وفى المقام الأول بتأكيدهم المطلق على التســامى ، وهــذا من ناحية العلوم يعنى أن العلم والتقنيات منظمة بحسب غايات أسمى من غايات النمو والقوة ، غايات أسمى من غايات انسان فرد أو مجتمع ، وهــذا يعنى أن هنــاك استخداما للعقل يختلف عن استخدامه الذى ينزل به من سبب الى سبب ومن سبب الى نتيجة ، فان هنــاك عقلا يصعد به من غاية الى غاية ، من غايات دنيــا الى غايات أسمى ، دون أن يصل الى نهاية ، يصبو الى الوحدة الــكاملة •

---

(٦٧) مايعــد به الاســلام ص ١١٦ — ١١٧ •

ويتساءل سيد حسين نصر فى كتابه العلوم الاسلامية عن العلاقات بين العلم المسمى « علما حديثا » والعلم الاسلامى ، وعن عكس العلاقات بين العلم والحكمة ، فيقول : « لو قدر لعلماء المسلمين فى القرون الوسطى أن يبعثوا الى الحياة فان دهشتهم لن تكون من التقدم فى الأفكار التى ولدت أصلا فى أحضانهم ؛ بل ان دهشتهم ستكون من أن نظام القيم قد قلب رأسا على عقب ، وسيرون أن مركز الرؤية أو بؤرتها التى انطلقوا منها قد صار هامشيا ، وأن محيط تلك الرؤية قد صار هو المركز ، وان تلك العلوم الحديثة التى كانت فى الدرجة الثانية من اهتمامات المسلمين قد تصدرت ساحة الاهتمام الآن فى الغرب ، أما علم الحكمة الثابت ، ذلك العلم الأول فسوف يرون أنه تضاءل حتى كاد أن ينعدم » (٦٨) .

ان الحل الذى يعد به الاسلام يأتى من افتقار المدنية الغربية الى روح التسامى والى روح الجماعية .

ويعنى التسامى الامكانية الدائمة للتخلص من معطيات الماضى والحاضر فى سبيل خلق مستقبل جديد .

وتعنى الروح الجماعية أن نعى أن كلامنا مسئول عن مستقبل الآخرين ، وأن نسخر العلوم لتحقيق الغايات الانسانية العليا) (٦٩) .

ويقول (ان التأكيد الأساسى الصارم على التسامى والايثار هما القطبان المشتركان فى رسالة الاسلام) (٧٠) .

ويستمد روجيه جارودى رؤيته للتسامى من خلال رؤيته لعقيدة الوحدانية فى الاسلام فيقول :

---

(٦٨) الاسلام دين المستقبل ص ١٠٦ — ١٠٨ .
(٦٩) مايعد به الاسلام ص ٤٠ .
(٧٠) مايعد به الاسلام ص ٥٢ .

(ان التبشــير بوحدانيــــة الله لايعنى فــكرة جامدة تؤدى الى التسليم بوحدانية الهية مبهمة تجعل من الله « فــكرة » ••• وليس هو دعوة الى التسليم بوحــدة الوجود هــذه المقولة التى تتعارض مع ذلك التسامى وتحول دونه وتجعل العالم لدى المسلم عالما بلا اله) •

ولــكن التوحيــد الاســلامى (لا يقف عند الحــدود النظريه للوحدانية وانما يتعداها الى الالتزام بترجمتها الى ممارسة • التوحيد التزام يمارسه كل انسان يدرك أنه ما من شىء حقيقى أو الهى سوى الله ، وان الموجودات والأحداث والأعمال تأتمر بأمره فى كل حين •

ان التوحيد فى جوهره ممارسة تدحض الفكرة القائلة بأن الاسلام يدعو الى الجبرية ، بل ان التوحيد على نقيض ذلك ، هو الأساسى المتين للمسئولية والحرية لدى الانسان •

ولفظ الاســلام ذاته يعنى التسليم لارادة الله وهكذا وانطــلاقا من مفهوم الوحدانية فكل مافى الوجود مسلم ، أى مسلم ، فالشجر والحيوانات والأحجار •• مسلمة ، أى خاضعة طائعة لــكن بغير اختيار منها ، اذ لامهرب لها من القوانين التى تحكمها ، أما الانسان فهو القادر وحده ، على أن ينسى جبلته الحقيقيــة « التسليم » كما وصــف فى القرآن ، (كذلك أتتك آياتنا فنسيتها) وهو يختار الاســلام بارادته مستوعبا المبــدأ الأولى مبدأ الوحدانيــة ••• وهو يتحمل مسئوليتــه كاملة لأنه يملك امكانية الرفض ••) [٧١] •

(ان نقطــة الانطــلاق فى أى نوع من التعليم هو القرآن الذى يــدرس فى المســجد ، فان حكمــة الايمــان تجمع كافــة العلوم فى كل عضوى •

---

(٧١) مايعــد به الاســلام ص ٥٢ ، ٥٣ •

ان احدى مميزات العلم العربى الجوهرية ، والمستقاة من مبـدأ التوحيد هو مبدأ ترابط العلوم فيما بينها فليس هنـاك فاصل بين علوم الطبيعة وعلوم المرئيات من جهة ، واللاهوت أو الفن من جهة أخرى •

ان روح العلم الاسـلامى الأساسية هى التى تجعل منه شـيئا آخر ليس مجرد حلقـة بين العلوم القـديمة والحديثة ، ولذا فليست العلوم الاسلامية علوما محنطة أكل الدهر عليها وشرب قياسا الى العلم الحديث وانما هى تصلح للمستقبل كما صلحت للماضى بما يكمن فيهـا من حكمة وروح •

ويقول جارودى :

(حينما نسـتوعب العلوم الاسـلامية فى مضـمونها وجوهرها وغايتها لا فى منجزاتها التاريخيـة فحسب نرى أنها تمنحنـا الطريق والأسـلوب للتخلص من النزعـة العلميـة التى تفصـل بين العـلم والعقيـدة) [٧٢] •

هكذا : العلم المتصل بالعقيدة •

هكذا : العلم المتحرر من « العلمانية » •

أو بعبارة أخرى : العلم المتحرر من مسلمات العقيدة العلمانية•• الداخل فى أمن مسلمات العقيدة الاسلامية •

يقول روجيه جارودى :

(نحن نختار بحرية المنهج الاسـلامى ونقف فى مواجهة الطرق التى تدعى أنهـا علمية ، أى تلك التى تتجاهل مسلماتهـا الخاصـة ، وبشكل خاص المسلمة الفلسفية الوضعية القائلة باستبعاد كل امكانيـة

---

(٧٢) انظر الاسـلام دين المستقبل لروجيـه جارودى ص ٩١ ، ٩٢ ترجمة عبد المجيد بارودى نشر دار الايمان بدمشق وبيروت عام ١٩٨٣ •

للتسامى ، بشكل مبدئى ، أى كل ظهور جديد بشكل مفاجىء فى التاريخ، والتى تنزوى فى أفكار مسبقة لتزعم أن لاشىء ينشأ الا نتيجة ومحصلة لأحكام سابقة) [٧٣] .

انه الخروج من قضاء وقدر : المادة الوضعية العمياء الى قضاء وقدر الله الفياض بالمعرفة والأمن والتحرير .

سادسا : فى الاسلام الشامل :

يتحدث العقاد عن أهمية صفة الشمول بالنسبة للدين بوجه عام :

(الغالب على الأوامر الدينيــة هو الشمول الذى يحيط بالارادة والشعور والظاهر والباطن ، ولا يسمح لجانب من النفس أن يخلو منه ..) .

ثم يتحدث عن الشمول فى الاسلام بخاصة فيقول :

(انه عقيدة شاملة وانه حقق بذلك الصفة الكبرى للعقيدة الدينية على أتم شروطها ، فما كانت سريرة الانسان لتطمئن كل الاطمئنان الى اعتقاد يفرقها بددا ، ويقسمها على نفسها ، ويترك منها جزءا لم تشمله بقوته ويقينه ..) .

ثم يقول : (وعلى هذا الشرط — شرط الشمول فى العقيدة يكون الاسلام هو العقيدة بين العقائد — أو هو العقيدة المثلى للانسان منفردا ومجتمعا وعاملا لروحه أو عاملا لجسده ، وناظرا الى دنياه ، أو ناظرا الى آخرته ، ومسالما أو محاربا ، ومعطيا حق نفسه أو معطيا حق حاكمه وحكومته ، فلا يكون مسلما وهو يطلب الآخرة دون الدنيا ، ولا يكون مسلما وهو يطلب الدنيا دون الآخرة ، ولا يكون مسلما لأنه روح تنكر الجسد ، أو لأنه جسد ينكر الروح ، أو لأنه يصحب اسلامه

---

(٧٣) الاسلام دين المستقبل نشرة ١٩٨٣ ص ٦٦ .

فى حالة ويدعه فى حالة أخرى ، ولكنما هو المسلم بعقيدته كلها مجتمعة لديه فى جميع حالاته وجميع حالاته سواء تفرد وحده ، أو جمعته بالناس أواصر الاجتماع .

ان شمول العقيدة فى ظواهرها الفردية ، وظواهرها الاجتماعية هو المزية الخاصة فى العقيدة الاسلامية وهو المزية التى توحى الى الانسان انه « كل » شامل فيستريح من فصام العقائد التى تشطر السريرة شطرين ، ثم تعيا بالجمع بين الشطرين على وفاق) (٧٤) .

ثم يقول : (لا ينقسم المسلم قسمين بين الدنيا والآخرة أو بين الجسد والروح ، ولا يعانى هذا الفصام الذى يشق على النفس احتماله ، ويحفزها فى الواقع الى طلب العقيدة ، ولا يكون هو فى ذاته عقيدة تعتصم بها نفسه من الحيرة والانقسام .

« وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا »

فاذا كانت العقيدة التى تباعد المسافة بين الروح والجسد تعفينا من العمل حين يشق علينا العمل ، فالعقيدة التى توحد الانسان وتجعله كلا مستقلا بدنياه وآخرته .. هى شفاء له من ذلك الفصام الذى لاتستريح اليه السريرة الا حين تضطر الى الهرب من عمل الانسان الكامل فى حياته ، وحافز له الى الخلاص من القهر كلما غلب على أمره ووقع فى قبضة سلطان غير سلطان ربه ودينه .

ومن هنا لم يذهب الاسلام مذهب التفرقة بين مالله وما لقيصر ، لأن الأمر فى الاسلام كله لله « بل لله الأمر جميعا .. » ولله « المشرق والمغرب » .

---

(٧٤) الاسلام فى القرن العشرين ص ١٦ — ١٧ طبعة دار نهضة مصر بالفجالة .

وانما كانت التفرقـــة بين ما لله وما لقيصر تفرقة الضرورة التى لا يقبلها المتدين وهو قادر على تطويع قيصر لأمر الله •

وهـــذا التطويع هو الذى أوجبته العقيـــدة الشاملة ، وكان له الفضل فى صمود الأمم الاســـلامية لسطوة الاســـتعمار — (والغزو الثقافى) — وايمانها الراسخ بأنها — أى الاستعمار وذيوله — دولة دائلة وحالة لابد لها من تحويل) •

وكما أن هذا الشمول فى الاسلام ينسحب على :

الجسد والروح

والعقل والوجـــدان

والظـــاهر والبـــاطن

والفرد والمجتمع

والدنيـــا والآخرة (٧٥)

فهذه العقيدة توصف بالشمول أيضا :

(لأنها تشمل الأمم الانسانية جميعا كما تشمل النفس الانسانية بجملتها من عقل وروح وضمير • فليس الاســـلام دين أمة واحدة ، ولا هو دين طبقـــة واحدة ، وليس هو للسادة المسلطين دون الضـــعفاء المسخرين ولا هو للضعفاء المسخرين دون السادة المسلطين ، ولـــكنه رسالة تشمل بنى الانسان من كل جنس وملة وقبيل « وما أرسلناك الا كافة للناس بشيرا ونذيرا » فهذه عقيدة انسانية شاملة لاتخص بنعمة الله أمة من الأمم لأنها من ســـلالة مختارة •• « يا أيها النـــاس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شـــعوبا وقبائل لتعارفوا ان أكرمكم عند الله اتقاكم » •

---

(٧٥) انظر كتابنا « معالم شخصية المسلم : التكوين الأساسى » .

وفى الحديث النبوى « لا فضل لعربى على عجمى ولا لقرشى على حبشى الا بالتقوى » ••• وليس للاسلام طبقة يؤثرها على طبقة أو منزلة يؤثرها على منزلة ، فالناس درجات يتفاوتون بالعلم والعمل والايمان :

« يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات » ••

« لايستوى القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر والمجاهدون فى سبيل الله •• » •

ثم يتحدث العقاد عن أثر هذا الشمول فى صمود الاسلام أولا ، وانتشاره ثانيا • يقول :

(بهذه العقيدة الشاملة غلب المسلمون أقوياء الأرض ، ثم صمدوا لغلبة الأقوياء عليهم يوم دالت الدول وتبدلت المقادير ، وذاق المسلمون بأس القوة مغلوبين مدافعين •

وهذه العقيدة الشاملة هى التى أفردت الاسلام بمزية لم تعهد فى دين آخر من الأديان الكتابية ، فان تاريخ التحول الى هذه الأديان لم يسجل لنا قط تحولا اجماعيا اليها من دين كتابى آخر بمحض الرضا والاقتناع • اذ كان المتحولون الى المسيحية أو الى اليهودية قبلها فى أول نشأتها أمما وثنية لا تدين بكتاب • ولم يحدث قط فى أمة من الأمم ذات الحضارة العريقة انها تركت عقيدتها الى دين كتابى غير الاسلام •

وانما تفرد الاسلام بهذه المزية بين سائر العقائد الكتابية ، فتحولت اليه الشعوب فيما بين النهرين وفى أرض الهلال الخصيب ، وفى مصر ، وفارس ، وهى أمة عريقة فى الحضارة كانت قبل التحول الى الاسلام تؤمن بكتابها القديم •

وتحول اليه ناس من أهل الأندلس وصقلية كما تحول اليه أناس

من أهل النوبة • ورغبهم جميعا فيه ذلك الشمول الذى يجمع النفس والضمير ويعم بنى الانسان على تعدد الأقوام والأوطان ، ويحقق المقصد الأكبر من العقيدة الدينية فيما امتازت به من عقائد الشرائع وعقائد الأخلاق وآداب الاجتماع) (٧٦) •

ويقول المستشرق المسلم ليوبولد فايس (محمد أسد) فى كتابه الاسلام على مفترق الطرق :

(الاسلام ليس عقيدة صوفية ولا هو فلسفة ولكنه نهج من الحياة حسب قوانين الطبيعة التى سنها الله لخلقه ، وما عمله الأسمى سوى التوفيق بين الوجهتين الروحية والمادية فى الحياة الانسانية • وانك لترى هاتين الوجهتين فى تعاليم الاسلام تتفقان فى أنهما لاتدعان تناقضا أساسيا بين حياة الانسان الجسدية وحياته الأدبية فحسب ولكن تلازمهما هذا وعدم افتراقهما فعلا أمر يؤكده الاسلام اذ يراه الأساس الطبيعى للحياة) •

ثم يقول : (ان الاسلام لايكتفى بأن يأخذ على عاتقه تحديد الصلات المتعلقة بما وراء الطبيعة ولكنه يعرض أيضا للصلات الدنيوية بين الفرد وبيئته الاجتماعية) (٧٧) •

ويقول روجيه جارودى فى شمول الاسلام وسيطرته على الجانب الاقتصادى :

(ان الاقتصاد الناجم عن المبادىء الاسلامية هو نقيض النظام الغربى الهادف للنمو ، والذى يعتبر فيه الانتاج والاستهلاك غايتين بحد ذاتهما •

---

(٧٦) الاسلام فى القرن العشرين للعقاد ص ٢٧ — ٢٩ •

(٧٧) الاسلام على مفترق الطرق ترجمة عمر فروخ طبعة ١٩٧٧ ص ٢٢ وص ٢٤ •

فالاقتصاد الاسلامى لايهـدف فى مبدئه القرآنى الى النمو ، بل يهدف الى التوازن .

لذا لا يمكن مقـارنة الاقتصـاد الاسـلامى بالنظام الرأسمالى (على الطريقة الأمريكية مثلا) . ولا النظام الجماعى (على الطريقـة السوفيتية مثلا) . ان من ميزاته الأساسية عـدم الخضوع الى حركة عمياء تجعل الاقتصـاد غاية فى ذاته . بل هو يتعلق بأهداف سامية انسانية والهية تتجاوزه ، لأن الانسان لايكون انسانا بشكل حقيقى الا بارتباطه بالله) (٧٨) .

ويقول روجيه جارودى فى شمول الاسلام وسيطرته على العمل السياسى :

(ان الاسلام برفضه فصل الثنائية المزعومة بين السياسة والايمان، يمكنه مساعدة الغرب على تجاوز أزمته . كـذلك فانه يمكن للاسـلام بربطه كل شىء بالله ... فى الملـكية ، والسلطة ، والمعرفة .. الخ .. أن يكون خميرة تحرر ونضـال ضـد كل أشـكال التسلط والعبودية المفروضة على الانسان بحجة أطروحات مزيفة) (٧٩) .

وأخيرا فلا شك أن الـكلمة العليا فى شمول الاسلام هى للقرآن الـكريم .

ذلك أنه بعد أن يتحدث القرآن الـكريم عن الحلال والحرام فى قوله تعـالى :

« قل تعالوا أتل ماحرم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئا وبالوالدين احسانا ولا تقتلوا أولادكم من املاق نحن نرزقـكم واياهم ولا تقربوا

---

(٧٨) الاسـلام دين المستقبل ص ٧٦ .
(٧٩) الاسـلام دين المستقبل نشرة ١٩٨٣ ص ٧٠ .

الفواحش ماظهر منها وما بطن ولا تقتلوا النفس التى حرم الله الا بالحق ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون ، ولا تقربوا مال اليتيم الا بالتى هى أحسن حتى يبلغ أشده ، وأوفوا الكيل والميزان بالقسط .. » الأنعام ١٥٠ ، ١٥١ .

وبعد أن يتحدث عن صراط الله المستقيم ..

« وان هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله .. » الأنعام ١٥٣ .

وبعد أن يشير الى القرآن بوجوب الاتباع ..

« وهذا كتاب أنزلناه مبارك فاتبعوه » الأنعام ١٥٥ .

يقول سبحانه وتعالى : قاطعا مابين الاسلام وبين الرافضين لشموله : « ان الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم فى شىء » الأنعام ١٥٩ .

ثم يؤكد شمول الاسلام فى قوله تعالى :

« قل ان صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين لا شريك له » .. الأنعام ١٦٢ .

ويعتبر الرافضين للشمول مشركين :

« قل أغير الله أبغى ربا وهو رب كل شىء » الأنعام ١٦٤ .

ومن خلال هذه النظرة الشمولية يخاطب القرآن أهل الكتاب قائلا :

« أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض ، فما جزاء من يفعل ذلك منكم الا خزى فى الحياة الدنيا ، ويوم القيامة يردون الى أشد العذاب وما الله بغافل عما تعملون » البقرة ٨٥ .

ولا يكتفى القرآن الكريم بأن تكون هذه النظرة قاصرة على ما أوحى الله به الى محمد ﷺ ولكن يريد لها أن تتسع لتشمل كل ماجاء به الوحى الى الأنبياء فى مختلف العصور •

فيقول سبحانه وتعالى : « ان الذين يكفرون بالله ورسله ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ويقولون نؤمن ببعض الكتاب ونكفر ببعض ، ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا ، أولئك هم الكافرون حقا ، وأعتدنا للكافرين عذابا مهينا » النساء ١٥٠ — ١٥١ •

فهل هناك شمول أوسع من هذا الشمول ؟

وهل هناك كفر أوسع من انكار هذا الشمول ؟

ان هذا الشمول بدهية اسلامية ومعلوم من الدين بالضرورة •

يقول علماء الأصول :

(لا حكم الا من الله باجماع الأمة •

لا كما فى كتب بعض المشايخ ان هذا عندنا وعند المعتزلة الحاكم العقل فان هذا مما لايجترىء عليه أحد ممن يدعى الاسلام) [٨٠] •

والنتيجة التى نخلص بها فى هذا الموضوع هى ان العلمانية اذ تنادى برفض الاسلام « الشامل » فانها صورة من صور الالحاد اذ ترفض الاسلام فى جوهره ، وهى وباء من أوبئة الأمراض النفسية اذ تدعو الى تمزيق الشخصية الانسانية ، وهى مخلب من مخالب الغزو الاستعمارى والثقافى اذ تقضى على عامل الصمود فى المجتمع الاسلامى ضد هذا الغزو • وهى مؤامرة من مؤمرات التبشير اذ تقضى على عامل الجذب فى هذا الدين •

---

(٨٠) فواتح الرحموت بشرح مسلم الثبوت ص ٢٥ والمؤلف ماتريدى كما يصرح فى نفس الصفحة .

فى الحساب الختامى مع العلمانية :

تبين لنـــا فى دراستنا السابقة :

١ ــ أن أسباب نشأة العلمانية فى أوربا ، لم توجد فى المجتمع الاســـلامى •

٢ ــ ان الثقافة الأوربية ماتزال خاضعة للمسيحية ، وبالتالى بطل الزعم بأن العلمانية هى سر التقدم الأوربى •

٣ ــ انه لا علمانية فى الاســـلام •

٤ ــ ان النموذج الغربى « العلمانى » فى التقدم مريض مرض الموت •

٥ ــ ان الخلاص من الـــكارثة العلمانية المعـــاصرة مرهون بالحل الاســـلامى والذى كان له الفضل سابقا فى بنـــاء الحضارة ، والذى يعد بالفضل فى انقـــاذها فى المستقبل ، وهو الحـــل الذى يكمن فى اخضـــاع التقـــدم للهدف الالهى ، والذى يعترف بجوهـــرية الشمول فى الدين •

٦ ــ ان العلمانية بمفهومها « المتسامح » والذى يكتفى بالفصـــل بين الدين والحياة ، قد لاتعنى الالحاد فى العقيدة المسيحية ، ولـــكنها تتطابق معه فيما يتصل بالعقيـــدة الاسلامية سواء أخذناها بمفهومهـــا « المتسامح » أو بمفهومها المتشدد ــ الذى يصر على القضاء على الدين ــ غاية مافى الأمر أنا لانحكم به ــ أى الالحاد ــ على معتنق العلمانية مطلقا ، ولـــكننا نحكم به على أولئك الذين يصرون عليها مع معرفتهم بهذا التطابق •

٧ — ان الاصرار على نقل النموذج العلمانى الى المجتمع الاسلامى هو اصرار على تخريب هـذا المجتمع ، وادخاله فى دورات من الفشل لا نهـاية لها .

وانه ليسرنى أن أستشهد هنا — على فشل العلمانيـة أو ماتؤدى اليه من فشل !! — بما جاء على لسان الدكتور عبد الله النفيسى [٨١] فى ختام ندوة « الحوار القومى » [٨٢] مع عدد من المفكرين العرب حول دور العقل العربى للخروج من المأزق الحضـارى الذى دخلت فيـه الأمة العربيـة ... يقول الدكتور النفيسى متسائلا (لماذا يكون دور شيخ من شيوخ الدين أقوى فى تحريك الجمـاهير من مئات من المثقفين فى مصر ؟ هـذا سؤال مهم ، والاجابة فى رأيى : لأن الجمـاهير متدينة، هذه حقيقة يجب أن نهضمها ونتعامل معها ، وعلى ضوء ذلك نتحرك فى تفسير فعالية المثقف ، بدون الدين لا يمكن أن تكون هناك فاعلية للمثقف اليوم فى العالم العربى والاسلامى .

بالنسبة للعقلانيـة [٨٣] ... كانت هى المسـوغ النظرى — أو الأساسى — للنظام السياسى العربى الحالى ... ولـكن هذا الأساس فشل ، فيجب أن نعيـد النظر فى العقلانيـة المجردة لأنها فشلت فى العـالم العربى . يقول أحد الزملاء : لمـاذا دائما يتم تصـوير أن العلمانية متعارضـة مع الدين ؟ الحقيقـة أن العقلانيـة فى فحواها السياسى تقول بضرورة الفصل بين الدين والدولة . واذا تأملنـا فى الاسـلام ، والقرآن الـكريم ، وفى سنة الرسول ﷺ من حيث هى ترجمة للقرآن الـكريم لتبين لنـا أن فى القرآن الـكريم وفى السنة

---

(٨١) استاذ جامعى للعلوم السياسية بالـكويت .

(٨٢) قامت جريدة الأهرام بعقد هذه النـدوة ونشر حوارها وكانت خاتمة ذلك منشورة فى ١٩٨٥/١١/٦ .

(٨٣) لاحظ أن الدكتور النفيسى يساوى فى حديثه هذا بين العقلانية والعلمانيـة .

كثيرا من الأحكام السياسية ، وكثيرا من الأحكام التى تتكلم عن النظام العــام فى الدولة • واذا أردنا أن نفصل الدين عن الدولة فمعنى ذلك أننــا أبعدنا هذه الأحكام الشرعية بشكل واضــح عن تسيير الدولة ، وهذا فى حد ذاته يتعــارض مع جوهر الدين الاسلامى ، ولذلك فهى مرفوضــة من قبل التيـــار الاســلامى اليوم • بمعنى أن كثيرا من الأطروحات الاسلامية ••• كلها ترفض العلمانية ، لسبب واحد : هو أن العلمانية فى رأيهم تؤدى الى تعطيل بعض الأحكام الشرعية ، وهى أحكام مطلقــة ، لذلك لابد من اخراج العمليــة العلمانية من الواقع الاسلامى ، والا ستكون مرفوضة) •

وما قاله الدكتور النفيسى يعبر عن ذكاء نفــاذ ، لمفــكر عــربى متخصص أدرك به فى موضــوعية تامة ، سر المأزق ، أو الأزمــة ، أو الهوة ، أو الفشل الحضــارى الذى تعانيــه البلاد العربية : انها تسير عكس التيــار •

ذلك — فى رأينــا وفى نفس الاتجــاه الذى ألمح اليه الدكتور النفيسى — لأن هــذه العلمانية — فضــلا عن تطابقها مع الالحاد — من شأنها مع ماتمثله من قوى خارجية — استفزاز التيــار الأصلى فى المجتمع الاســلامى ، وجره الى نقطة الصــدام معها ، دون انتصــار حاســم •

وهذا معناه دخول البــلاد فى حلقــة مفرغة لا نهاية لها من ظهور العلمانية ، ثم مقــاومة المجتمع لها ، ثم الصــدام ، ثم الظهور ، ثم المقــاومة ، ثم الصــدام ، ••• بغير أمل فى الاســلام الا بالقضاء على العلمانية ، وبغير أمل فى العلمانية الا بالقضــاء على الاســلام (وهيهــات) وهكــذا ، مع مايترتب على ذلك الصراع من فشل دائم

للبرامج الاقتصـــادية والسياسية والثقافية ، سواء بنى جزء من هذه البرامج على أسس علمانية ، أو بنى جزء منهـــا على أسس اسلامية ، وهذا هو سر الفشل الذى تعانى منه البلاد منذ بداية العلمانية فى بداية هذا القرن العشرين ، وهو سر مانشكو منه على الـــدوام من انقطـــاع « النفس » ، فى مشروعاتنا ، ما أن تبـــدأ قوية ، حتى تنتهى خامدة •

ومن هنـــا فانه لابد لتيـــار العلمانية من أن يختفى كشرط أساسى لبناء الوطن ، وبناء الانسان •

الفصل الرابع

العلاقة بين العلم والدين

تحدثنا فى الفصل الأول عمـا نعنيه بالتيارات الفكرية المعاصرة ، وقلنـا ان هـذه المعاصرة تعنى فى نظرنا استبعاد المنـابع القديمـة للتيـارات : تلك التى تنبع من ادعاء الاستناد الى العقل ، والتى تنبع من ادعاء الاستناد الى الوحى • والاتجاه الى المنبع المعاصر وهى ادعاء الاستناد الى العلم •

كذلك فنحن أثنـاء دراستنا للعلمانية فى الفصل الثانى أشرنا الى أنهـا — أى العلمانية — وهى تستبعد الدين أو تحاول القضاء عليه — فانها تتجه الى العلم أو تدعى الاستناد اليه •

ومن هنا تبرز أهمية دراسة العلاقة بين الدين والعلم •

ونحن لانعنى هنـا بدراسة هذه العلاقة بسرد أدوارها التاريخية التى مرت بهـا فى الحضارات المختلفة ، بقدر مانعنى بدراسة وضعية هذه العلاقات فى نظر المفكرين المعاصرين •

وهنا يمكننا أن نصنف هذه الأنظار الى ثلاثة اتجاهات :

الاتجاه الأول : وهو يرى ضرورة « الفصل » بينهما فصلا تاما • بحيث يكون لـكل منهما مجاله الخاص ، يقرر فيه بحرية مايشاء دون تدخل من الطرف الآخر على وجه الاطـلاق • فهو فصـل فى الوسائل والنتـائج على السواء •

يقول أميل بوترو فى كتابه « العلم والدين » :

لقد ظن البعض فى نهاية القرن التاسع عشر أن المشكلة بين الدين والعلم حلت بوضعهما فى ثنائيـة حاسمة يصبح فيهـا كل منهما مطلقا على طريقته ، ومتميزا عن صـاحبه تميز الذكاء والعاطفـة ، أو تميز العقل والقلب •

واستنادا الى هذه الثنائية لاح امكان وجودهمـا معا فى صـدر انسان واحد ، بحيث يقومان جنبا الى جنب على أن يتقـادى كل منهما بحث مبادىء الآخر ووسائله ونتائجه •

(أ) ويبدو أن هـذا الاتجاه هو ماتحاوله المسيحية المعـاصرة ، اذ لايرى المسيحى المعاصر بأسا فى التنـاقض بين مايقرره العلم فى الجامعة ، وبين ماتقرره المسيحية فى الـكتاب المقدس •

فالأناجيل تقرر نسب المسيح على نحوين متناقضـين تمـاما بين ماجاء فى انجيل متى وانجيل لوقا •

والعهد القديم من الـكتاب المقـدس يقرر ظهور الليل والنهـار والصباح فى اليوم الأول ، قبل خلق الشمس والنجوم فى اليوم الرابع وهـذا ما يتعـارض مع العلم • وفيـه أن الله خلق النبـات فى اليوم الثالث قبل أن يخلق الشمس فى اليوم الرابع وهذا ما يتعـارض مع العلم أيضا •

وفيه أن خلق العـالم يرجع الى حوالى ستة آلاف عام لا أكثر وهذا يتعارض مع العلم كذلك •

وفيه أن الطوفان عنـدما حدث اكتسح المعمورة كلها وانه حدث فى القرن الحادى والعشرين قبل الميلاد وهو عصر ظلت معه وبعـده حضارات سامقة فى مصر وبابل دون مساس ، وهـذا يتعـارض مع العلم أيضا [1] •

وهذه معارضات لاتحتمل الانكار ولا تحتمل التوفيق •

---

(١) انظر دراسة الـكتب المقـدسة فى ضوء المعارف الحديثة لموريس بوكاى نشر دار المعارف ص ٤١ الى ص ٤٧ ، ص ٥٣ •

وهنــا كان لابد للاتجاه الدينى المسيحى من أن يلجــأ الى وضع العلاقة بين العلم والدين فى وضعية الفصل بينهما •

يذهب المسيحى الى الـكنيسة ليستمع فى هــدوء تام الى تلك الروايات المتعارضــة مع العلم ، كما يمــارس عمليــة الاتحاد بجسد المسيح المرفوضة علميا ، دون أن تقشعر له شعرة فى جسد •

ثم يخرج من الـكنيسة ليقرر فى الجامعــة أو فى المعمل أو فى مركز البحوث العلمية : أمورا تتعــاض تماما مع ما استمع اليه هنــاك دون أن تقشعر له شعرة فى جسد أيضا •

وقــد لجأ الى هــذا الحل أيضــا — الفصل التــام بين العلم والدين — بعض المستغربين من المسلمين الذين اعتنقوا مذاهب الحادية — وضعية ، أو وضــعية منطقيــة أو مادية ، أو ماركســية الخ — وعنــدما طعنوا فى السن ، أو رجعوا الى أوطانهم وجدوا صراعا داخليا لم يصل بهم الى حد الاعتراف ، بالالحاد أمام أنفسهم أو أمام الناس فباركوا هــذا الحل ونادوا بالفصل ، وتوزيع الاختصاص ، وقالوا : نمارس الدين فى ســاعة هى للوجدان ، ونمارس العلم فى ساعة هى للعقل ، أو كما يقول — بعضهم — جعلوا فى صدورهم بيتين ، أو غرفتين ، (أو قلبين ؟؟) [٢] •

---

(٢) « ماجعــل الله لرجــل من قلبين فى جوفــــه » ولاحظ أن هؤلاء المستغربين عنــدما فعلوا ذلك لم يفعلوه لمعارضــة بين العلم والاســلام ولكن لمعارضة بين الاسلام وما اعتنقوه من مذاهب ، ومن الأغاليط الشائعة ان هؤلاء يروجون للعلم على أساس انه هو الذى يتجاوب مع «العقل» ويغذيه بينما الدين يخص العاطفــة • وهم فى ذلك واهمــون أو جاهلون بالتطور الذى صار اليه العلم : فالعلم يتصل بالمشاهدات والخبرات اليومية المباشرة ليستخرج منهــا مبادىء • اما العقل فهو يتصل بالبديهيات الجلية ليستخرج منهــا فلسفة •

يقول فيليب فرانك « وضع مبادىء نستطيع ان نستنبط منها تطبيقات =

يدخلون احداها فى ساعة ، والأخرى فى ساعة أخرى ، دون أن يكون لأحد القلبين سلطة أو مراجعة على الآخر .

=

وحقـــائق مشهودة هو مانسميه اليوم « علمـــا » والعلم لايهتم كثيرا بما اذا كانت هـــذه المبـــادىء معقولة أم لا . فهذا أمر لايعنى العالم كعالم . وفى كثير من الـــكتب الدراسية نجد ما ينص على أنه ليس من المهم اطـــلاقا أن تكون هذه المبـــادىء معقولة ، وتذكر هذه الـــكتب أن مبادىء علوم القرن العشرين كالنســـبية ونظرية الـــكم ليست معقولة على الاطـــلاق ولـــكنها متناقضة فى ظاهرها ومشوشة .. وعندما ظهرت مبادىء النسبية وميكانيكا الـــكم قابل بعض الناس : ربما أمكن استنباط نتائج مفيدة من هذه المبادىء ، ولـــكن المبـــادىء نفسها غامضـــة ، بل هى فى ظاهرها متناقضة . انها تخدم غرضـــا معينا الا أنهـــا ليست جلية ، اننـــا لانفهم النظريات كمـــا نفهم الميكانيكا النيوتونية) فلسفة العلم ص ٣٣ .

ومما يزيد الأمر وضوحا فى الانفصـــال الذى يزداد يوما بعد يوم بين مجال التكفير العلمى والتكفير الفلسفى او العقلى : مايقوله فيليب فرانك :

(كثير من المصطلحات التى كانت تستخدم من قبل فى لغـــة العلم لم يعد ممكنا أن تستخدم الآن ، لأن المبـــادىء العامة للعلوم المعاصرة تستخدم الآن مصطلحات أكثر نأيا عن لغـــة الفطرة السليمة . فالتعبيرات من طراز « العقل » و « المـــادة » و « السبب » و « النتيجـــة » هى اليوم مجـــرد تعبيرات فطرة سليمة . وليس لها مكان فى الحديث العلمى الدقيق .

وعلينا لكى أن ندرك هذا التطور أن نقارن بين فيزياء القرن العشرين ، وسالفتها فى القرن الثامن عشر والتاسع عشر .

استخدمت الميكانيكا النيوتونية مصطلحات مثل « الكتلة » و «القوة» و « الموضع » و « السرعة » بمعنى يبدو قريبـــا — الى حـــد ما — من استخداماتها فى الفطرة السليمة .

وفى نظرية انيشتاين للجاذبيـــة نجـــد مصطلحات مثل « احـــداثيات الحدث » ، أو « الجهود المتـــدة الـــكمية » وهى مصطلحات تحتـــاج الى سلسلة طويلة من التفسيرات لـــكى ترتبط بلغة الفطرة السليمة .

=

أما الاسلام فهو لا يقبل هـذا الحل من ناحية ، لأنه هو الاسلام الشامل كما سبق أن أوضحنا• ولأنه غير مضطر لشىء منذلك منناحية أخرى ، لأنه كما يقول موريس بوكاى عن القرآن (ان القرآن لا يخلو فقط من متناقضات الرواية — وهى السمة البارزة فى مختلف صياغات الانجيل ، بل هو يظهر أيضا — لـكل من يشرع فى دراسته بموضوعية وعلى ضوء العلوم — التوافق التام مع المعطيات العلمية) (٣) •

ونحن لانشير الى هذا التوافق الذى أشـار اليه بوكاى باعتباره صياغة للعـلاقة بين العلم والدين ، ولـكن باعتباره دليلا على عـدم اضطرار المسلم الى وضعية « الفصل » •

(ب) وبعد : فهل وضعية « الفصل » هذه مقبولة علميا أو مقبولة دينيـا ؟•

وللرد على هـذا السؤال نقول بالنفى ، على المستويين ، العلمى والدينى •

أما العلمى فلأن البحث العلمى فى شخصية الانسـان ينتهى الى كونها وحـدة متـداخلة متكاملة لاتستقر بغير التمازج والتوافق بين عناصرها المختلفـة •

=

ونجد هـذا الأمر أكثر صحة فى مصطلحات نظرية الـكم مثل « الدالة الموجبـة » و « مصفوفات الموضع » .. الخ .. وقـد تحـدث انيشتاين فى محاضرة له فى اكسفورد عام ١٩٣٣ عن « الفجوة التى يتزايد اتساعها بين المفـاهيم والقوانين الأساسية من ناحية والنتـائج التى يجب أن نربطها بخبرتنـا من ناحية أخرى ، وهى الفجوة التى تتسع باضطراد » .

يقول هربرت دنجل : اننى عنـدما أؤكد على ضرورة تحرير الفلسفة العلمية من تطفل المفاهيم « المستساغة » « مفاهيم الفطرة السليمة » فانى لا إفعل ذلك للحط من قيمة الفطرة السليمة وانما لأن الخطر الأكبر انما يكمن اليوم فى هذا التشويش) انظر فلسفة العلم ص ٧٠ — ٧١ أهـ الهامش .

(٣) دراسة الـكتب المقدسة فى ضوء المعارف الحديثة لموريس بوكاى ص ٢٨٥ .

فليس فى مقدور انسان أن ينشىء فى داخله قلبين ، أو أن يعزل فى صـــدره بين حجرتين لتكون احداهمـــا مخـــزنا لقـــرارات تنكرها مخزونات الحجرة الأخرى ، وكما يقول اميل بوترو عن هذه الوضـــعية (ان المشكلة حلت بذلك فى عالم التصورات أما فى عالم الواقع فليس الأمر كذلك ، اذ أين نجد فى الانسان الحد الفاصل بين العقل والقلب؟ وأين نجد فى الطبيعة الحد الفاصل بين الأجسام والأرواح •••) ؟

انه لا مفر تحت وضعية الفصل هذه من أن تصير شخصيةالانسان الى أحد أمرين :

اما المرض والانحلال ، واما التوثب لغلبـــة أحد الجانبين للآخر، وهذا هو سر الانفصـــام الذى يتغلغل فى شخصية المسيحى المعاصر ، المتعرض لتيـــار العلم وتيـــار الدين ، أو هـــو سر الانغـــلاق الذى يحتمى فيـــه بتيار ضد تيار آخر •

وأما على المستوى الدينى : فهذه الوضعية مرفوضـــة اسلاميا ، لأن الاسلام هو الاسلام الشامل ، وهو الذى يحتوى الشخصـــية من جميع أقطـــارها ، ولا يرضى لها بغير ذلك [٤] وهكذا ينبغى أن يكون الدين •

الاتجـــاه الثـــانى :

الوضعية الثانية المقترحة لارساء العلاقة بين العلم والدين : هى وضعية « التوفيق » [٥] بينهما فى النتـــائج : وان اختلفت الوسائل• ومن الواضح أن هـــذا الشعار : شـــعار التوفيق انما يرفع فى ظل سيادة العلم فهو يعنى أن يكون المرجع فى عملية التوفيق هذه الى العلم

---

(٤) انظر ماكتبناه سالفا عن « الاسلام الشامل » وانظر كتابنا « معالم شخصية المسلم » •.

(٥) نقول التوفيق ، ولا نقول التوافق •

لا الى الدين ، ومعنى هــذا أن يعاد تفســير الدين أو نصوصــه أو معطيــاته — عنــدما يبــدو أنها تتعارض مع العلم — لــكى تتفق مع مقررات العلم التى يستقل بتقريرها بحرية كاملة ، دون وصــاية من أحد •• وشرط هــذا التوفيق أن يبــدو النص الدينى متقبلا للتفسير الجديد ، دون محاولة التخلص منه •

ويبدو أن هــذا الاتجاه تمارسه المسيحية جزئيا عندما يمن عليها الحظ بامكانية هــذا التوفيق ، كما يمارسه بعض الدعاة فى الاســلام وهو سهل عليهم ، لمــا سبق أن قررناه عن خلو القرآن من التنــاقض مع العلم •

ونحن نقر هــذا الاتجاه فى مجال الدعوة التى تستهدف الهداية، ولا نقره فى مجال تأصيل القضية : قضــية صياغة العــلاقة بين العلم والدين • ذلك لأنه فى مجال الدعوة يبــاح للداعية أن يؤثر فى المدعو بما يتيسر له من وسائل ، اذ العبرة فى الوصول الى هــداية المدعو ، وعندئذ للداعية أن يتوسل لذلك بالقــدوة الشخصــية وله أن يتوسل لذلك بنوع من السلوك المحبب ، وله أن يتوسل لذلك باعتماد المــدعو لوسيلة الفلسفة أو العقل ، وله أن يتوسل لذلك باعتماد المدعو لوسيلة الوجدان ، وله أن يتوسل لذلك باعتماد المدعو لوسيلة « العلم » •• الخ، اذ العبرة فى النهاية بجذب المدعو الى ساحة النجاة ، وأمن الايمان ، بالمقياس الذى يرتاح اليه •

أما فى مقياس النظر الأصولى فى وضــعية العــلاقة بين العلم والدين ، فذلك الوضع — وضعية التوفيق — غير مقبول فى مقيــاس الفلسفة العلمية أو فى مقياس العقيدة الدينية على السواء ••

(أ) أما انه غير مقبول فى باب الفلسفة العلمية فذلك :

لأن العلم لا يقر بمشروعيــة اســتفادة الدين به ، وهو يرى أن تصديقه لبعض حقــائق الدين انما يقع اتفاقا أو على أحسن الفروض

ظاهرة تفتقر الى تفسير تجريبى وهو على كل حال اتفاق لاقيمة له فى نظر المنهج العلمى .

ومن وجهة نظر المنهج العلمى ، وكما يقول أحد فلاسفة الالحـاد المعـاصرين (أرنست هيكل ١٨٤٠ — ١٩١٩) . (الأديان تقوم على الوحى ، والعلم لا يعرف الا التجربة ، ولا قيمـة فى نظره لأى فـكرة اذا لم تكن تعبيرا مباشرا عن وقائع أو نتيجة لاستنباط محدود قائم على القوانين الطبيعية) .

وكما يقول أحد الفلاسفة المعاصرين (أميل بوترو) : ان العـلم أصبح يكفى نفسه فى نموه وتطوره ، وان أول سمة للروح العلميـة من الآن فصاعدا هى عدم التسليم بأى مبـدأ للبحث ، وأى مصـدر للمعرفة سوى التجربة فالعلم يوضع فى نظر العـالم كأنه أمر أولى مطلق ، ومن العبث أن يطلب منه اتفاقه مع أى شىء ...) .

(وبالرغم من أن العلم الحديث يتسم بالتواضع ، ويعترف بنسبية المعلومات التى يتوصل اليهـا ولا يدعى لها الصحة المطلقة ، الا أن ذلك لايعنى — فى مفهوم العلم التجريبى — انه يعترف بأن خارج الميدان الذى يتحرك فيـه العلم يوجد ميدان آخر يبـاح لأنظمـة أخرى أن تعيش فيـه ، ولـكنه على العكس من ذلك يعمل على أن يمنع العقل البشرى من ارتيـاد أى ميدان ليس فى متناول العلم ، لأنه اذا كان ثمة شىء لايمكن أن يعرفه العلم فهذا الشىء من باب أولى لايمكن أن يعرفه أى نظام آخر) .

والعلم وفقا لاحساسه — المزيف — بالـكفاية التى يختص بهـا وحده فانه حين يقول : انى أعلم فمعنى ذلك أن الشىء الذى يعلمـه موجود بالنسبة للعقل البشرى ، وحين يقول العلم : لا أعلم فهذا يعنى أن أحدا لن يدعى المعرفة .

وبنـــاء على ذلك فان العلم الحديث المتواضع العارف لحدوده ، ليس أكثر ملاءمة للدين ، من العلم الدجماطيقى ، فالدين من وجهة نظر العلم — فى الحالتين — ليس الا مجموعة تصورات تعسفية • ولا يكفى — من وجهة نظر العلم — أن نتعلل بأن ما نتمسك به مما يتجاوز حدود العلم يمكن أن يأخذ مكانته باعتباره « اعتقادا » لأن « الاعتقاد » من وجهة النظر العلمية ليس له قيمة الا اذا كان ثمرة ملاحظة وتجريب[٦] •

(ب) أما ان هذا الاتجاه — أعنى وضعية التوفيق على أساس العلم — غير مقبول دينيا :

فذلك لأن هــذا التوفيق — وقــد أشرنا الى أنه يتم على أساس العلم — يلغى جوهرية الدين ويسقطه من منزلته •

ذلك لأن جوهر الدين يقوم فى كونه متبوعا لا تابعا ، انه كلمــة الوحى ولا يمكن أن تنتظر كلمة الوحى أو تتعطل أو تتحور تبعا لــكلمة العلم مهما تكن درجته من الظن أو درجته من اليقين •

والدين بغير وحى ليس دينا •

والدين بغير اتباع ليس دينا •

وعلى هــذا فان الدين ينكر هــذه الوضــعية المقترحة وضــعية « التوفيق » بينــه وبين العلم ، وهى كما قلنــا تقــوم على ســيادة كلمة العلم •

---

(٦) أنظر مزيدا من البحث فى هذا الموضوع فى كتاب « العلم والدين » للفيلسوف الفرنسى المعاصر اميل بوترو •

وانظر ما كتبناه فى كتابنا « العقيدة الاسلامية بين الفلسفة والعلم » فى البــاب الثالث عن عدم كفاية العلم فى مجال المعرفــة ، وعــدم كفايته فى مجال القيم •

وقد يقول قائل : ان هذه التبعية ليست للعلم الا لأنه حق ، والدين لايتعارض مع الحق [٧] •

وهنا نحيل مرة أخرى الى المنهج اجمالا فنقول :

منهجيـــا من الذى يحق له أن يعلن أنه توصـــل الى « الحق » ؟ ألوحى ؟ أم جهد بشرى فى الفلسفة ؟ أم جهد بشرى فى العلم ؟

من الواضح أن « الدين » لا يمكن أن يتنازل عن سيادته المنهجية الا بالتنازل عن كيانه وجوهره •

كما نود أن نفصل الـــكلام فى هذه المسألة بعض التفصـــيل من ناحية المسائل التى يتقدم بها العلم •

ومسائل العلم يمكن تصنيفها الى ثلاث مجموعات : (١) النظريات كنظرية النشوء والارتقاء ، (٢) والقوانين كقانون الجاذبية (٣) والوصف المبـــاشر للوقائع مثل احصائية لحركة المرور فى شارع أو ميدان ، أو الـــكشف عن أطوار التكوين للجنين •

ومن الواضح أنه لا مجال لافتراض التعارض بين الدين الصحيح وبين الوصف المباشر للوقائع ، وذلك لسبب بسيط هو أن هـــذا الوصف لم يكن يوما ولن يكون ملـــكا للعلم على أى نحو من الأنحاء •

انه مقدمة للدخول فى العلم • والعلم انما يبدأ بوضع هذا الوصف فى نظرية أو قانون •

يقول فيليب فرانك فى كتابه فلسفة العلم :

(ان مجرد تسجيل المشاهدات لا يزودنا الا بنقاط « راقصـــة » وأن العلم لا يبـــدأ الا اذا استطردنا من هـــذه الخبرات المستساغة

---

(٧) وهذا أشبه بما قاله ابن رشـــد فى فصل المقال فيما بين الشريعة والحكمة من الاتصال •

« خبرات الفطرة السليمة » الى الأنماط البسيطة للوصوف التى نسميها « نظريات » ...) [٨] .

لنتخيل اننـــا أسقطنا جسما فى الهواء . وليكن مثلا قصاصة ورق خفيفة « مثل ورقة السيجارة » فماذا يحدث ؟ اذا فعلنـــا ذلك مرات عديدة — مئات أو آلاف أو مئات الآلاف من المرات — فسوف نلحظ أن تحرك الورقة يختلف فى كل مرة عن تحركها فى المرات الأخرى .

وتراكم هذه المشاهدات ليس علما .

وليست هذه هى الطريقة التى يعمل بها الفيزيائى مالم تـــكن فى مجال غير متقدم كثيرا حيث لايكاد يعرف عنه أى شىء .

واذا درسنا الفيزياء فسوف نعرف بعض المبـــادىء عن الحركة المنتظمـــة والحركة المتسارعـــة ، والحركة الناشئة عن الجمع بين هاتين الحركتين . هذه خطط من خطط الوصف ويجب أن نبتـــدع هذه الخطط قبل أن نختبرها ، لـــكن كيف السبيل الى ابتداعها ؟ هنا يتدخل الخيال البشرى . أننـــا نحاول أن نتخيل خطة بسيطـــة ولـــكن ماهو المعنى المقصـــود بالبساطة ؟ اننـــا يجب أن نحاول كل الخطط المختلفة التى يمكن تخيلها حتى نعثر على الخطة التى تصـــف لنـــا بالتقريب الحركة الحقيقية لقصاصة الورق الساقطة فى الهواء) .

ثم يقول : (ويمكننا أن نستنبط من الخطة أشياء عديدة معينـــة ، ولـــكننا لايمكننا أن نستنبط كل شىء) [٩] .

ويقول فيليب فرانك أيضا :

(من المهم أن نتذكر دائما أن العلم ليس جمعا للحقائق . فليس

---

(٨) انظر فلسفة العلم لفيليب فرانك ص ٢٤ ومابعدها .

(٩) فلسفة العلم ص ٢٤ — ٢٥ .

هنـــاك علم يبنى بهـــذه الطريقة • فاذا جمعنا نصوصا تبين الأيام التى يسقط فيهـــا الجليد على لوس انجلوس فهـــذا ليس علما ، ولا يكون لدينـــا علم الا اذا وضعنا مبادىء نستطيع أن نستنبط منها الأيام التى سوف يسقط فيها الجليد على لوس انجلوس • وفـــوق ذلك اذا كانت المبـــادىء التى نضعها تبلغ من التعقيد حدا مثلما تبلغـــه الخبرة ذاتها فلن يكون ذلك اقتصادا ولن يكون علما بمعناه المحدد • ان عددا كبيرا من المبـــادىء يستوى مع مبدأ واحد شديد التعقيد •••

اذا لم يكن هنـــاك عدد صغير من المبـــادىء ، واذا لم يكن هناك تبسيط فلن يكون هناك علم •

واذا قال امرؤ انه لايريد معـــادلات ، وان مايريـــده هو مجرد الحقـــائق كلها ، فانه يكون ساعيا فقط الى الخطوة التمهيدية للعلم ، وليس الى العلم نفسه [١٠] •

فاذا نحن استبعدنا الحقائق المفردة من مجال بحث العلاقة بين العلم والدين ينتقل بنـــا الـــكلام عن هذه العـــلاقة فى مجال النظريات والقوانين العلمية •

وهنا نعود لقول القائل : ان العلم يمثل « الحق » •• لنحيل الى ماتقرر فى الأوســـاط العلميـــة من أنه لا يقين فى العلم ، وانما ظنون وظنون ، تقدم للتجربة ، لتمتحن فيهـــا ، لتتعدل الى ظنون أخرى ، لتقدم للتجربة ، لتمتحن مرة أخرى ، وهكذا بغير نهاية [١١] ، وهـــذه هى نقطة الضعف فى العلم ، وهى سر الاستمرار فيه أيضا •

ان الاتجـــاه الوضـــعى المعـــاصر يذهب الى اعتبـــار القـــانون العلمى اختراعا وليس كشفا •

---

(١٠) فلسفة العلم لفيليب فرانك ص ٦٦ — ٦٧ •

(١١) أنظر « مبحث حتمية القوانين الطبيعيـــة » فى كتابنا (الاسلام والاتجاهات العلمية المعاصرة) •

يقول فيليب فرانك :

(يبحث العـالم عن صيغة يستطيع المرء أن يستنبط منها الوقائع المشاهدة ويتطلب العثور عليها تصورا خلاقا من جانب العالم • واذا أردنا أن نصف هـذا العثور على الصيغة فان هنـاك طريقتين لهـذا الوصف •

فيمكننا أن نقول : ان هذه الصيغة من اختراع العالم ، وانها لم يكن لها وجود قبل أن يعثر عليها العالم • اننـا نقارنها باختراع مثل اختراع التليفون الذى لم يكن موجودا قبل أن يخترعه « الـكسندر جراهام بل » فالفرض أو الصيغة هى نتاج للتصور البشرى ، نتـاج لقدرة العالم على الاختراع • ويجب اختبارها بالتجربة الحسية •

ومع ذلك يمكن أن نقول : ان الصيغة كانت موجودة دائما ضمن الحقـائق المتطورة وقد اكتشفها العالم كما اكتشف كولومبس أمريكا ، والعالم ليس مخترعا ، انه « يبصر » الصيغة « بفطرة البـاطن » •• فالعالم يستخدم البصيرة فى اكتشاف الصيغة) •

وهنا يأتى السؤال : أى الطريقتين نختار ؟

يقول فيليب فرانك :

(تتفق الطريقـة الأخيرة فى وصـف نشاط العـالم مع التقليد العظيم للفلسفة المدرسية « الـكلاسيكية » •) •

وهذه الفلسفة كانت ــ كما يقول هانزريشنباخ ــ (تعتقد بوجود بصيرة رؤية بواسطة العقل تناظر الرؤية بواسطة العين) [١٢] •

---

(١٢) هذا التماثل بين الرؤية بالعقل والرؤية بالعين هـو الذى دعا الفلسفة الى القول بأن البدهيات غنية عن البرهان ، أنظر فلسفـة العلم ص ٣٧ •

أما الطريقـــة الأولى التى تصف العـــالم بأنه مخترع فهى كمـــا يقول فيليب فرانك : (أقرب الى خط الفلسفة الوضعية ، والفلسفـــة الذرائعيـــة) .

ويقول : (يقول المحدثون من العلماء ان الفروض والصيغ من نتاج التخيل ، وانها تختبر بالتجربة والخطأ ..) [١٣] .

وسواء كان هذا أو ذاك فهى تتزحزح عن مرتبة اليقين .

ان العلماء يصرحون اليوم بأن التجربة تعزز الغرض ولا تثبته ، وانه لا يوجد مايسمى « التجربة الحاسمة » .

يقول فيليب فرانك : (ان الفرض لا يمكن « اثبـــاته » فالتجربة « تعزز » أحد الفروض . فاذا لم يجد شخص ما حافظته فى جيبـــه فان ذلك يعزز الفرض بوجود لص بالمقـــربة ، ولـــكنه لايثبت هـــذا الفرض ، فقـــد يكون هـــذا الشخص قـــد ترك حافظتـــه فى بيته . ومن ثم فان الحقيقـــة المشاهدة قـــد تعزز فرضـــا آخر بأنه نسيها . وأية مشاهدة تعزز كثيرا من الفروض . والمشكلة هى أن تحدد درجة التعزيز المطلوبة فالعلم يشبه قصـــة بوليسية . ان كل الحقائق قـــد تعزز فرضا معينا ، ولـــكن الفرض الصحيح قد يكون مختلفا اختلافا كليا . ومع ذلك يجب أن نقر بأنه ليس لدينـــا معيار للحقيقة فى العلم غير هذا المعيـــار) .

ويقول بيير دوهيم : (ان التجـــربة الحـــاسمة فى الفيزياء أمر مستحيل) [١٤] ومن ذلك كله يتبين لنـــا أن مايقدمه العلم من النظريات والقوانين لايصـــل الى مرتبـــة اليقين . وهى — أى هـــذه النظريات والقوانين — ليست « الحق » الذى ترتعد أمامه الفرائص ، ويتحدى الايمان ، أو يستولى عليه .

---

(١٣) فلسفة العلم ص ٣٤ ، ٣٥ .

(١٤) فلسفة العلم ص ٣٦ ، ص ٥٥ .

الاتجــاه الثــالث :

وهو يرى ضرورة المواجهة الهجومية بين الدين والفلسفة العلمية، المتخفية وراء العلم — ليكون لاحدهما الــكلمة العليا •

وهنــا يظهر تيــاران :

(أ) تيار اسلامى : يجعل الــكلمة العليا للدين ، وعنــدئذ فهو يعترف للعلم بوسائله ، ولــكنه « يستخدمها » لأهدافه العليا ، ليصل منها الى « نتــائج » تتفق مع هذه الأهداف ولا تختلف معها •

واذن فهى معركة بين « الفلسفة العلميــة » والدين ، ينبغى فى نظر هــذا التيــار أن تنتهى ، لا بالقضاء على العلم ، ولــكن باخضاعه للدين باعتبــاره خادما له ، أو وسيلة من وسائله (١٥) •

وانك لتجد الأمر على هذا النحو — أى صــيرورة العــلم خادما للعقيــدة — فى أشــد البيئــات تمسحا بشعار العلم ، ففى مقــال نشرته البرافدا فى عام ١٩٤٩ يقول رئيس أكاديمية العلوم فى الاتحاد السوفيتى س• أ• فاينلوف تحت عنوان « لينين والمسائل الفلسفيــة للفيزياء الحديثة : (ان الفيزياء السوفيتيــة (••) تبنى عملها على ما اعتنق العــالم من المــادية الديالــكتيكية) ، وليس العكس ، وفى مقال آخر نشرته مجلة أســبوعية انجليزية « تاتشر » فى مايو ١٩٥٠ يقول أحد أعضــاء هذه الأكاديمية (اننــا أعلنا مرارا ولا نزال نعلن أن العلم انما هو علم حزبى طبقى) •

ولسنا بحاجة الى أن نؤكد أن هذه الوضعية هى السائدة فى الجانب الآخر من الحضارة الحديثة اذ يقوم العلم بدوره كخادم للعقيدة السائدة: تلك التى تقوم على مفاهيم المتعــة الحسية ، والقوة المــادية ، وهى

---

(١٥) انظر ماكتبناه سابقا عمــا يعد به الاســلام لمستقبل الحضارة فى اخضاع التكنولوجيا للهدف ، الالهى .

مفاهيم ورثتهـــا الحضارة الأوربيـــة الحديثة عن الحضارة الرومانيـــة القديمة ، وأكدتها أنظـــار الفـــلاسفة الـــذين قيض لهم السيطرة على العقل الحديث •

وهذا الاتجاه لايفترق فى جوهره عن الدور الذى كان يمارســـه رجال اللاهوت فى العصـــور الوسطى فى أوربا ، وكما يقول الأستاذ اسماعيل مظهر فى مقدمتـــه لترجمـــة كتاب بين الدين والعلم (قامت لدى اللاهوتيين فـــكرة ثابتـــة فى أن العلم لايصح أن يبشر فيه بأقل مخالفة لمـــا جاءت به الأسفار المقدسة والمتون) •

هكذا الأمر فى جميع الحضـــارات والعصور ، يحتل العلم مكانته تحت أقـــدام الدين ، والفرق بين حضـــارة وأخرى ، وبين عصر وآخر انما يأتى من طبيعـــة الايمان الذى تعتنقه الحضارة أو يعتنقه العصر، وانه فى ظل العقيدة الاســـلامية لم يجد العلم نفسه فى حالة حصار أو احبـــاط ، وانما كان الأمر على العكس من ذلك ، وجد العلم نفســـه — والعقل أيضا — محررا من أغلال النظم المزيفة الصادرة عن غير الله تعـــالى ، مالـــكا الأمان فى رحاب النظـــام الالهى ، ومن ثم كان من الطبيعى أن تأخذ النزعة العلمية فى الحضـــارة الاسلامية أعلى مقـــام أخـــذته فى التـــاريخ • ولسنا نريد أن نكتب فى هذا المقام كلاما مكررا عن أستاذية الحضارة الاســـلامية للمنهج التجريبى الذى قامت عليه الحضارة الحديثـــة ، فهذا ماشهد به المؤرخون جميعا ، وعلمه النـــاس جميعا ، ولـــكنى أكتب لأنبـــه الى تحديد وضـــعية العـــلاقة بين كل منهما ، لأنه بدون هـــذا التحديد سندخل فى متاهات محيرة ومهـــاو مدمرة ، لاتقل خطورة عن الظن بحتمية التعارض بينهما •

وكما أوضحنا فان هـــذه الوضعية لا يمكن أن تقوم على الفصـــل بينهما — كما هو الأمر فى التـــاريخ القديم والحديث على السواء — كما لا يمكن أن تقوم على فـــكرة التكامل لأن هـــذا التكامل مرفوض اســـلاميا ، بقدر ماهو مرفوض واقعيا •

انه لابد من أن يقوم العلم بدوره المقدور له دائما : خادما للدين.

واذا كنا قد أثبتنا ذلك من الناحية التاريخية فان اثباته من الناحية النظرية لا يقل أهمية . ذلك أن العلم لا يمكنه أن يمارس دوره الا فى ظل مجموعة من القيم تقوده فى الطريق ، وكما يقول الأستاذ فانيفاربو شى الرئيس الفخرى لمعهد ماساشوستش للتكنولوجيا (الذى يتبع العلم اتباعا أعمى ولا يتبع الا العلم يصل الى سد لايستطيع أن يتجاوزه ببصره) . ويكفى أن نضرب هنا مثلا لحالة قد يظن أنها خالصة للعلم ، تلك هى اذا ما أردت من أحد العلماء أن يصمم لك طائرة ان الأمر فى هذه الحالة لا يمكن الخطو اليه خطوة واحدة الا فى ظل مجموعة من القيم ، ذلك انه لو استعمل العالم — مثلا — مادة ثقيلة أكثر مما يجب لكان مخطئا ، لما يؤدى اليه ذلك من عجز الطائرة عن التحليق ، لكننا فى هذه الحالة نكون قد استنجدنا بحكم قيمى ، يوضح لنا أهمية « التحليق » وكذلك الأمر فى تعلقه بجوانب أخرى من هذه العملية حيث نستند الى مجموعة من القيم الأخرى التى توضح الغاية المرجوة من صنع الطائرة ، وقد تتضارب الغايات التى يهدف المرء اليها فيحاول صنع طائرة صالحة للعمل بأدنى تكلفة ممكنة ، أو طائرة تستطيع التحليق الى أعلى ارتفاع ممكن ، أو قد تكون الغاية هى السرعة القصوى ، أو المتانة القصوى ، أو السلامة القصوى ، ومن المحتمل أن تكون الأهداف المتباينة مما لا يمكن تحقيقه الا بوسائل متباينة ، لذلك فسلوك العالم يتوقف فى النهاية على تقرير الهدف الذى نقدمه له ، وتقرير هذا الهدف يتوقف على تقرير القيمة التى نعتنقها .

وكما يقول أحد فلاسفة العلم : انك اذا سألت عالما عن الطريق الواجب عليك أن تسلكه لكان جوابه الوحيد الذى يمكنه الادلاء به هو « هذا يتوقف الى حد بعيد على المكان الذى تقصده » .

واذا كان ذلك يبين لنا أنه لابد من أن يعمل العلم فى ظل مجموعة من القيم السائدة ، فانه ينبغى أن يكون من الواضح أننا ان لم نبادر الى تنمية هذه القيم وتصحيحها بوصاية العقيدة والايمان ، فان العلم يصبح أداة طيعة للقيم المنهارة المدمرة •

وتتضح خطورة هذه القضية أكثر ماتتضح فى ظل التقدم الهائل الذى أحرزه العلم الحديث • ولقد كان الفيلسوف الفرنسى المعاصر هنرى برجسون على حق حينما قال (يتطلب جسدنا المتوسع — بفعل التقدم العلمى الحديث — زيادة فى الروح ••) ، وكما يقول العالم الفيزيائى المعاصر الشهير لويس دى برولى (على قدر ماتتزايد الوسائل التى أودعها العلم والتقدم الصناعى تحت أيدينا للعمل وبالتالى للتدمير فان الخراب الذى نستطيعه يصبح مداه أعظم اتساعا ، والجراح التى تتولد عن ذلك لاتشفى سريعا) •

ويكفى أن نشير هنا الى امكانية واحدة رهيبة يشير اليها العالم الشهير تلك هى أنه منذ أكثر من نصف قرن استخدم الفوضويون القنابل على نطاق واسع وألقوها على الناس فى الأماكن العامة ، أما الآن فان العصابات الدولية أصبحت قريبة من تصنيع القنبلة الذرية : (فكيف يكون الأمر لو نجح الفوضويون الجدد فى استخدامها فى تهديد مدن بأسرها •••) •

هنا نمسك بتلابيب المأساة وجوهرها الحقيقى • (ان كل زيادة فى قوة التأثير — يقدمها العلم — تزيد حتما القدرة على الاضرار وكما زادت قدرتنا على الغوث والاعانة زادت قدرتنا على الاساءة ونشر الدمار) •

هنا يصبح لمشكلة القيم مغزى أعظم مما كان لها فى أى عصر من العصور • بل ان خطر هذه المشكلة — مشكلة القيم — يعود ليؤثر فى الوضع الذى يحتله العلم نفسه ، وليتقاضاه ثمن ماقدمه من مساعدة للقيم المنهارة •

ويكفى أن نشير هنـــا الى نقطة تغيب عن كثير من الناس ، تلك هى أنه اذا كان العلم الحـــديث قـــد ازدهر فى ظل قيمة « الحرية » فانه فى الآونة الأخيرة — وبفضل ما أحرزه من تقدم رهيب — أصبح من الضرورى أن يدخل شيئا فشيئا الى قبضة السلطة الحاكمة ، اذ أين هى السلطة التى تجد أن بامكانها أن تبتعد عما يحدث فى معسكر العلم مع مايمثله ذلك من تهديد خطير لأهداف المجتمع ، ان الدولة هنا لاتجد مناصا من أن تعنى بالبحث العلمى أكثر من ذى قبل ، بل تجد نفســها مضطرة الى السيطرة على أسرار معينة ، ومضطرة أيضا الى أن تخضع النشاط العلمى للتنظيم والتفتيش اللذين لم يتعود عليهما •

وكما يقول عالم الفيزياء الذى سبق أن ذكرناه :

(انه حتى فى الولايات المتحدة لم يعــد العلماء الذين يعرفون أسرار الذرة يملــكون حرية الحركة ••)

وهنا يتعرض العلم الحــديث لدور تاريخى مناقض للدور الذى انتعش فى ظله ، وتعــود مشــكلة القيم لتؤكــد دورها الرئيسى فى قيـــادة العلم •

واذا كنا قـــد توصلنا الى هـــذه النتيجة وهى قيادة القيم للعلم، فانه من الواضح أن نسلم بقيـــادة العقيـــدة له ، لأن القيم لا تستقى الا من العقيدة ، ولا تقوم الا عليها • وهنـــا نود أن نعلن أن الاسلام وحده هو الذى يقدم مجموعة القيم التى تضع العلم فى مناخ يسمح له بالنمو الى حيث يشاء ، وتقوده فى نفس الوقت فى طريق التقـــدم « بالانسان » •

ويكفى أن نشير هنـــا الى حقيقـــة ، تلك هى : ان من يوكل اليه صياغة هـــذه القيم ينبغى أن يحيط علما بكل شىء ، انه اذا كان الانسان جزءا من هـــذا الـــكون ، يؤثر فيه ويتأثر به فانه من المقرر أنه لايمكن أن تعرف الجزء معرفة دقيقة حتى نعرف الـــكل الذى هو منه جزء •

وكما يقول الأستاذ مونتاجيو أحد علماء الأنتروبولوجيا المرموقين وهو بصدد الدعوة لاستخدام العلم فى تحسين حاضر البشر ومستقبلهم (ان التعليم الضئيل شىء خطر ، وانه لمن الضرورى والحالة هذه التزام أعظم جانب من الحــذر عند بحث جميع المشكلات أو التوصيات التى تهــدف الى التحكم لا فى حيــاة الأحيــاء فحسب ، بل أيضا فى حياة الذين لم يولدوا بعد) •

ومن هنــا فاننــا نقول ان الــكلمة فى هذا المقام لمن يحيط علما بالــكون ، انهــا ليست للعلم أو الفلسفــة أو الانســان ، وانما هى للوحى الذى يعبر عمن يحيط علما بكل شىء •

« وكان الله بكل شىء محيطا » ١٢٦ النساء •

« ان الله قد أحاط بكل شىء علما » ١٢ الطلاق •

« ولا يحيطون بشىء من علمه الا بما شاء » ٢٥٥ البقرة •

« وخلق كل شىء فقدره تقديرا » ٢ الفرقان •

« ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير » ٤ الملك •

ان الله سبحانه وتعالى هو وحــده صــاحب الــكلمة لأنه وهو صانع الانسان يصبح من ثم — ونزولا على منطق التكنولوجيا أيضا — ليس لأحد غيره باعتبــاره الصــانع أن يرسم لك طريقة بناء المصنوع أو تشغيله •

وأنت اذا تجاوزت الصــانع فى تشغيل المصــنوع ، انتهيت الى تدمير المصنوع ، هــذه بدهيــة مستقاة من منطق العــلم ومن عالم الصــناعة معا ، ومن هنــا فاننــا اذا كنا بصــدد صياغة القيم التى تقود العلم فى طريق الانسان كان لامفر لنــا من الالتجاء الى صانع الانسان ، ويصبح الأمر من ثم لا مجال فيــه للدعوة الى علمنة القيم، وانما ينقلب الوضع لتعود الرأس الى مكانها الطبيعى ، وليصبح العلم هو الرجلين اللتين تخطوان بالانسان وفقا للأوامر الصادرة من الدين •

والنتيجة النهائية لما كتبناه هى أنه يلزم فى الوقت الراهن أن نهتم بوضعية العلاقة بين العلم والدين ، وانه لامفر واقعيا ونظريا من أن يحتل العلم مكانته فى هذه الوضعية : خادما مطيعا للدين ٠

وهذا هو التعبير الصحيح عن التيار الاسلامى فى وضعية المواجهة بين العلم والدين ، تنتهى فيه هذه المواجهة الى تسليم العلم قياده للدين ٠

***

(ب) وهناك تيار الحادى يجعل الكلمة العليا للعلم ، وعندئذ فهو ينكر على الدين نتائجه ووسائله على السواء ، ويحاول أن يقتلعه من جذوره ٠

واذن فهى معركة بين العلم والدين ، ينبغى فى نظر هؤلاء أن تنتهى بالقضاء على الدين ٠

وينطلق « الالحاد العلمى » هنا من قواعد تنتمى الى « الفلسفة العلمية ولا تنتمى الى العلم ذاته » (١٦) ٠

والفكر الاسلامى لاينبغى له أن يهاب هذا الموقف ، فهو مفروض عليه سواء أراد أو لم يرد ٠ انه لم يعد كافيا فى الدفاع عن الدين ضد الالحاد المستند الى العلم أن نقتصر على بيان اختلاف المجال فى كل من الدين والعلم من ناحية ، أو بيان التوافق بينهما من ناحية أخرى ، فهذا الموقف يدخل السرور على عتاة الالحاد العلمى لأنهم يدركون قصوره ، وانما الموقف الذى ينبغى أن نقتحمه هو أن ننتقل من الدفاع الى الهجوم ، والهجوم هنا ينبغى أن يتجه الى ضرب

---

(١٦) لأن العلم فى أبوابه الأصيلة : النظريات والقوانين يعلن انه يقوم على الظن لا على اليقين .

القواعد التى يستند اليهـا الالحاد المعـاصر (العلمى) فى محاربته للدين •

وهذه القواعد فى تقديرى ثلاثة :

القاعدة الأولى :

انكار كل الغيبيات التى لايمكن اخضاعها للملاحظة — والتجربة •

القاعدة الثانية :

الزعم بأن حتمية القوانين الطبيعيـة من ناحية وقوانين التطور التقدمى من ناحيـة أخرى يمكن الاستغناء بهما عن افتراض وجود الله وعلمه وارادته كتفسير لوجود العالم وحركته وتغيره •

القاعدة الثالثة :

ادعاء كفاية المنهج العلمى فى المعرفة من ناحية ، والقيم منناحية أخرى ، والاستغناء به عن المنـاهج المعرفية الأخرى التى تقوم بهـا الفلسفة الميتافيزيقية أو الدين •

وهنـا نجد المجال مفتوحا أمام الباحثين لضرب هذه القواعد •

وقد أسهمت بدور فى هذا المجال •

حيث خصصت كتابى (فى مواجهة الالحاد المعـاصر أو عقـائد العلم) لضرب القاعدة الأولى •

وخصصت كتابى (الاسلام والاتجاهات العلمية المعاصرة) لضرب القاعدة الثانيـة •

وخصصت كتابى (العقيدة الاسـلامية بين الفلسفة والعـلم — الباب الثالث) لضرب القاعدة الثالثة •

وسوف نخصص الفصل التـالى لبيان بعض الجوانب التى تقوم بضرب القاعدة الأولى (انكار الغيبيـات) من حيث، نبين مايقوم عليه الالحاد العلمى من ركائز هى دين أو شبه دين ، ولـكنه دين وضعى ينطبق عليه قوله تعـالى « قل يا أيها الـكافرون ، لا أعبد ماتعبدون ، ولا أنتم عابدون ما أعبد ، ولا أنا عابـد ماعبدتم ، ولا أنتم عابدون ما أعبد ، لـكم دينكم ولى دين » •

الفصل الخامس

(الديانة الوضعية المعاصرة)

سبق أن أوضحنا فى المقــدمة ، ان الالحاد العلمى المعاصر وهو يحارب الدين المنزل من الله فانه يدعو الى ديانة وضعية من صنع البشر .

ومرجعنا فى ذلك الى أن للأديان بشكل عام خصائص عامة . وان الالحاد المعاصر يدعو أو يقوم على هذه الخصائص .

والخصائص العامة التى هى للأديان عموما تتلخص فيما يأتى :

١ ــ التسليم الأولى أو « الاعتقاد » الذى لايشترط البرهان .

٢ ــ وضع مجموعة من المبادىء العليــا التى لايمكن الاستغناء عنها ومع ذلك فهى غير قابلة للبرهنة .

٣ ــ الايمان بموجود لا يمكن ادراكه بالحواس سواء كان هــذا الادراك مباشرا أو غير مباشر .

٤ ــ الخضوع أو التعبد لقانون أو ارادة ذلك الموجود .

٥ ــ انتظار الآخرة ، أو المستقبل الذى يعالج نقائص الوضــع الحاضر .

ولا شك أن هنــاك اتفــاقا عاما بين الأطراف جميعا ــ مؤمنين وملحدين ، على أن هذه هى خصائص الدين .

وعلينا فيما يأتى أن نبين توافر هذه الخصائص فى المنظومة التى يقوم عليها الالحاد العلمى المعاصر .

يقول فيليب موريس هاوزر [١] :

(العلم نوع من الأديان ، والعالم رجل دين وهب نفسه للقيم التى آمن بها من البحث عن المعرفة ، وأنت تجد فيـــه نفس التعصب الذى تجده فى المبشر أو القسيس) [٢] .

وعلينا أن نتفق بعد ذلك جميعا على أن هذا الالحاد انمـــا يدعو الى دين جديد ، يستبدل فيه الذى هو أدنى — ديانة بشرية وضعية — بالذى هو خير — الديانة الالهية .

وهذا القدر من الاثبـــات ، كاف فى حد ذاته لاظهار الخديعـــة التى ينطوى عليها هـــذا الالحاد ، وكاف أيضا فى اسقاط دعاواه التى يحارب بها الدين الالهى « الاســـلام » لأنه وهو يحاربه فانما يفعل ذلك لمـــا فيه من تلك الخصائص التى يتصف هو بها .

١ — الايمان الأولى والعلم :

نعنى بالقاعدة الأولى التى يقوم عليها الالحاد المعاصر : انـــكار كل مالا يدرك بالملاحظة أو يخضع للتجربة .

وللرد على هـــذا الانكار نقرر هنـــا أن الالحـــاد المعـــاصر وهو يستند الى العلم — يعترف بمبدأ التسليم الأولى أو الاعتقـــاد الذى لايشترط البرهنـــة ، اما أنه يعترف بمبدأ التسليم الأولى « الاعتقاد » الذى لايشترط البرهنة فنورد هنـــا طائفة من أقوال العلماء التجريبيين أو فلاسفتهم التى تعترف بهذه الحقيقة .

---

(١) أستاذ ورئيس قسم الاجتماع بجامعة شيكاغو .

(٢) من كتاب « من حياة العلماء » ليتيودور بيرلاند ص ٣٤٤ .

يقول البرت بروس سايبن [٣] :

(ان العلم والدين كليهما يقومان على الايمان) [٤] .

ويقول الدكتور تشارلز هاردتاونز :

(أصبح الايمان فى العلم شيئا تلقائيا ، حتى لم يعد يراه الناس، ففى العلم ايمان بأن للـــكون نظاما يمكن للعقل البشرى فهمه . وهذا الايمان ليس قـــديما وانما نشأ منذ قرون عـــدة ، واذا لم يكن للمرء هـــذا الايمان فانه يلقى نفسه فى وسط الخرافات التى تقوم على عدم وجود نظام للـــكون ... ولـــكننا لانســـتطيع أن نثبت بأى طريقـــة أساسية أن الـــكون منظم ومنطقى ، وانما نزعم ذلك ، ونعتبر أن الأمر كذلك ، ونجد أن أفعالنا تنطبـــق على الحقـــائق ، ولـــكن هذا شىء لا يمكن اثبـــاته ، أنه فى حقيقـــة الأمر ايمان ، ايمـــان يبـــدو أن له ما يبرره) [٥] .

ويقول الدكتور جيمس «ب» كونانت :

(انه ليس بين الملاحدة واللاأدريين من كان فى قلبه من الايمان باطراد الطبيعة واتساقها مايكفى لممارسة العلم ، وتجارب العلماء) [٧].

ويقول اينشتاين :

(ان العلم لايخترعـــه الا أولئـــك المتشبعون تمـــاما بحب الحق والادراك السليم وهذا مصدر منمصادر الشعور ينبع من ميدان الدين. ويتصل بهذا الميـــدان أيضا الايمان بأنه من الممكن أن تكون القواعد التى تنطبق على عالم الوجود معقولة . أى يمكن ادراكها بالعقل .

---

(٣) عالم الميكروبات الشهير وصاحب مصل شلل الأطفال « سابين »
(٤) من كتاب « من حياة العلماء » نشر دار النهضة العربية ص ٣٤٥
(٥) من حيـــاة العلماء لتيودور بيرلاند نشر دار النهضـــة العربيـــة ص ٨٩ — ٩٠ .
(٦) مواقف حاسمة فى تاريخ العلم للدكتور جيمس ب. كونانت ص١٦

ولا أستطيع أن أتصور عالما بغير هذا الايمـــان العميق ، ويمكن التعليق على هـــذا الرأى بهـــذه الصـــورة : العلم بغير دين أعرج • والدين بغير علم أعمى) [٧] •

ويقول هرمان راندال (ان النظرة الـــكونية العلمية التى عرفت فى نهاية القرن التاسع عشر ••• كانت بالطبع ايمانا يمكننا أن نصفه بأنه ضرب من التشبث)

ويقول أيضـــا :

(لقـــد كان من المستحيل أن يتجنب الباحث انتخاب حقائقه التى يريدها على نور نظرية سبق أن اعتقد بها) [٨] •

يقول كونانت :

(أن باستور كان يدفعه فى كل ماصنع ايمان عنده قوى بالفروض يبتدعها من عند نفسه • وكان ايمانه الشديد تعمده وتسنده أشياء أخرى غير الحقائق وما يخرج منها بالمنطق •

فهذا مثل لمـــا أعنى • حمله الى النصر فيـــه الايمان القوى الذى لم يعتمد فيه الا على الدليل القليل) [٩] •

ويقول د• جون كيمنى :

(انه لا يمكن أن نسوغ فرضية معينة ، الا أن علينـــا أن نؤمن بفرضـــية على شاكلتها اذا أردنا للحياة أن تغدو ممكنة) [١٠] •

---

(٧) أنظر آراو فلسفية لأدريين كوخ •

(٨) تكوين العقل الحديث جـ ٢ ص ٣٤٩ ، ٣٥٠ ، ٢٨٢ ، ١٧٨ •

(٩) مواقف حاســـمة ص ٣١٨ وباستور هو مكتشـــف المـــكروبات ١٨٩٥ م •

(١٠) الفيلسوف والعلم ص ١٨٣ •

ويقول وليم جيمس :

(نحن نؤمن كل الايمان بأن الأشياء حتى مايبدو منها كثير التعقيد والاضطراب لابد أن يصاغ يوما فى قاعدة جليلة واضحة ..) (١١) .

التحقق من النظريات العلمية يخضع للارادة والايمان :

يقول جون كيمنى :

(مفتاح التحقق من النظريات هو أننا لانتحقق منها البتة . ذلك لأن ما نتحقق منه هو المترتبات المنطقية للنظرية .

فالتحقق هو عمليـــة التأكـــد من أن ماقد تكهنا به هو فى الواقع كذلك ، ولمـــا كنا لانستطيع سوى مشاهدة حقائق منفردة .. فان علينا أن نتحقق من المترتبات المنفردة لنظرية ما وليس النظرية بالذات .

وحتى اذا تبين أن تكهناتنا غير صحيحة فلا يمكن لنـــا أن نتأكد أن النظريات هى الخاطئـــة الا أننـــا واثقون من أن نظرية ما هى نظرية خاطئـــة — وعليه نعود الى البحث عن أبسط الطرق لتحسين مجموعتنا من النظريات .

أنه بامكاننا أن ننقذ أى نظرية ولـــكن على حساب جعل النظريات الأخرى أكثر تعقيـــدا ، ومن أجل هـــذا ، يكثر من يذهب الى أن كل تجربة هى فى الواقع امتحان لمعرفتنا قاطبة .

ولنأخذ مثالا على ذلك فى حياتنا اليومية .

هناك فرضية تقول بأن هذه الصحون الطـــائرة هى قـــذائف من الفضاء الخارجى . الا أننى أود أن أثبت بأنى لو أردت القول بأن لهذه الصحون سببا أرضيا ، فلن يثنينى عن اعتقادى أى دليل .

---

(١١) العقل والدين ص ٨٨ — ٨٩ .

فى امكانى أن أعدها وهما جماعيا فحسب •

واذا قيل ان شاشة الرادار قد تبينت وجودها منذ عهد قريب كان فى وسعى رد ذلك الى أن عامل الرادار هو نفسه مصاب بالوهم وخداع الحواس •

واذا أكد الكثيرون رؤية هذه الصحون على شاشة الرادار أمكن لى أن افترض وجود تأثير كهربى مسبب عن كثرة أجهزة الارسال التلفزية التى تؤدى كثرة عددها الى تشكيل هذه الصحون ، وصورها على شاشة الرادار ، ولا شك أن هذا قد يتضارب مع مانعرفه حول العلم الكهربى ، الا أننى أستطيع تعديل النظرية الكهربية المغناطيسية لانقاذ فرضيتى المفضلة • وما زلت على استعداد لتعديل عدد كاف من النظريات الأخرى •• أما اذا اسقطت قذيفة من هذا النوع بالفعل يجب عندئذ أن أطرح جانبا الفرضية القائلة بأن الأمر كله وهم •

الا أننى أستطيع الافتراض بأنها أتت من بلد آخر من بلدان العالم • واذا تبين أن بداخل « الصحن » الطائر كيانا يختلف عن كل مانعرفه فانه لايزال بامكانى أن أفترض بأنه قد جاء من جزيرة مجهولة أو حتى من جوف الأرض •• الا أن افتراض وجود الحياة فى جوف الأرض الحار يتطلب تعديل عدد من النظريات ، فاذا لم أتردد فى ذلك أمكننى أن أنقذ فرضيتى المفضلة •

واذا حملنى أحد ركاب هذا الصحن وحلق بى الى الفضاء الخارجى فانه يمكننى أن أقول بأن الآلة التى أركبها قد حملتنى فى رحلة صاروخية عرض خلالها شريط سينمائى شعرت معه كأننى أنظر الى الأرض وهى تتباعد عنى •

وحتى لو حط بى فوق سطح المريخ فانه يمكن لى أن أعلل ذلك بأننى قد وضعت تحت تأثيره المغناطيسى •

واذا عيل صبر القارىء من ارتيـابى بالأمور فمرد ذلك الى أنه بلغ نقطة يغـدو فيها القبول بوجود هؤلاء المسـافرين بين الـكواكب السيارة أسهل من تعديل نظريات أساسية) (١٢) .

ولهـذا صرح كارل بيرسـن بأن القـانون العلمى ليس كشـفا ولـكنه اختراع .

يقول :

(فالقانون العلمى ليس كشفا لعلاقات موجودة فى طبيعة الأشياء، وانما هو اختراع لهذه العـلاقات ، وهـو وصـف مختصر لطريقـة الانطباعات الحسية فى مجال معين أو اختزال ذهنى يحل لدينـا محل الوصف المطول لتعاقبات الانطباع الحسى) (١٣) .

* * *

الالهام فى العلم :

من المسلم به فى الأوساط العلمية أن المنهج العلمى كان محتـاجا الى « غيره » لاحراز تقدمه وانتصاراته .

يقول الدكتور كونانت :

(أعظم الفروض التمهيدية الـكبرى التى جاء بهـا تاريخ العلم نشأت نتيجـة لعملية ذهنية يعبر عنها أحيانا بأنها « مسة من عبقرية » أو « خاطرة ملهمة » أو « ومضة من خيال باهر » .

وقلما يتبين فيها النـاظر أنها كانت نتيجة تمحيص للنتائج كلها أو تحليل منطقى لها) (١٤) .

---

(١٢) الفيلسوف والعلم ص ١٥١ — ١٥٤ .
(١٣) أنظر مجلة تراث الانسانية العدد ١٢ المجلد ٣ ص ٩٢٢ .
(١٤) مواقف حاسمة ص ٨٢ .

ويقول د. جون كيمنى :

(اننى مقتنع بأن تشكيل النظريات الممكنة سيظل أبدا محصورا بعبقرية العالم الخاصة .

ان القواعد يمكن أن تعين على الخيار الا أنه ليس ثمة قواعد يمكن أن تحل مكان التفكير المبتكر ...) [١٥] .

ويقول الدكتور ليونيل روبى : (ان العلماء كثيرا مايتحدثون عن بارقة البصيرة التى تنفذ الى لب مشكلة عويصة) .

يقول البرت اينشتين : (ان العنصر ذا القيمة الحقيقية هو عنصر البديهة) ويقول ليونيل روبى : ان اكتمال البحث قد يكون أحيانا بديلا كافيا عن الخيال ، كما يحدث فى البحث الصناعى ، ولكن ... فى المستويات العليا للعلم لا يمكن أبدا أن يكون بديلا كاملا [١٦] .

ويقول فيليب فرانك :

(ان المقدرة التى نحتاجها لكى نحصل على المبادىء العامة للعلم يمكننا أن نسميها الخيال) [١٧] .

٢ ــ الايمان الأولى بالمبادىء العليا للعلم :

ليس الايمان من ضروريات الدين فحسب ، وليس ضرورة من ضرورات « المعقولات » فحسب أيضا . ولكنه فوق ذلك كله :

ضرورة من ضرورات العلم التجريبى :

١ ــ يقرر هربرت سبنسر فى كتابه « المبادىء الأولى » فى كلامه عن الأفكار العلمية القصوى : ان العلم مضطر الى الاستعانة بالكثير

---

(١٥) الفيلسوف والعلم ص ١٧٥ .
(١٦) ص ٣١٧ فن الاقتناع .
(١٧) فلسفة العلم ص ٦٨ .

من المفاهيم الغامضة التى لا سبيل الى تفسيرها كالزمان ، والمكان ، والمادة ، والحركة والقوة وما الى ذلك • وليس فى استطاعة العقل البشرى أن يستغنى عن أمثال هذه المفاهيم •

واننا لو حاولنا أن نتصور كل هذه المفاهيم العلمية فى العقل تصورا واضحا متمايزا لانتهينا الى مجموعة من المتناقضات التى لايمكن أن يقبلها العقل • ولننظر مثلا الى مفهومى المكان والزمان : فهل نقول بأنهما مفهومان واقعيان موضوعيان أم نقول بأنهما مفهومان ذاتيان ؟ هذا ما يجيب عليه سبنسر بقوله : ان العقل البشرى عاجز تماما عن تفهم حقيقة أمر كل من « المكان والزمان » •

وهكذا الحال بالنسبة الى المفاهيم الأخرى كمفاهيم المادة ، والحركة والقوة ، انها جميعا تصورات غير قابلة للتعقل •

ومع أن سبنسر يحاول أن يكشف شيئا عن حقيقة هذه المفاهيم ، فهو فى هذه المحاولات ينتهى الى أن ما يعلم منها يدل على حقيقة مجهولة نسلم بوجودها من غير أن نعرفها •

ويرى سبنسر أن الزمان والمكان مفهومان مشتقان على سبيل التجريد من شعورنا بنوعين من العلاقة هما علاقة التتابع ، «الزمان» وعلاقة المعية ، « المكان » ، وأن مفهوم المادة يرجع الى أبسط صورة لادراك المادة ، وهى تلك التى نجد أنفسنا فيها بازاء أوضاع متحيزة ذات مقاومة وهو يرى أننا لو جردنا الجسم من ضروب المقاومة التى ينطوى عليها لاختفى شعورنا بالجسم تاركا وراءه مجرد شعور بالمكان •

وأما فكرة الحركة فيرى سبنسر أنها مجرد فكرة لاحقة على شعورنا بالقوة •

وشعورنا بالقوة يأتى من أحساسنا بالتوتر الذاتى ، والمقاومة

الموضوعية ولذا يرى سبنسر أن (القوة) هى الفكرة النهائية للأفــكار العلمية النهائيـــة •

ويرى سبنسر أن القوة التى تحدث بمقتضـــاها كل مانحققه من مظاهر التغيير هى بطبيعتها قوة نسبية ، محدودة وهى معلول لعــلة أخرى غير مشروطة وهى القوة المحضة التى نجد أنفسنا مضطرين الى اقرارها لتكون بمثابة الطرف المقابل للقوة المعلومة •

وهذه القوة المحضة هى العلة الوحيـــدة التى تتمتع بالثبـــات أو الدوام والتى ليس لها بداية أو نهاية ، ويستنتج سبنسر منثبات القوة، واستمرارها ثبات العلاقة بين القوى واضطراد القانون •

ويمضى سبنسر الى حد أبعد من ذلك حيث يستنتج من مبدأ ثبات القوة نتيجة أخرى هى : « تحول القوى وتكافؤها » •

ويرى أن ذلك لايصـــدق على القوة الطبيعيـــة وحدها بل يصدق أيضا على العلاقة القائمة بين القوى الجسمية والقوى النفسية •

ومعنى هــذه أن مظــاهر القوة التى نســميها باســم الحركة والحرارة والضوء ، و ••• الخ ، تقبل التحول أيضـــا الى المظــاهر الأخرى التى نسميها باسم الاحساس ، والانفعال ، والتفكير ، ان لم نقل ان هذه بدورها — تقبل التحول الى المظاهر التى سبقتها •

وهكذا نجد أن فى التعليل النهــائى الذى يقــدمه سبنسر لمــا يسميه الأفــكار العلمية القصوى ، تنهار الحدود التى يضعها الماديون للمادة لتقف فى نفس الموقف الذى توجد فيه المجردات المسلمة •

٢ — ويقرر برتراند رسل — بالرغم من لا أدريتـــه التى يوظفها لمحاربة الدين « ان المبـــادى العـــامة اللازمة لتـــدعيم الاستدلالات العلمية غير قابلة للبرهان بأى معنى مألوف » •

ومما يستدل به على ذلك ايمانه بما يسميه « التوقع الحيوانى » الذى لايمكن البرهنـة عليه منطقيا — كتوقع الحيوان فى خبرته رائحة بعينها تدله على صـلاحية الأكل أو عدم صلاحيته — هذا التوقع الذى يرقى حتى يستخدم فى أرقى قوانين الفيزياء الـكمية •

ويؤكد أنه (ليس من الممكن أن ننتقل خطوة واحدة اذا نحن بدأنا من الشك الديكارتى) •

ويقول (فعلينا اذن أن نبـدأ من تسليم عريض بكل مايبدو أنه معرفة أيا ماكان وانه ليس ثمة سبب معين لرفضه) •

ويذهب فى تعداد المسلمات التى يراها الى خمس مسلمات هى كما يسميها : مسلمة شـبه الدوام ، ومسلمـة الخطوط السببية القـابلة للانفصال ، ومسلمة الاستمرار المـكانى والزمانى ، والمسلمة البنائية ، ومسلمة التمثيل •

ونحن لانجد ضرورة هنـا لشرح هذه المسلمات ولـكن نود أن نوضح أنه يستبدل هـذه المسلمات كما يقول بمسلمـات أخرى هى مسلمة (السببية) أو « انتظام الطبيعة » بدعوى أن مسلمـاته أكثر تحديدا وفاعلية [١٨] •

هكذا بغير برهان ••

هكذا لأنها أكثر تحديدا ••

هكذا لأنها من الناحية العلمية ضرورية ••

وهل يفعل المؤمن بالدين شيئا يستغنى فيـه عن البرهان بأكثر من ذلك ؟

---

(١٨) فلسفتى — كيف تطورت من ص ٢٤٥ الى ص ٢٥١ •

٣ — يقول الأستاذ اسماعيل مظهر :

(يعتد الماديون المنكرون للقوة المدبرة لهذا الكون بعقليتهم بأكثر مما فى استطاعتهم أن يثبتوه لها) [١٩] .

فهناك أشياء يستحيل على العلم الطبيعى أو الفكر نفسه أن يصل اليها : أهمها الماهيات .

خذ مثلا ماهية الحرارة أو الكهرباء ، فانهم لايستطيعون أن يقولوا فيها أنها أكثر من قوة طبيعية .

على أن كلمة « قوة » و « مادة » تلك الأشياء التى يعتبرونها من الأوليات الضرورية — وانها لكذلك من حيث ظاهراتها المحسوسة — لاتؤدى الى العقل الا معانى غامضة اذا نظر اليها من ناحية ماهيتها.

وكذلك الحال فى « الحياة » اذا نظرت اليها من ناحية الماهية فانى لا أستطيع أن أعرف مهما قلبت صفحات الماديين ماهو الفرق الحقيقى بين القول بخلقها وبين القول بأنها تولدت ذاتيا مادمنا لم نعرف ماهيتها ولا حقيقتها ، لأن كلا الأمرين يلزم العقل بأن يفرض أن فى الطبيعة قوة مبهمة غامضة .

٤ — ويقول اميل بوترو :

(ان مقالة دييواريموند [٢٠] المشهورة التى اختتمها بقوله « لا أعلم » لم تزل منذ سنة ١٨٨٠ تتعقب عقول المفكرين . فقد نص على الغاز سبعة أربعة منها على الأقل لاتقبل الحل أبدا وهى :

ماهية المادة وأصل الحركة ، وأصل الاحساس البسيط ، والحرية)

---

(١٩) أنظر « الله فى الفلسفة الحديثة لكولينز » .

(٢٠) عالم المانى من أصل فرنسى اشتغل بعلم وظائف الأعضاء ١٨١٨ — ١٨٩٦ م .

أما الباقى فهو (أصل الحياة ، والغائية الظاهرة للطبيعة ، وأصل الفكر واللغة وهذه الثلاثة الأخيرة يمكن ارجاعها الى الميكانيكا العلية [٢١] .

٥ — واذا كان أرنست هيكل (١٨٨٤ — ١٩١٩) فى كتاب الغاز الكون لم يقبل ما أعلنه دييوا ريموند وقرر (أن جميع ألغاز دييوا ريموند قابلة للحل أو قل انها منذ الآن قد حلت) تبعا لمذهبه الواحدى فانه استبقى سرا منها هو :

(الجوهر .. فما هو هذه القوة الهائلة .. التى يسميها العالم الطبيعة أو العالم ؟

ويسميها المثالى الجوهر أو الكون ؟

ويسميها المؤمن الخالق أو الله ؟

... وينبغى الاعتراف بأن ماهية هذا الجوهر تصبح أعمق سرا وأشد خفاء كلما نفذنا الى العلم بصفائها وتطورها فنحن لا نعرف الشىء فى ذاته ذلك الذى يكون وراء الظواهر المدركة) [٢٢] .

وهكذا يمكننا أن نقول انه حتى فى نظر أرنست هيكل الملحد يتساوى التسليم بالله والتسليم بالطبيعة ، والتسليم بالجوهر من حيث كونه ايمانا بما هو أعمق سرا وأشد خفاء كلما خيل الينا أننا نعرف عنه شيئا .

---

(٢٠) عالم المانى من أصل فرنسى اشتغل بعلم وظائف الأعضاء ١٨١٨ — ١٨٩٦ .

(٢١) العلم والدين ص ١١١ .

(٢٢) العلم والدين ص ١٠٨ ، ١٨٩ .

٣ — « غيبيـــات المـادة والعـلم »

يعنى الحس المشترك عادة بالشىء المــادى أشياء مثل : كرسى ، قلم ، الى آخر هــذه الأشياء التى يصعب حصرها ، فالشىء المادى بهذا المعنى هو موضوع جامد ذو أبعاد ثلاثة ، محدد بسطح معين يعزله عن البيئــة كما يجعله قابلا للتعرف على الرغم من تغير هذه البيئة • وعلى ذلك فيمكننا تعريف الشىء المــادى كما يفهمه الحس المشترك على أنه كائن يدوم خلال التغييرات ، أى أنه كائن فعلى يحافظ على نواة ثابتــة خلال تغير الخواص الادراكية والخارجيــة وباختصار هو كائن يحتل حيزا محددا فى المــكان وله دوام معين فى الزمان وله وجود مستقل عن وجودنا ونكون على ادراك مباشر به (٢٣) •

وعن هذه المادة كتب نيوتن يقول :

(انى أرجح أن الله عندما خلق الدنيا خلق المــادة أجزاء جامدة صلبة متحركة لم ينفذ فيها شىء ، وليس فى مقدور قوة عادية أن تقسم ماجعله الله واحدا) (٢٤) •

والى مابعــد عهد دالتن الفيزيقى الــكبير ١٧٦٦ — ١٨٤٤ كان الأمر : حيث زعم أن الذرة لاتنقسم ، وانهــا تدخل أعنف التفاعلات الــكيموية وتخرج منها ولم يضرها من ذلك شىء • وكان يرى أن هذه الذرات أشياء تلمس وتحس (٢٥) •

وفى أثر بحوث بيير كورى ومدام كورى قام السير جوزيف جون طومسون (١٨٥٦—١٩٤٠) فى عام ١٨٩٧ ففقأ عين العقيدة التى تقول ان الذرة هى آخر شىء يقف عنده تجزؤ الأجسام •

---

(٢٣) برتراند رسل ص ١٠٢ •
(٢٤) بوانق وانابيب ص ١٥١ •
(٢٥) السابق ص ١٥٦ •

وكان على طومسون أن يبحث تلك المنـــاطق التى تتصـــل فيهـــا المـــادة بالقوة والقوة بالمـــادة ••• تلك المنـــاطق التى تقع عند الحد بين المعلوم والمجهول من هذه الدنيا) واكتشف طومسون : الالـــكترون أو « الدقيقـــة » كما سماه أول مرة ، وتوصل الى أن المادة والطاقة الـــكهربية شيء واحد وانهارت بهـــذا حوائط الذرة وواصل العلمـــاء كشفهم لأسرارها (٢٦) •

الـــذرة :

تتركب المـــادة من عناصر •

وتتركب العنـــاصر من ذرات •

وتتركب الذرات من بروتونات والـــكترونات ونيوترونات •• الخ
الفرق الأساسى بين البروتون والنيترون يرجع الى مايحملانه من شحنة كهربية فالبرتون يحمل شحنة موجبة بمعنى أنه ينجذب الى شحنة سالبة ويتباعد عن شحنة موجبة •

وقد أطلق رذفورد على نواة ذرة الأيدروجين الحـــاملة لشحنـــة موجبة كلمة بروتون المشتقة من أصل لاتينى معناه « الأول » •

أما النيوترون فمتعـــادل أى لا يحمل أى شـــحنة كهربيـــة على الاطلاق • وهـــذا نفســـه هو معنى الـــكلمة لغويا (المتعـــادل — أو المحـــايد) •

والالـــكترون يحمل شحنة سالبة معـــادلة للشحنة الموجبـــة فى البروتون (٢٧) •

---

(٢٦) بواتق وانابيب ص ٣٢٠ ، ص ٣٣٥ ، ص ٣٢٧ ، ص ٣٣٤ •
(٢٧) انتصارات العلم الحديث ص ١٠٧ ، ١٠٨ •

وباكتشاف النيوترونات فى سنة ١٩٣٢ اكتملت الصورة الأساسية للذرة • غير أن العلماء شرعوا بنـاء على ماظهر بعد ذلك من نظريات حديثـة ، فى وصف حبيبات لم يلحظ أحد وجودها من قبل وان كانوا يعتقدون بأنها توجد فى الذرة فعلا • وهكذا ظهر فى الثلاثينـات فرع جديد فى علم الفيزياء للبحث فيها أطلق عليه « حبيبات أولية » •

وقد علق البعض على غرابة هـذا الاسم ، اذ أن هناك حقيقتين فقط فى هذا الميدان أولهما : ان الحبيبات الأولية ليست أولية بأى حال من الأحوال بل هى بالغة التعقيد • والحقيقة الثانيـة : ان الحبيبـات ليست حبيبات فقط بل يعمل البعض منها كموجات من الطاقة ليس لها أية كتلة • وكانت أولى الحبيبـات التى اكتشفت مماثلة للالـكترون ، فيما عدا أنهـا تحمل شحنة موجبـة ، وقـد اكتشـفها سنة ١٩٣٢ كارل اندرسون من المعهد الفنى بكاليفورنيا أثنـاء قيـامه بأبحاث فى الأشعة الـكونية وأطلق عليها اسم بوزيترون ، وكان قـد لاحظ أن بعض الذرات عندما تتعرض لاصطدام الأشعة الـكونية بهـا تخرج حبيبة لها خواص الألـكترون تماما ، فيما عدا أنها تحمل شحنة موجبة، والسبب فى أنها لم تلحظ من قبل ان فترة بقائها تبلغ نحو واحد على بليون من الثانية •

وفى عام ١٩٣٥ تنبأ هيديكى يوكاوا (ولد سنة ١٩٠٧) من جامعة كيوتو فى اليـابان بوجود حبيبـة أخرى « الميزون » ، وجاء فيما قاله يوكاوا ان الميزون هى الرباط الطاقى أو الغراء الذى يربط الحبيبـات معا داخل النواة •

وقـد عثر كارل اندرسون بدوره على الميزون أثنـاء أبحاثه عن الأشعة الـكونية •• وأظهرت الأبحاث اللاحقـة أن الميزون نوعان — نوع ثقيل أو « بى ميزون » وآخر خفيف أو موميزون •

وفى عام ١٩٣١ تنبأ فيزيائى استرالى يسمى وولفجانج باولى (١٩٠٠ — ١٩٥٨) بوجود حبيبة أخرى تشع من بعض العناصر وكانت حبيبة بلا كتلة تعمل على التخلص من الطاقة التى كان يبدو أنها تختفى أثناء الاشعاع •

ولم تكشف هذه الحبيبة بالفعل الا فى عام ١٩٥٩ ، ناتجة من تفاعلات نووية جبارة • وتعرف الآن باسم تيوترينوس •

وعندما يتصادم بوزتيرون واليكترون يختفى الاثنان معا ولذلك يعرف البوزيترون أيضا باسم « مضاد الاليكترون » •

وقد أدى ذلك الى الظن فى وجود حبيبة مضادة لكل نوع من الحبيبات وثبت أن هذا الظن فى موضعه • وأصبح مجموع الحبيبات والحبيبات المضادة التى وجدت داخل الذرة أكثر من الثلاثين [٢٨] •

لا مادية النيوترون :

يقول الكاتب البريطانى آرثر كوستلر :

من بين كل هذه الجزئيات الأولية التى تتضمنها قائمة عالم الفيزياء وتثير حيرة الانسان ، ومن أكثرها شبها بالأشباح الجزء المسمى النيوترون وقد تنبأ بوجوده وولف جانج باولى عام ١٩٣٠ بناء على أسس نظرية خالصة • بيد أنه حتى عام ١٩٥٦ ، أى طوال خمسة وعشرين عاما أن يزيد كانت النيوترونات الفعلية التى تبعث من المجمع النووى الضخم للجنة الطاقة الذرية فى الولايات المتحدة المقام على شاطىء نهر سافانا يصطادها داخل المعمل كل من ف• رانيس ، وك• كووان • ويرجع السبب فى مضى وقت طويل حتى تم تسجيلها الى أن النيوترون لايكاد يتميز بخصائص فيزيائية : اذ ليست له كتلة أو شحنة

(٢٨) انتصارات العلم الحديث ص ١٢٢ — ١٢٣ .

كهربائية ولا مجال مغناطيسى ، ومن المعروف أن ليس بالامكان جـذبه بالمغنـاطيسية ، ولا يمكن الامسـاك به أو طرده بواسـطة المجالات الـكهربائية والمغناطيسية لجزئيات أخرى ينطلق بجوارها .

ومن ثم فان النيوترون المتولد فى سكة التبانة بل فى بعض السدم وينطلق بسرعة الضوء يمكنه أن يظل نقيا عبر الجسم الصلب للأرض، وينفذ منه وكأنه ينفذ عبر الفراغ . ولا سبيل الى ايقاف النيوترون الا عن طريق صـدام مباشر بجزئى أولى آخر . والجدير بالذكر أن فرص حدوث مثل هـذا الصدام المباشر أثنـاء النفاذ عبر الأرض كلها تبلغ حسب التقدير السائد مرة من بين ١٠ر٠٠٠ مليون .

ويشير الـكاتب العلمى مارتن جاردنر الى ذلك قائلا : « لحسن الحظ انه ثمة نيوترونيات كافيـة حولنـا بحيث أصـبح ممكنا وقوع مثل هذه الصدامات والا استحال علينا تسجيل النيوترون .

وبينما يطالع القارىء هذه الجملة تنبعث بلايين النيوترونات وتأتى الى الأرض منطلقـة من الشمس والنجوم الأخرى ، بل ربما من سدم أخرى ، وتنفذ عبر جمجمة القارىء ومخه ؟؟

يقول آرثر كوستلر :

(ويذهب العقل المحايد الى الاعتقاد بأن النيوترونات ذات نسب بالأشباح وهو العقل الذى لا يرفض وجودها وليس هذا القول مجرد استعارة لفظيـة) (٢٩) .

ليست الذرة شيئا ماديا :

يقول هانزريشنباخ — وهو ملحـد (بعـد أن فسر لويس دى برولى الجمع بين النظريتين الجزئيـة والموجية بأبسط معانيـه وهو أن هناك جزئيات تصحبها موجات تسير مع الجزىء وتتحكم فى حركته .

---

(٢٩) العلم والظواهر الخارقة ص ٨ — ١٠ .

قدم شرود نجر تفسيره بالاستغناء عن الجزئيات وانه لا توجد الا موجات تتجمع فى بقاع صغيرة معينة فينتج عنها شىء يشبه الجزىء فهى اذن حزم موجية تسلك على نحو شبيه بالجزئيات •

ثم اقترح ماكس بورن الفكرة القائلة بأن الموجات لاتكون أى شىء مادى على الاطلاق ، وانما تمثل احتمالات ، فأدى تفسيره هذا الى حدوث تحول غير منتظر فى مشكلة الذرة ، وفى هذا التفسير لاتكون للموجات حقيقة الموضوعات المادية ، بل تكون لها حقيقة المقادير والرياضية فحسب •

وواصل هيزنبرج السير فى هذا الطريق ، حيث كشف عن مبدأ اللاتحدد ، وأخيرا جمع بور بين نتائج بورن ونتائج هيزنبرج ، فوضع مبدأ التكامل ، وهو المبدأ القائل بأن تفسير بورن يقدم وجها واحدا للمشكلة ، وان هناك وجها آخر ، وهو أن ننظر الى الموجات على أنها ذات حقيقة فيزيائية ، وهو رأى لايكون فيه للجزئيات وجود ، ولا سبيل الى التمييز بين هذين التفسيرين ؛ لأن اللاتحدد كما يقول هيزنبرج يجعل من المستحيل القيام بتجربة فاصلة •

ويوضح رشنباخ المعنى الذى ينطوى عليه مبدأ التكامل ، الذى تحدث عنه بورن فيقول : عندما يسمى وصف الموجة والجزئى وصفا تكامليا ؛ يعنى أنه بالنسبة الى المسائل التى يكون أحد هذين الوصفين تفسيرا كافيا لها ، لايكون الآخر تفسيرا كافيا ، والعكس بالعكس ، مثال ذلك : اننا اذا كنا بصدد أنموذج التداخل على شاشة فاننا نأخذ بالتفسير الموجى ، أما اذا كنا بصدد ملاحظات عدادات جيجر فستخدم التفسير الجزئى • وينبغى أن نلاحظ أن لفظ « التكامل » لايفسر أو يزيل الصعوبات المنطقية التى تنطوى عليها لغة ميكانيكا الكوانتم وانما هو مجرد تسمية لها فحسب) [٣٠] •

---

(٣٠) نشأة الفلسفة العلمية ص ١٥٧ ، ١٦٨ ، ١٦٩ .

ويقول هيزنبرج عن لا مادية الذرة :

(ليس الجوهر جسيما ماديا فى الفضاء والزمن وانما هو بشكل ما مجرد رمز تتخـذ قوانين الطبيعـة عنـد تقـديمه شـكلا سـهلا واضحا) [٣١] .

ويقول لويس دى برولى :

(من المؤكد الآن ، ان الثنائية بين الجسيم والموجة التى اكتشفت أولا بالنسبة للضوء تنطبق أيضا على المادة) [٣٢] .

ويقول هيزنبرج : (ولقد منحت الذرة اذن — على الأقل فى خيالنا كل الميكروسكوبية للمادة ، ثم عرف مع الزمن ، أن أصغر الجسيمات ، كالالـكترونات مثلا ، لا يمكن أن تمتلك نفسها « الخواص الحسية » للمادة) [٣٣] .

ويقول الدكتور جون كيمنى :

(الذرة — أو اذا أردنا الدقة « الالـكترون » أصغر وحدة فى الفيزيقـا الذرية الحديثـة — لم تعد تظهـر فى ذاتهـا حتى أبسـط الخصائص الهندسية والميكانيكية) .

ويقول : (لقد وضع كل ماتوصلنا اليه من تفهم للمادة فى النهاية فى شكل معادلات رياضية) [٣٤] .

ويقول الدكتور هرمان راندال :

(اما أن تكون معادلات الموجات بالغـة التجريد فأمر واضح . وأكثر الفيزيائيين يكتفون الآن بعدد من المعدلات الرياضـية التى تتنبأ

---

(٣١) المشاكل الفلسفية للعلوم النووية ص ٥٦ ، ٧٢ ، ٧٤ .
(٣٢) الفيزياء والمـكروفيزياء ص ٢٣ .
(٣٣) المشاكل الفلسفية للعلوم النووية ص ٥٦ ، ٧٢ ، ٧٤ .
(٣٤) الفيلسوف والعلم ص ٨٨ — ٨٩ .

عن الحوادث فى حقل الاشعاع • وقــد توقفوا عن التطلع الى نموذج ميكانيكى للذرة يمكن أن ترتسم صورته فى المخيلة) [٣٥] •

ويبين هيزنبرج أن :

تركيبات الذرة هى التى تحدث خصائص المادة : اللون والرائحة والزمن وشغل الفراغ ، أما الذرة فليس لها شىء من ذلك •• يقول :

(اذا قلنــا ان حركة الذرات داخل الأجســام هى التى تميز بين الباردة منها والساخنة اذ تكون حركتها فى الأجسام الساخنــة أسرع منها فى البــاردة فان الذرة الواحدة لايمكن أن تكون باردة أن ساخنة•

وعلى هذا جردت الذرة بالتدريج من كل « الخصائص الحسية » وصــارت الخصائص الهنــدسية هى الوحيدة التى بدا لمدة طويلة أنها تحتفظ بهــا من القول بأنهــا تشغل الفضاء والمــكان ، والقول بأن لها حركة محددة ، غير أن التطور فى الفيزيقا الذرية الحديثــة قــد أزال حتى هذه الخصائص) [٣٦] •

ويقول : (ان الخواص المرئيــة للمادة كشغلها للفراغ وقوة المواد واللون والخصائص الــكيمائية ، كلها صفات للمادة فى شكلها المتكامل، ولــكنها لا ترتبط بنفس الطريقة بأصغر « القوالب » التى لا تنقسم للمادة ••) [٣٧] •

ومن هنــا فقد بدأت طائفــة من العلماء تقلع عن وصف المادة بما يفيد ماديتها •

---

(٣٥) تــكوين العقل الحــديث جـ ٢ ص ١٣٧ .

(٣٦) المشاكل الفلسفية للعلوم النووية ص ٧٥ .

(٣٧) المصــدر السابق ص ٨٦ .

يقول دكتور هرمان راندال :

(هنالك ميل لاستعمال مصطلحات جديدة — يصفها الكثيرون بأنها منطق جديد ، وهى الاستمرار الزمانى المكانى ، والأحداث والمجارى والفاعليات ، بدلا من الأشياء أو الجوهر ، وقد ذهبت علاقة الموضوع بالمحمول وحل محلها السلاسل الوظيفية والنسب المتبادلة) (٣٨) ٠

كيف أمكن ادراك الذرة وجزئياتها :

هل ترى الذرة بطريق مباشر أو غير مباشر ؟

كلا ، لا هذا ، ولا ذاك ٠

وقد يمكن رؤية نجم غير مرئى بالمكروسكوب الألكترونى الذى يكبر الأشياء أكثر من مائة ألف مرة ٠ ولكن هذا المنظار لايكفى لرؤية الذرة (٣٩) ٠

وكما رأينا كبار العلماء التجريبيين ينكرون فى البداية : الجاذبية ثم ينكرون الكهرباء ٠٠٠ وجدناهم أيضا ينكرون النظرية الذرية : أى فى بداية الأمر ٠ وهم كانوا فى انكارهم مدفوعين بارتباطهم بالمنهج العلمى التجريبى الذى لايعترف بغير ما يدرك حسيا ٠

يقول الدكتور جون كيمنى :

(رفض بعض الأوائل من دعاة الفلسفة العلمية القول بالنظرية الذرية لأن المفاهيم التى تستند اليها غير قابلة للتحديد بواسطة عمليات حسية أى بكلمة أخرى ، لأن الذرات غير مرئية ، غير أن هذه النظريات تغلبت على كل انتقاد) (٤٠) ٠

---

(٣٨) تكوين العقل الحديث ج ٢ ص ٣٣٠ ٠
(٣٩) العالم من حولنا ص ٣٧ — ٤١ ٠
(٤٠) الفيلسوف والعلم ص ١٨٣ — ١٩٧ ٠

ان التسليم بوجود الذرة وبأجزائها ليس ناشئا من كونها خاضعة للادراك الحسى بأى وجه من الوجوه ولـكن لأمرين :

الأمر الأول :

الضرورة المنطقية اللازمة لتفسير الوقائع المشاهدة .

يقول فيرنر هيزنبرج :

(ربما استطعنا أن نوضح بمثال الصفة الرمزية للمفهوم الحالى عن الذرة فالذرة من الفيزيقا الحديثة تظهر تشابها للجـذر التربيعى ناقص واحد (—١) فى الرياضة — فبالرغم من أن الرياضة الأولية تقول انه لا يوجد مثل هـذا الجذر التربيعى بين الأرقام العـادية .. الا أننـا نجد أن أكثر القضايا الرياضية أهمية تتخذ أبسط شكل لهـا اذا ماقدمنا هـذا الجـذر التربيعى كرمز جديد . فالتبرير اذن يكمن فى القضايا نفسها .

وبنفس الشكل فان خبرات الفيزيقـا الحديثـة تبين لنـا أنه لا وجود للذرات كأشياء مادية بسيطة . الا أن تقـديم مفهوم «الذرة» يمكننا من الصياغة السهلة للقوانين التى تحكم كل المعطيات الفيزيقيـة والـكيميائية) [٤١] .

ويقرر الدكتور جون كيمنى أن :

الأجسام الأصـغر من الذرة مجرد افتراض يسهل تعليل الوقائع المشاهدة وذلك اذ يقول :

(نحن نعتقد بوجود أجسام أصغر من الذرة لا لأننـا « رأيناها » ولو بشكل غير مبـاشر . ولـكى لأن افتراض وجودها يشكل أسـهل فرضية يمكن لها تعليل الوقائع المشاهدة) [٤٢] .

---

(٤١) المشاكل الفلسفية للعلوم النووية ص ٥٦ — ٥٧ .

(٤٢) الفيلسوف والعلم ص ١٤٧ .

الأمر الثـــانى :

الذى تعرف به الذرة : آثارها . يقول الأستاذ جيمس . أ. كولمان (اننا لانستطيع رؤية الذرة — حتى لو اســتخدمنا أقوى مانملك من المجاهر وعلاوة على ذلك فان سرعة الالكترون فى مداره حول النواة تبلغ حوالى ١/١٠٠ من سرعة الضوء وهى درجة لاتمكننا من رؤيتـــه بأية طريقـــة .

ولـــكن ليس من الضرورى أن نرى الالـــكترون فعلا وهو يدور لـــكى نحدد شكل مساره اذ أنه لحسن الحظ ينتج عن مساره آثار معينة يمكن اختبارها تجريبيا [٤٣] .

(انه يمكن ملاحظة المادة فى ظواهرها عن طريق التقـــدم الرائع فى الطرق التجريبية الا أنها لاتخضع لاحساساتنا) [٤٤] .

ماهى الجاذبيـــة ؟

عندما اقترح كيبلر فرضـــه القائل أن حركتى المد والجذر ترجعان الى قوى جذب تنبعث من القمر ، شجب جاليليو هـــذه الفكرة واعتبرها تخيلات سحرية لأنهما تتضمن « التأثير عن بعد » وهو مايتنـــاقض مع قوانين الطبيعـــة ؟!! .

بيـــد أن هـــذا لم يمنع نيوتن بعـــد ذلك من وضع نظريتـــه عن الجاذبية [٤٥] ويعنى قانون الجاذبية عند نيوتن : انه « بين كل دقيقـــة من دقائق المـــادة فى الـــكون ، وكل دقيقة أخرى قوة تجاذب تتناسب طرديا مع كتلتها وعكسيا مع مربع المسافة بينهما » [٤٥] .

يقول سير اسحاق نيوتن :

(لم أستطع كشف أسباب خصائص الجاذبية هذه من الظواهر . وليس لدى أية فروض عن ذلك .

---

(٤٣) النسبية فى متناول الجميع ص ٧٥ .
(٤٤) المشاكل الفلسفية للعلوم النووية ص ٧٢ .
(٤٥) العلم والظواهر الخارقة ص ١٦ .

وعلى ذلك فان اكتشاف قوانين الحركة والجاذبية انما قام على عدم امكان تداخل الأجسام بعضها فى بعض وخاصية قبولها للحركة وما لها من قوة دافعة • وبالنسبة لنا يكفى أن تكون الجاذبية موجودة فعلا تبعا للقوانين التى شرحناها والتى عم استخدامها لتفسير كل حركات الأجرام السماوية) [٤٦] •

ويقول فيليب فرانك : [٤٧] انك تقول ان الجسم يتسارع الى أسفل بتأثير جذب الأرض له ، لكنك اذا أمعنت الفكر قليلا فسوف تدرك أن هذا لايقدم تفسيرا على الاطلاق اذ ماهو الجذب ؟) ويرجع فيليب مفهوم الجذب الى ظاهرة نفسية يقيس فيها الانسان الطبيعة على نفسه فى شعوره بالانجذاب النفسى •• الخ •

ويقول ادوارد «ج» هيوى :

(ان قانون الجاذبية من أهم قوانين الطبيعة رغم أن الجاذبية نفسها مازالت لغزا عميقا مجهولا) [٤٨] •

ويقول الدكتور جون كيمنى :

(ان هذا القانون فى وضعه العملى يؤدى الى وصف لكيفية دوران كوكب حول الآخر ، ان الكواكب والشمس يحتلان مواقع معينة حددتها مواقعهما السابقة ولكن أيمكن لنا القول بأن المواقع الحالية هى المسببات للمواقع اللاحقة ؟

بامكاننا طبعا ، أن نسمى « قوة التجاذب » بالسبب ، الا أن هذا مفهوم خيالى لايشكل سببا يمكن مشاهدته بالنسبة الى المنهج التجريبى) [٤٩] •

---

(٤٦) العلم أسراره وخفاياه جـ ١ ص ١٦٦ •

(٤٧) أستاذ فلسفة العلم بجامعة هارفارد من ١٩٤٠ الى ١٩٥٥ وذلك فى كتابه فلسفة العلوم ص ٢٦ •

(٤٨) كيف تدور عجلة الحياة ص ١١٧ •

(٤٩) الفيلسوف والعلم ص ١٧٤ •

وينشأ من غموض مفهوم الجاذبية غموض مفهوم « الوزن » اذ يعزى الى الجاذبية السبب فى أن للأجسام وزنا ولولا الجاذبية لما كان للجسم أى وزن •

وما هى المغنـاطيسية ؟

يقول ادوارد «ج» هيوى :

(الواقع أن نظرية الجزئيات المغناطيسية لاتفسر تماما كل مايتعلق بالمغنـاطيسية فنحن لازلنا نعجب ما الذى يجعل كل جزء من هـذه مغناطيسيا ، ولـكنها على أى حال مجرد تخمين معقول للمغناطيسية ، ولكن الحقيقة أنه ما من مخلوق يعلم بالضبط كيف تعمل المغناطيسيات•

وربما كان هناك دوائر كهربية صـغيرة بدلا من المغناطيسيات •• وبعد كل هذا تأتى النظرية التى تنـادى بأن الأرض كلها عبـارة عن مغناطيس • كيف يمكن أن يكون هذا هو الواقع ؟ لا أحد يعرف •

ولهذا فان نظرية الجزئيات المغناطيسية كما نرى أقرب وأصـدق نظرية يمكن أن تفسر الـكثير عن المغناطيسية رغم أنها تعجز عن تفسير البعض الآخر وقد تكون هذه النظرية خاطئة تماما •

وعلى أى حال فالمغناطيسـية لازالت مبهمة يعتورها الـكثير من الغموض) [٥٠] •

ما هى الـكهرباء ؟

التيار الـكهربائى لايخرج عن كونه سيلا من الاليكترونات ، انها تلك الاليكترونات التى هربت من ذراتهـا ولم تعـد بعـد مقيدة الى أنويتهـا •

---

(٥٠) كيف تدور عجلة الحيـاة ص ٥٤ •

يقول : ادوارد «ج» هيوى :

(اننا نعلم ما الذى تفعله الكهرباء ونعلم كيف تعمل ذلك ، ولكننا لانعلم بالضبط لماذا تعمل الكهرباء ماتعمله • اننا فى الحقيقة لانعلم بالضبط ماهى الكهرباء اننا نستعمل الكهرباء ولكننا لانستطيع أن نفهمها تماما) •

***

يقول لويس دى برولى :

(هناك أنواع برمتها من الظواهر الفيزيائية التى تفلت تماما من رقابتنا ، ربما لنقص وسائلنا فى كشفها •

وربما كانت هناك فروع من الفيزياء ليس لدينا عنها أدنى تصور لاتزال فى حاجة الى الايضاح ، وهى بالطبع لا أستطيع أن أحددها وان نتائجها اذا قدر لنا أن نعرفها مقدما تدهشنا دون شك كما تدهش الفيزياء النووية فزيائيى قرن مضى •

اننا لانستطيع حيال هذا الا القاء تخمينات لاتقوم على أساس ولكنا نستطيع أن نؤكد دون مخاطرة بالخطأ أنه فى الفيزياء كما فى كل العلوم الأخرى لايزال مانعرفه ضئيلا بجانب مازلنا نجهله) [٥١]•

يقول الأستاذ عباس العقاد :

(كانت فضيلة المادة عند الماديين انها تقوم على الحقائق والوقائع لا على الظنون والأوهام •

فهى عندهم حقيقة الحقائق الثابتة التى لايعتريها الشك لأنها محسوسة ملموسة محصورة فى مكان محدد : يخبط أحدهم على المائدة بيده أو يضرب على الأرض بقدمه • ويقول لمن يجادله : هذه هى الحقيقة التى ألمسها بيدى وقدمى أو أراها بعينى •

---

(٥١) الفيزياء والمكروفيزياء ص ٢٦٥ •

ثم حدثت فى السنوات الأخيرة من القرن التاسع عشر حوادث علمية غيرت كل صورة — من صور المادة — عرفها الأقدمون •

فقد عرف الكيميون قبل ذلك أن عناصر المادة أكثر من أربعة وانها ليست محصورة فى النار والتراب والهواء والماء •

ثم تقدمت معرفتهم بالمادة حتى أفلت من المادة كل شىء ثابت أو كانوا يحسبونه مضرب المثل فى الثبوت والحقيقة •

فاللون من الشعاع والشعاع هزات فى الأثير •

والوزن جاذبية والجاذبية فرض من الفروض •

والجرم يتوقف على الشحنة الكهربية وعلى سرعة الجسم فى الحركة ونصيبه من الحرارة •

والحرارة ماهى؟ حركة• والحركة فى أىشىء ؟ فى الأثير ، والأثير ماهو ؟ فضاء ، أو كالفضاء ، وكل وصف أطلقته على الفضاء فهو بعد ذلك مطابق لأوصاف الأثير ، حتى الصلابة التى تصدم الحس أصبحت درجة من درجات القوة تقاس بالحساب ، ويعلم الحاسب أنه حساب قابل للخطأ والاختلال •

فهذه الصخرة القوية صلبة جامدة يضربها الضارب بيده فترده فيقول : نعم هذه هى الحقيقة التى لا مراء فيها ، فماذا لو كانت يده أقوى ألف مرة من يد الانسان القوى بالعضل والعصب ؟

ان حقيقة الصخرة تفقد تحت يده برهانها فلا يحسه ، أو يحسه ولا يتحدث عنه كما يتحدث عن الحقائق •

وتقدم العلم بالكهرباء والذرة مرة أخرى فاذا المادة كلها كهارب وذرات • واذا بالذرات تتفلق شعاعا كشعاع النور • هل هذا

---

(٥٢) عقائد المفكرين فى القرن العشرين ص ٤٦ نشر مكتبة غريب .

الشعاع موجات ؟ أو هو جزئيات ؟ قل هذا أو قل ذاك فهذا وذاك فى ميزان « التجربة » سواء) .

ويقول الأستاذ فانيفاريوش :

عن تمرد العلم على المحسوسات :

(يذكرنا العلم على الدوام بأننا مازلنا جهلاء ، وأنه مازال أمامنا الكثير مما نتعلمه ، فالزمان والمكان متشابكان بأشكال غريبة ، وليس هناك زمن مطلق أو مكان مطلق .

وفى داخل الذرة تحدث ظواهر لايجدى حيالها التخيل ، ولا تنفع الحواس التى ترشدنا فى خبراتنا اليومية ، ولكنها تستسلم للمعادلات التى لا معنى لها سوى أنها تؤدى عملها على مايرام .

والكتلة والطاقة تتحول كل منهما الى الأخرى .

والجاذبية الصخرة الصماء التى شيدها نيوتن ، قد لا تكون الا مجردخاصية من خواص الكون والحياة ، كلما تتكشف لنا تفاصيلها تصبح أكثر دقة وتعقيدا ، وتزيد حيرتنا يوما بعد يوم فيما اذا كانت وظائفها المذهلة — قد نشأت بمحض الصدفة أو بحكم الزمن) (٥٣) .

وهكذا أخذ العلم التجريبى يدفع الفكر الانسانى مرة أخرى ناحية الخيال .. وهذا ما جعل أرثر كوستلر يقول :

(ان علماء الفيزياء النظريين يدركون تماما الطبيعة السريالية للعالم الذى خلقوه ، ولكنه فى الوقت نفسه عالم ينطوى على قدر هائل من الغموض) (٥٤) .

---

(٥٣) مجلة الثقافة الامريكية العدد الرابع المجلد الثانى ص ١٧ .

(٥٤) العلم والظواهر الخارقة ص ٨

المادة عند برتراند رسل :

يقول :

(أخذت المادة تشف تدريجيا كقطة تشيشاير حتى لم يبق منها الا الابتسامة الناجمة فيما يبدو من الضحك على من لايزالون يظنون أنها موجودة) • ويقول :

(أصبح دارسو علم الطبيعة مثاليين • وأصبح كثير من علماء النفس على حافة المادية) •

ويقول :

(والحقيقة بالطبع أن العقل والمادة كليهما وهم وهو مايكتشفه علماء الطبيعة بدراسة المادة ويكتشفه علماء النفس بدراسة العقل)•

ثم يقرر رسل أن عالم المادة الذى يعترف به علم الطبيعة الحديث أصبح شيئا آخر يختلف عن عالم المادة كما تدركه حواسنا •

وانه أى عالم المادة فى الفيزيقا الحديثة يدرك بالاستنتاج •

وانه من ثم واقع تحت الشك •

يقول رسل :

(علم الطبيعة وعلم وظائف الأعضاء فيما بينهما يؤكدان لى أن الكرسى القائم هناك مستقلا عن أبصارى شىء لايشبه مطلقا ماتصورته • بل هو رقصة جنونية ترقصها بلايين الكهربيات تحت تأثير بلايين التحولات الكمية •

وعلاقتى بهذا الشىء غير مباشرة ولا تتأتى معرفتها بالاستنتاج) [٥٥] •

---

(٥٥) العقل والمادة ص ١٨٩ ، ص ١٩٧ •

ولعل الحصيلة النهائية لنظرة رسل الى كل من العقل والمادة هى مالخصه فى أحد كتبه بقوله :

(ان العقل والروح — شأن المـادة ليست سوى رموز أشـياء غير معروفة) [٥٦] •

غيبية مفهوم المادة عند الفيلسوف الملحد المعاصر فتجنشتين : [٥٧]

يرى فتجنشتين أن العـالم ينحل الى « وقائع » وان الأشياء هى المـكونات المبـاشرة التى تتكون منهـا الوقائع ، (والأشياء) عنـد فتجنشتين :

١ — بسيطة لا تنقسم •

هى بسيطة فى غاية البساطة وهى لا تتصف بأى صفة من الصفات التى يمكن ملاحظتها ، كما تتصف بهذه الصفة أو تلك أثناء وجودها فى واقعـة ما ، لأن الصفات المادية : تنشأ أول ماتنشأ نتيجـة لتشـكل الأشياء فى واقعة ما •

٢ — ويترتب على ذلك أن الأشـياء ثابتـة لا تتغير • يقول فتجنشتين :

(الشىء هو الثابت: وهو الموجود ، أما المتحول المتغير فهو البناء المركب من أشياء ، والتركيبة التىقوامها أشياء هىالتى تشكل « الواقعة الذرية ») •

٣ — ويترتب على ذلك أن الأشياء باقيـة الى الأبد ، لأنها بسيطة لاتنقسم الى أجزاء ، وما ينقسم الى أجزاء هو ما يمكن فساده ، أما مالا ينقسم فهو باق على حاله ثابت لا يتغير ولا يزول •

---

(٥٦) مجموعة « عالمنـا المجنون » ٩٧ •

(٥٧) لودفيج فيتجنشتين فيلسوف المنطقيـة الوضـعية النمساوى ١٨٨٩ — ١٩٥١ •

٤ — ويترتب على ذلك أن الأشياء هى الأساس الأول الذى يقوم عليه العالم ، أو هى كما عبر فتجنشتين تكون « جوهر العالم » •

ولــكن ما المقصود بمعنى الجوهر هنــا ؟

معناه « هو ذلك الثابت وراء كل تغير ، والحامل الذى يحمل كل الصفات المتغــيرة المتتــابعة فى الوجود ، أو هو « الشىء » الموجود بذاته الثابت الذى لايتغير، وبالتالى فهو الذى يعد مبدأ أو أصلا لجميع الأشياء الموجودة » •

الايمان بالشىء ضرورة منطقية :

ويبرر فتجنشتين فــكرته عن الجوهر •• على الرغم مما فيهــا من معنى ميتافيزيقى يتنــاقض مع اتجاهــه التحليلى اللاميتافيزيقى بقوله :

« انه اذا لم يكن للعالم جوهر فان القول عن قضية ما انها ذات معنى سيتوقف عندئذ على أن قضية أخرى تكون صادقة » •

أى أن معنى قضية ما فى حالة وجود جوهر ثابت للعالم الخارجى انما يتوقف على المطابقة بين القضية من جهة ، وذلك الجوهر الثــابت من جهة أخرى ، فيتحدد المعنى• أما اذا لم يكن هنــاك جوهر « ثابت يحدد معنى قضية معينة » •• فلن يكون أمامنا عنــدئذ الا أن نشتق معناها من قضية صادقة أخرى ، وهذه من ثالثــة ، وتلك من رابعة ، و •••• الى مالا نهاية •!

وعلى ذلك فوجود « الجوهر » الثــابت أو الأشياء الثابتــة هو المطلوب الذى يبرر لنــا الاستخدام الصــحيح للغــة ، اذ أن ترابط الأشياء على نحو أو آخر فى واقعة ما هو ما يبرر لنــا الحكم بصــدق قضية أو كذب أخرى •

اذن ماهو هذا الشىء البسيط عند فتجنشتين وكيف يكون ؟

ان فتجنشتين لايعطينا أمثلة له ولا يوضح المقصود منه فى هذا الصـــدد .

يقول مالـــكولم : « ذات مرة كنا نناقش (فتجنشتين وويلزدونى وأنا) رسالة فتجنشتين المنطقيـــة الفلسفية ، وقـــد سألت فتجنشتين عما اذا كان — أثناء « كتابة » الرسالة — قـــد فـــكر فى ذلك الوقت فى وجود شىء كمثل « الشىء البسيط » وكانت اجابته بأن تفكيره فى ذلك لم يكن الا تفكيرا منطقيا .

ولذا فان ذلك الأمر لم يكن يعنيـــه كرجل منطقى ، أى أن يقرر ما اذا كان هـــذا الشىء أو ذاك ، هو شيئا بسيطا أو شيئا مركبا ، اذ أن ذلك عمل تجريبى محض » وعلى ذلك فهذه الأشياء عند فتجنشتين لم تكن الا الأشياء بالمعنى المنطقى أو هى بسائط منطقية . وقـــد عبر رسل عن ذلك فى مقدمة الرسالة « لفتجشتين » بقوله :

(ان فتجنشتين لم يذهب الى أننـــا يمكننا أن نقول فعـــلا ماهو بسيط أو أن نعرفه معرفة تجريبيـــة لأنه ضرورة منطقية تتطلبها النظرية مثل الالـــكترون) .

ولو تعمقنا فى ذلك لوجـــدنا أنها ضرورة عملية ، يقصد بها انقاذ هيكل القضايا من الوقوع فى حلقة مفرغة ، وتفقد من ثم مايبرر الحكم بصدق قضية ما أو كذبها [٥٨] .

واذن فهذه البسائط « الأشياء » ليست هى المفردات الجزئية التى ندركها تجريبيا فى الواقع الخارجى .

وهنـــا يقول فتجنشتين (لايسعنى ازاء الأشـــياء الا أن أسميها وبهذا لايسعنى الا أن أتحدث عنها دون أن أستطيع تقرير وجودها)

---

(٥٨) لودفيج فنجنستين للدكتور عزمى اسلام ص ١٢٢ — ١٣٠ .

انها كما يقول الدكتور عزمى اسلام فى تلخيصه للنقد الذى وجه الى فتجنشتين (مجرد افتراضات ميتافيزيقية) [٥٩] .

المادة عند هانزريشنباخ :

يقول هانزريشنباخ — وهو ملحد .. (فالسؤال : ما المادة ؟ أصبح الآن لا يمكن الاجابة عنه بالتجارب الفيزيائية وحدها .

وانما يحتاج الى تحليل فلسفى للفيزياء .. وذلك لأن الاجابة عنه تتوقف على السؤال: ما المعرفة ؟ ففى خلال القرن التاسع عشر استعيض عن التفكير الفلسفى الذى كان موجودا فى مهد المذهب الذرى بالتحليل التجريبى ولكن البحث وصل آخر الأمر الى مرحلة من التعقيد تقتضى العودة الى البحث الفلسفى) [٦٠] .

ولكن — حسب رأيه — بمعاونة البحث الفيزيائى .

ويقول (لقد اتضح أن مفهوم الجوهر الجسمى المشابه للجوهر الملموس كما يظهر فى الأجسام التى نتعامل معها فى بيئتنا اليومية هو فكرة مقحمة من مجال التجربة الحسية ... وان التجارب التى تتيحها الظواهر الذرية تحتم التخلى عن فكرة الجوهر الجسمى ، وتقتضى اعادة النظر فى طريقة الوصف الى نصور بها الواقع الفيزيائى .

وباختفاء الجوهر الجسمى يختفى طابع اللغة المرتكز على قيمتين [٦١] ، ويتضح أن أسس المنطق واللغة انما هى نتائج للتكيف مع البيئة البسيطة التى ولد فيها البشر .

والحق أن الفلسفة التأملية ذاتها لم تكشف أبدا عن قدرة على التخيل مماثلة لذلك العمق الذى أبدته الفلسفة العلمية) [٦٢] .

* * *

---

(٥٩) المصدر السابق ص ٣١ .
(٦٠) نشأة الفلسفة العلمية ص ١٥٨ .
(٦١) يعنى فى مجالنا هذا الموجات ، والجزئيات ، ويقترح أمرا ثالثا « اللامحدد » الخ . أنظر نشأة الفلسفة العلمية ص ١٦٩ .
(٦٢) المصدر السابق ص ١٧٠ .

يقول الدكتور ليكونت دى نوى :

(ان العقل الذى اتجه الى الشك .. يقبل الآن بدون تردد الانقلاب الذى حصل فى النظريات الفيزيائية .

فهو يعترف بوجود فراغ غير مدرك تسبح فيه الالكترونات .. ويعترف بأن هذا الالكترون ماهو الا موجة احتمال .

ويعترف بوجود جزئيات كالنيترونات .

ويعترف بوجود الانتينرونات التى افترض وجودها لأسباب تناظرية رياضية بحتة [٦٣] .

ويتقبل بدون تردد وجود تلك الكيانات المتناقضة ظاهريا ... ولكنه يرفض باصرار أن يتقبل وجود قوة خارقة خلاقة ، بدونها لا يمكن أن تدرك كبريات المسائل العلمية ، لمجرد أن القواعد التى زودته بها خبرته محدودة .

الا أنه فى الحقيقة ليس هناك شىء غير معقول ، أكثر من انسان هو عقليا غير معقول) [٦٤] .

ومن هنا أيضا فانه يمكننا أن نقول علميا بالنتيجة التالية التى انتهى اليها العالم الكبير السير جيمس جنيس :

(ان الثنائية العتيقة التى تقول بالعقل والمادة .. آخذة فى الزوال ، لا لأن المادة تدخل فى ظلال وأشباح ، أو لأن العقل تحول الى وظيفة مادية بل لأن المادة الجوهرية هى شىء من خلق العقل ومظهر من مظاهره ، ونحن نستكشف أن الكون يبدى الدليل على قدرة قوة مدبرة أو مسيطرة لديها العقل) .

---

(٦٣) ذكرنا من قبل أنه تم افتراض هذا الانتينترونات لا لشىء الا لانقاذ قانون تكافؤ الطاقة والمادة وعدم انعدامهما .

(٦٤) مصير البشرية ص ١١٢ .

وأخيرا فانه لا مفر أمام الماديين من أن يعترفوا بما يحاولون انكاره ألا وهو أن المذهب المادى مذهب ميتافيزيقى •• يقول فيليب فرانك وهو يتحدث عن فلسفة العلم :

(اذا قلنا أن كل شىء فى الكون مادى ، ونحن لانستطيع استنباط كل شىء من قوانين الميكانيكا ••••

فمثل هذا النص لا يمكن تدقيقه من حيث المبدأ ، ومن ثم فان علينا أن نسميه نصا ميتافيزيقيا) (٦٥) •

***

٤ — عبادة المادة

يقول المستشرق المسلم ليوبولد فايس (محمد أسد) •

(ان الأوربى العادى سواء عليه أكان ديمقراطيا أو فاشيا ، رأسماليا أو بلشفيا ، صانعا أم مفكرا يعرف دينا ايجابيا واحدا هو التعبد للرقى المادى ، أى الاعتقاد بأن ليس فى الحياة هدف آخر سوى جعل هذه الحياة نفسها أيسر فأيسر ، أو كما يقول التعبير الدارج (طليقة من ظلم الطبيعة) •

ان هياكل هذه الديانة انما هى المصانع العظيمة ودور السينما والمختبرات الكيمائية وباحات الرقص وأماكن توليد الكهرباء •

وأما كهنة هذه الديانة فهم الصيارفة والمهندسون وكواكب السينما وقادة الصناعات وأبطال الطيران •

وان النتيجة التى لامفر منها فى هذه الحال هى الكدح وبلوغ القوة والمسرة •

وذلك بخلق جماعات متخاصمة مدججة بالسلاح ومصممة على أن يفنى بعضها بعضا حينما تتصادم مصالحها المتقابلة •

---

(٦٥) فلسفة العلم ص ٦١ •

أما على الجـــانب الثقـــافى فنتيجة ذلك خلق نوع بشرى تنحصر فلسفته الأخلاقيـــة فى مسائل الفائدة العملية ويكون أسمى فارق لديه بين الخير والشر انما هو التقدم المادى) (٦٦) .

٢ — ويقول الأستاذ اسماعيل مظهر :

(لماذا حمل دكتور شبلى شميل على الأديان ؟

حمل عليها متابعة لرأيه المادى جريا وراء غاية محـــدودة ، غاية سعى اليها كثير من ماديى القرن الثامن عشر .

وتنحصر تلك الغاية فى أن يتبدل النـــاس بدينهم دينا آخر ... وما هو ذلك الدين ؟

هو عبادة المـــادة .

أرادوا أن ينظروا اليها على أنها المصـــدر الأول للانسان والعلة الأولى التى فطرته وانها التى تحبوه بأسلوب الحيـــاة التى ينعم بها فوق هذه الأرض .

ناهيك بأن اليها مرده ومعاده) .

والتعبد للمادة ليس سنة الماديين المحـــدثين فحسب بل هو سمة أسلافهم أيضا . أنظر مايقوله الامبراطور مارك انطونين أحد أعـــلام الرواقيين ، وهم ماديون :

(اننى انما أتكون من صورة ومادة ، كلاهما لا يمكن أن يعدم الى لاشىء أو يكون قد حدث من لاشىء .

كل مايلائمك أيها الـــكون الفسيح يلائمنى .

---

(٦٦) الاسلام على مفترق الطرق تأليف محمد اسد ، ترجمـــة د. عمر فروخ طبعة بيروت التاسعة ١٩٧٧ ص ٤٧ ، ٤٨ .

وكل ماتنتجه أسبابك أيتها الطبيعــة العظمى ثمرة شهية عنــدى منك كل شىء • وفيك كل شىء • واليك يعود كل شىء) [٦٧] •

٣ ــ عبادة المــادة عند هولباخ :

تقوم مادية هولباخ الدجماطيقية (القطعية) على تأليه المــادة أو وصفها ببعض الأوصاف التى يختص بها الله كمــا أنهــا تقوم على الأسس التالية :

(أ) فهى تقوم على الاعتقاد بأن المــادة موجودة بذاتها ومن ثم فلا حاجة الى البحث عن قوة صــانعة لها ، أو مدبرة لحركتها •• وقــد بينــا فى موضع آخر [٦٨] فى مناقشتنا لحقيقة الخلاف بين المــاديين والمؤمنين حول المعبود ماتقع فيه المــادية من قصور وتقصير ، وتناقض لا يمكن تجنبه الا باعتقاد بوجود الله •

كما بينا فى نقد العلم الخالص عجزه بحسب طبيعته عن الامتداد فى المــاضى الى حد يدرك فيــه أصــل الوجود ، وعن الامتداد فى المستقبل الى حد يدرك فيــه غايتــه ، ومن هنــا تصبح المــادية فى حكمها على أصل الوجود ، بغير سند من العلم [٦٩] •

(ب) وتقوم مادية هولباخ: على ادعاء أن الايمان بالمادة «المعلومة» أولى من الايمان بغيرها من القوى المجهولة يقول :

(انه لا قرب الى الطبيعى والمعقول أن ننسب الى المادة كل شىء موجود ، لأن كل حاسة من حواسنا تبرهن على وجودها [٧٠] ، من أن نعزو تكون الأشياء لقوة مجهولة) •

---

(٦٧) ملقى السبيل ص ٤٣ ، ص ١٥٥ •
(٦٨) أنظر كتابنا « عقائد العلم » •
(٦٩) أنظر الباب الثالث من كتابنا « العقيــدة الاسلامية بين الفلسفة والعلم » •
(٧٠) ملقى السبيل ص ١١٣ •

وقد بينا هنا فى مبحث « غيبيات المـادة » سذاجة هذا الاعتقاد، حيث آلت المـادة الى شىء مجهول ، وبينـا فى مبحث عجز العـلم عن ادراك حقيقة الأشياء أن الادراكات الحسية لاتشبه حقيقة المـادة المدركة فى شىء (٧١) .

(ج) وتقوم مادية هولباخ على الاعتقاد بأن « العلم النيوتونى » يتضمن تفسيرا كاملا للـكون ، ولا يحتاج لاضافة من أى نوع (٧٢) .

وقد بينـا أيضـا سـذاجة هذا الاعتقـاد حيث تداعى التصور النيوتونى للعالم، وجاءتالفيزيقيا الحديثة، والنظرية التطورية بما يقلب هذا التصور ، كما بينا ما استقر عليه الرأى من أن العلم التجريبى انما يقدم وصفا تفسيريا للواقع الجزئى ، ولا يقدم تفسيرا كونيا عنها (٧٣). الأمر الذى يحتم أن تكون هنـا اضـافة ، اضافة أساسية ترضى حاجة العقل الى التفسير .

ولن تأتى هذه الاضـافة الا من مصـدر له علم بما وراء المادة وظواهرها ، أى من الوحى .

(د) وتقوم مادية هولباخ على الاعتقاد بحتمية القوانين الطبيعية وان هذا يبطل الاحتجاج بوجود النظام فى الـكون على وجود الله .

وقد بينـا بطلان هذا الاعتقاد فى مبحثينا عن لا حتمية القوانين الطبيعية وان هذه الحتمية — على فرض ثبوتهـا — لا تلغى القول — بالارادة الالهية (٧٤) .

---

(٧١) انظر كتابنا « العقيدة الاسلامية بين الفلسفة والعلم » .

(٧٢) انظر تكوين العقل الحديث ج ١ ص ٤٣٦ .

(٧٣) انظر مبحث نقائص العلموعجزه عن التفسير فىكتابنا « العقيدة الاسلامية بين الفلسفة والعلم » .

(٧٤) انظر مبحث حتمية القـانون لاتلغى الارادة الالهيـة فى كتابنـا « الاسلام والاتجاهات العلمية المعاصرة » .

(هـ) وتقوم مادية هولباخ على انكار القول بأن الـكائنات الذكية، تستمد ذكاءها من غير المادة ، فمن ثم يدل على علة ذكيـة قائمة وراء المـادة .

ينكر هولباخ ذلك برد الذكاء أو العقل أو الوعى الى المادة باعتباره ظاهرة من ظواهرها .

وقد بينا فسـاد هـذا الاعتقـاد فى مبحث القوانين والارادة الالهيـة .

وعلى فرض صحته ، فانه يجعل المـادية تؤول حتما الى الدخول فى حظيرة اللاأدرية ، وذلك لأن هـذا الاعتقاد يجعل « الوعى » اسما لحالة توافقية من حالات تشكل المادة ...

وهنا تصبح المعرفة الناتجة عن هذه الحـالة التوافقيـة — حالة عرضية مفتقرة الى أى مبرر يدعونا الى اتخاذها حكمـا على حقيقـة الوجود ، وكونه وجودا ماديا .

٤ — أما هربرت سبنسر فانه اذا كان قد ابتعد عن الديانة المسيحية فقد أخذ يتعبد لمـا سماه « المطلق » .

واذا كان المطلق عنده لايمكن معرفته ، فانه يصف هذه اللاأدرية بأنها (هى على التحقيق عند العقل البشرى الاتجاه الدينى نفسه) .

ويصف المطلق — مع ذلك — بأن له وجودا (يبلغ من سموه على العقل والارادة مبلغ سمو العقل والارادة على الحركة الميكانيكية) .

وهو يرتعد فرقا عندما يخلو الى نفسه ليتأمل هذا المطلق [٧٥] .

٥ — وفى الفلسـفة الوضـعية التى قامت على اسـتبعاد الدين والميتافيزيقا انتهى زعيمها الفيلسوف أوجست كونت (١٧٩٨—١٨٧٥)

---

(٧٥) أنظر العلم والدين لأميل بوترو ص ٨٩ .

الى اختراع ماسماه « دين الانسانية » وفيه تكون « الانسانية » هى المعبود ، وأبطالها هم موضع التعظيم والتكريم ، بل ذهب الى أبعد من ذلك ، حيث وضع لهذا الدين الجديد معبدا حقيقيا ، تنصب فيه التماثيل، ويصاغ فيه تمثال المعبود « الانسانية » على هيئة أنثى ، وتقام بجواره تماثيل نصفية لأبطال التاريخ •

يقول اميل بوترو بعد أن يتساءل :

كيف تم ادماج هذا الدين فى المذهب الوضعى بأسره ؟

يقول : (حصل ذلك على اثر هوى كومت لـكلوتيدى فو وهـذه واقعة لا سبيل الى الشـك فيهـا ، ولـكنها لاتنطوى بالضرورة على الدلالة التى ينسبها اليها الـكثيرون •

ان ضآلة المحبوب ، بالاضـافة الى مزاج كومت العاطفى يجعلان من هذه الحادثة سببا عارضا [٧٦] •

يقول أميل بوترو : (لاتتجه عبادة المـذهب الوضعى الى ذكرى أبطال الانسانية فقط ، بل موضوعاتها الأساسية :

الموجود الأعظم أو الانسانية •

والبيئة العظمى أو المـكان •

والمعبود الأعظم أو الأرض •

هذه الأقانيم تكون ثالوث المذهب الوضعى) •

ويقول وليم جيمس عن الديانة الوضعية :

(لقد أصبحت قوانين الطبيعة المادية فى هذه الأيام أيام الفلسفة الوضعية موضوعات مستحقة للتمجيد الذى لايكون الا لله) •

---

(٧٦) العلم والدين ص ٥٣ •

ويقول عن جناح من أجنحة الوضعية المتشددة فى وضعيتها :

(لايزال بعض رجال المذهب الوضعى ينادى اليوم قائلا :

هنـــاك اله واحد مقدس ، يقف فى جلاله ، وعظمته بين أنقاض كل اله غيره وكل وثن (••) — وهو الحقيقة العلمية — وليس له الا أمر واحد ، وقول واحـــد : وهى أن ليس لـــكم أن تؤمنوا باله لأن الايمان بالاله ارضـــاء للميول الذاتيـــة ••• وهم فى ذلك مخدوعون، انهم لم يفعلوا شيئا الا أنهم قـــد اختاروا من بين ميولهم المتعددة ، الميول التى تنتج أبخس النتـــائج وأحطها قدرا ، بل وأكثرها اقحالا ، وأعنى بذلك : مجرد عالم ذرى ، وضحوا بكل ماعدا ذلك من الميول)[٧٧]

٦ — وفى الفلسفة الماركسية التى قامت على المادية الديالـــكتيكية (الجدلية) انتهى التفكير الى اضفاء صفات الألوهية على « المـــادة » فهى تتصف بأنها أصل الوجود وانها « باقية لاتفنى » وانها «لانهائية» وان قانونها « الديالكتيك » يفرض نفسه على كل الأشياء ، ثم ذهبت هذه الماركسية أيضا خطوة أعمق فى طريقهـــا الى جعل هذه الفلسفة « دينـــا » حيث رأت ضرورة ادخالهـــا فى عقول العمـــال وقلوبهم : باعتبارها فلسفة « الشغيلة » التى يعتمد عليها وعليهم فى تغيير المجتمع وتثويره ، ومن أجل ذلك أدخل زعماؤهم فى اطار القـــداسة التى تضفى على الأنبيـــاء وكان لهم أصـــنام ومزارات يحج اليها الناس من أرجاء البـــلاد •

بل أن عبيد المـــادة هؤلاء عندما يجدون صـــعوبة فى التعبير عن الههم يعتذرون بمثل مايعتـــذر به المؤمنون بالله من ضيق وعاء اللغـــة البشرية عن استيعاب حقائق الألوهية •

وهذا مايعبر عنـــه مقـــال ديمترى ب• جورسكى عن « التمثيل العلمى للحقيقة وصعوباته » •

---

(٧٧) العقل والدين ص ٨٩ ، ٩٨ •

وهــذا ماقاله لينين عن « الحركة » وصــعوبة وصفها أو التعبير عنها : يقول : (نحن لانستطيع أن نحقق الحركات أو أن نعبر عنهــا ، أو أن نمثلها بدون أن نعطل التيــار المتصــل ، وبدون أن نعمــد الى تقسيمها وقتل الحساسية فيها ••) [٧٨] •

وهذا يؤكد مانقوله عن حلول المــادة محل الالهة فى الفكر المادى بما يكشف فى هــذا المحل عن غيبية وتأب عن احاطة الفكر البشرى • والماديون الملحدون يتناقضون مع نفسهم هنــا عندما يرفضون هــذه الصعوبة فى مجال الوهوت ويتقبلونها فى مجال المادة •

وفى البناء الماركسى يقوم الجانب العلمى على الجانب الاعتقادى لا كما يدعى أصحاب شعار « الاشتراكية العلمية » •

ففى مقال نشرته البرافدا فى عام ١٩٤٩ يقول رئيس أكاديميــة العلوم فى الاتحاد السوفيتى س• أ• فاينلوف تحت عنــوان « لينين والمسائل الفلسفية التى بالفيزياء الحديثة » •

« ان الفيزياء الســوفيتية تبنى عملها على ما أعتنق العــالم من المــادية الدياليكتيكية (وليس العكس ••) تلك التى رفع أمرها تأليف لينين وستالين •• ولــكننا لا يمكن أن نغفل حقيقــة واقعــة تلك أن بعضا من فيزيائينا مازال عندهم بقايا من آراء من المذهب التصورى •

ان من أخطر الواجبات علينا أن نحارب هذه البقايا من ذلك المذهب المنقرض بالنقد الذى لا يرحم •• » [٧٩] •

وفى مقال نشرته المجــلة الأســبوعية الانجليزية ناتشر فى مايو ١٩٥٠ جاءت هــذه الــكلمة الآتية لعضو من معهد علم الوراثة التابع

---

(٧٨) مجلة ديوجين العدد الثامن نوفمبر ١٩٦٨ ص ١٤٢ •

(٧٩) مواقف حاسمة فى تاريخ العلم ص ٤٨٩ — ٤٩٠ •

لأكاديمية العلوم السوفيتية : (اننا أعلنا مرارا ولا نزال نعلن أن العلم — انما هو علم حزبى طبقى — ان الطبقات المتوسطة ومن يسوغون لها مذاهبها — سواء كانوا بيولوجيين أو غير بيولوجيين — كانوا دائما فى خوف أن يقروا صفة العلم الحزبية) (٨٠)

٤ — أما أرنست هيكل (١٨٨٤ — ١٩١٩) فى محاربته للدين فهو يدعو الى وضع فلسفة علمية أو تأويل عقلى لنتائج العلم تعالج فيها المسائل التى تركت من قبل للدين والميتافيزيقا .

وعنده أن الفلسفة المستخلصة من العلم تتلخص فى كلمتين :

الواحدية والتطورية . فمن جهة الموجود واحد ، وجميع الموجودات ذات طبيعة واحدة ، وليس الخلاف بينها الا فى الدرجة ، أى كميا .

ومن جهة أخرى هذا الموجود ليس لا متحركا ، بل فيه مبدأ التغير ، وهذا التغير يعد فى ذاته ميكانيكا بحتا خاضعا لقوانين ثابتة .

ثم يضيف هيكل الى ذلك قوله :

(نحن نرى أن المادة لا يمكن أن توجد وتعمل بغير العقل) (٨١) .

حسن ، لقد اضطر هيكل الى الرجوع — مؤقتا — الى قاعدة التأليه التى يقول بها الدين ... وهو يقول أيضا « المادة التى فرضناها لا تتنافى مع الله ... لكنه مالبث أن زاغ ، اذ يقول :

(بل هى — أى المادة — الله نفسه ، اله داخل الطبيعة متطابق معها) (٨٢) .

---

(٨٠) مواقف حاسمة فى تاريخ العلم لجيمس كونانت ترجمة أحمد زكى ص ٤٩٠ . وانظر مناقشتنا للمادية الجدلية فى كتابنا عقائد العلم .
(٨١) العلم والدين ص ١٠٨ .
(٨٢) المصدر السابق ص ١١٠ .

وهنا يصبح لهيكل دين خاص به ، واله يدعى أنه استنبطه بالعلم، وأنه يرفضه اذا جاء من الوحى ، يقول :

(الأديان تقوم على الوحى ، والعلم لايعرف الا التجربة ولا يمكن لصاحب عقل مستنير أن ينتمى لكليهما فى آن واحد ، بل يضطر الى الاختيار واليوم لا يملك الشخص الغريب عن الثقافة الحديثة — يقصد الفلسفة العلمية — من العقل الا مقدار ماكان يمتلكه أقاربنا من الثدييات كالقردة أو الكلاب أو الفيلة) (٨٣) .

والخلاصة أن هذا المتعالى على الدين ، الداعى الى ما يسميه الفلسفة العلمية أو الواحدية ليست الواحدية عنده — فى حقيقتها — الا نوعا من وحدة الوجود على أساس مادى .

تعقيب على أوثان العلم :

وأخيرا :

يقول هربرت سبنسر فى ترجمته الذاتية : (ان الدائرة التى تشغلها الاعتقادات الدينية من النفس لا تبقى خالية أبدا بل تشغلها المسائل الكبرى المتصلة بأنفسنا وبالعلم) (٨٤) .

ومن هنا نقول :

انه ليس بلازم أن تجرى المناقشة بين الالحاد والدين ، على أساس سوق الأدلة على وجود الله .

وانما تجرى ، أو يصح أن تجرى على أساس اجراء المقارنة بين المعبود هنا والمعبود هناك ، والمعتقدات هنا والمعتقدات هناك .

---

(٨٣) المصدر السابق ص ١١٠ .

(٨٤) العلم والدين ص ٩٠ .

وصدق الله العظيم القائل :

« وما قدروا الله حق قدره •• » (سورة الزمر آية ٦٧) •

مقـارنة المعبود : بين الالحـاد المـادى ، والايمـان بالله •••

فى اعتقادنا أن الفريقين متفقان على أصل معبود ، مختلفان على الصفات التى يوصف بها « الأصل المعبود » •

ان الماديين يقولون بأصل للعـالم يتصف بالوجوب — والقـدم والخلود والسلطان ، واحداث الحيـاة والعقل ، والتقدم •• وهـذا محل اتفاق •• ولـكنهم يتوقفون عند ذلك فيقعون فى تصورهم لهـذا الأصل فى التناقض والقصور •

أما الالهيون الذين يقولون بأصل للعـالم يتصـف بالوجوب ، والقدم ، والسلطان وأحداث الحيـاة ، والعقل ، والتقـدم •• فانهم يصفونه بكونه ، مريدا عالما ، خالقا ، مدبرا ، حيا ، قديرا ، سميعا ، بصيرا ••• وهذا هو موضع المفاضلة بين الماديين والالهيين [٨٥] •

واذن فلا مجال لطرح موضوع الخلاف حول المعبود على أنه بين من يثبت للعالم أصـلا معبودا يرجع اليه يتصـف بوجوب الوجود ، والخلود ، والأبدية ، والأزلية واللانهائية ، محدثا للحركة ، والحيـاة والعقل ، والتطور ، والتقدم ••• وبين من ينكر ذلك ••

ولـكنه بين من يعتقد أن معبوده « الله » ويصفه بالصفات الواجبة له • ويراه من غير جنس هذا العـالم متعاليا عليه • وبين من يعتقد أنه « مادة » يراه من جنس هذا العالم فى أحط درجات وجوده ••

وهو بين من يصف معبوده بأوصـاف يقتضيها كونه أصلا وبين من يصفه بأوصاف ، لا تتفق مع ذلك •

---

(٨٥) شرحنا هذه المفاضلة فى كتابنا عقائد العلم •

فالخلاف فى حقيقته يرجع الى « صفات » هذا « الأصل المعبود » لا الى « وجوده » •

ومن هنا فالماديون ليسوا فى جوهرهم منكرين لوجود أصل معبود ولكنهم مشركون يصنعون آلهة من عندهم ، وينحطون بأصل الوجود وبمعبودهم الى أحط الدرجات •

« ان الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر مادون ذلك لمن يشاء »[٨٦] •

(سبحان ربك رب العزة عما يصفون)[٨٧] ••• صدق الله العظيم

***

يقول ابن تيميه :

(لم يرد التكليف بمعرفة وجود الصانع وانما ورد بمعرفة التوحيد ونفى الشرك) •

ويقول ابن القيم فى مدارج السالكين (ان وجود الرب تعالى أظهر للعقول والفطر السليمة من وجود النهار ، ومن لم ير ذلك فى عقله وفطرته فليتهمها) •

وما قدمناه عن معبودات الملحدين الماديين ، يدل فى وضوح على أن الايمان بالله فطرة فى النفس البشرية • وان هذه الفطرة ان لم تجد تعبيرا فى الدين الذى يأتى به الوحى من الله ، أدخلت فى مسخ من

(٨٦) سورة النساء آية ٤٨ •

(٨٧) سورة الصافات آية ١٨٠ •

المذاهب الالحادية ، ووقعت فى أسر العبودية لغير من يستحقها [٨٨] •

وفى طريق الفطرة يقول ابن تيميه :

(ان فطرة الخلق مجبولة على أنهم متى شاهدوا شيئا من الحوادث المستجدة كالبرق والرعد والزلازل ذكروا الله وسبحوه ،لأنهم يعلمون أن ذلك المتجدد لم يتجدد بنفسه بل له محدث أحدثه •

وهم يعلمون هذا فى سائر المحدثات وان كان ما اعتادوا حدوثه صار مألوفا لهم بخلاف المتجدد الغريب •

وخلق الانسان من أعظم الآيات ، فكل واحد يعلم أنه هو لم يحدث نفسه ، ولا أبواه ، ولا أحد من البشر أحدثه •

ويعلم أنه لابد له محدث ، فكل يعلم أن له خالقا خلقه ، ويعلم أنه موجود حى عليم قدير سميع بصير ، ومن جعل غيره حيا كان أولى أن يكون حيا ، ومن جعل غيره عليما كان أولى أن يكون عليما ومن جعل غيره قادرا كان أولى أن يكون قادرا •

كما قال تعالى « وفى أنفسكم أفلا تبصرون ») [٨٩]

---

(٨٨) يقول وليم جيمس بعد ان بين ان الانسان هو بغريزته وفطرته معتقد متيقن « ان أعاظم رجال المذهب التجريبى منا ليسو تجريبيين الا من ناحية نظرية فحسب فاذا ماتركوا لغرائزهم وطبائعهم فانهم يعتقدون ويتيقنون كما يفعل البابا نفسه » • ويقول : « ولكن اذا كنا بالغريزة من رجال المذهب المطلق فما الذى يجب أن نفعله ونحن فلاسفة ازاء هذه الحقيقة ؟ هل نتقبلها وندافع عنها ؟ أم ينبغى أن نعتبرها حالة ضعف فى طبيعتنا يجب ان نعالج انفسنا منها بقدر الامكان » أهـ أنظر العقل والدين ص ١٦ •

ان الضرورة العملية هى الشىء الوحيد الذى يقف بجوار الفطرة فى هذا المقام وهى التى ترجح لدينا قبولها وتبعد عنا اعتبارها حالة من حالات الضعف •

(٨٩) سورة الذاريات اية ٢١ •

ثم يقول : (فما عدت هذه المسألة من النظريات التى يقام عليها برهان فان الفطرة الانسانية تشهد بضرورة فطرتها وبديهة فكرتها بصنع قادر عليم حكيم وهذا قوله تعالى :

« أفى الله شك » •• وقوله تعالى •• « ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن خلقهن العزيز العليم » لقمان ٢٥ •

وان هم غفلوا عن هذه الفطرة فى السراء فلا شك أنهم يلوذون اليها فى حال الضراء ••

قالل تعالى : « واذا غشيهم موج كالظلل دعوا الله مخلصين له الدين » العنكبوت ٦٥ •

يقول تعالى : « واذا مسكم الضر فى البحر ضل من تدعون الا اياه » الاسراء ٦٧ •

صدق الله العظيم

***

٥ ـ الآخرة

تشترك اتجاهات الالحاد العلمى على اختلافها فى الاعتقاد بالحياة المؤجلة (الآخرة) التى يستكمل فيها مانقص من هذه الحياة الحاضرة •

وهذه السمة الخامسة من سمات الدين التى أشرنا اليها فى مستهل هذا الفصل •

وليست نظرة الالحاد العلمى الى المستقبل مجرد نوع من التوقع لما يأتى فى الغد ، وانما عقيدة لازمة من أجل تبرير مايستمسك به من نظرة الى الماضى ، والى الحاضر ، وبدون هذه النظرة المستقبلية الاعتقادية ينهار البناء الكلى للاتجاه الالحادى •

يقول وليم جيمس (ان ثورة العلم ضد الكرامات وخوارق العادات ، وثورة بعض الفلاسفة ضد حرية الارادة لم تنبت كلها الا من أصل واحد : هو كراهية الاعتراف بوجود عنصر يمكن أن يشككنا فيما عرفناه عن المستقبل) [٩٠] •

فهؤلاء يستنيمون فى غيبوبة لذيذة الى عقيدة غيبية عن المستقبل تزعجهم عنها الكرامات •

١ — ففى مجال العلم البحت — مثلا — لابد من هذه النظرة عند سماسرة الالحاد لتصح دعواه فى كفاية العلم التجريبى لتفسير الوجود ، وتفسير المستقبل ، وازاحة الميتافيزيقا والدين عن هذا الطريق •

يرى كارل بيرسن أنه (من الخطأ الاعتقاد بأن جهل العلم حاليا يعنى أنه سيظل الى الأبد جاهلا فى المستقبل • فليس لنا أن نقطع بأن هناك ميادين ستظل مستعصية على العلم الى الأبد ، وبأن هناك أنواعا أخرى من المعارف غير العلمية هى التى تهدينا فى هذه الميادين ذلك لأن قدرات العلم لا حدود لها ••) [٩١] •

ومع ذلك فان بيرسن يقر بعجز العلم عن ادراك العالم الخارجى وهذا هو التناقض بعينه •

ان العالم الخارجى فى نظره فكرة مزعومة لأن أقصى مانقترب به من ذلك العالم المسمى بالخارجى هو أطراف أعصابنا الحسية ، وموقف العالم فى هذا يشبه موقف عامل التليفون الذى لا يتصل بالمتحدثين الا من خلال الطرف المجاور له من أسلاك التليفون •

---

(٩٠) الدين والعقل ص ٥٠ •
(٩١) تراث الانسانية ص ٩١٩ العدد ١٢ المجلد ٣ •

بل اننـــا فى موقف أسوأ من موقف صـــاحبنا هذا اذ أننـــا لم نخرج من مركز التليفون ولم نشاهد أبدا واحدا من أؤلئك المتحـــدثين الذين تصلنا أصواتهم من خلال الأسلاك ، فالعـــالم الخارجى بالنسبة الينـــا كما هو بالنسبة الى هـــذا العـــامل هو مجموع الرســـائل أو المـــكالمات التى تنقلها الأسلاك أو الأعصاب •• الينا حيث نكون ، اننا لانعرف شيئا على الاطلاق عن طبيعة « الأشياء فى ذاتها » •

ان مايسميه الميتافيزيقيون بالأشياء فى ذاتهـــا •• لانعرف نحن عنه الا صـــفة واحدة هى « القدرة على تكوين انطبـــاعات حسية وبعث رسائل تمر بأعصـــاب الحس حتى المخ ، فهذا هو القول العلمى الذى يمكن الادلاء به بشأن مايوجد وراء الانطباعات الحسية » [٩٢] •

وهنـــا يبـــدو كارل بيرسن فى قمة اليأس من معرفة العـــــالم الخارجى ومن معرفة الشىء فى ذاته بالرغم من اعترافه بوجوده ••

يقول (وعالم الانطبـــاعات الحسية هـــذا مغلق علينا تماما ولا أمل لنا فى أن نبعد عنه خطوة واحدة) [٩٣] •

فأين هذا من ايمانه بقدرات العلم الذى لاحدود له ؟

وفيم كان اذن طرد جميع وسائل المعرفة الأخرى وانكارها ؟؟

٢ — ويقول برتراند رسل بناء على مبدأ عدم التحديد ••

« ان اكتشافات العلم الحـــديث تبين لنـــا أن الذرة غير خاضعة لقوانين الطبيعة القديمة فهل يعنى هذا أن الذرة غير خاضـــعة للقوانين على الاطلاق ؟ » [٩٤] •

---

(٩٢) ، (٩٣) تراث الانسانية ص ٩٢١ العدد ١٢ المجلد ٣ .

(٩٤) مجموعة عالمنا المجنون لنظمى لوقا ص ٥٦ ، ٥٨ .

وبدلا من أن يفترض رسل أن الذرة تدخل تحت قوانين غيرقوانين الطبيعــة التى عجز العلم عن كشفها فيفتح الباب للميتافيزيقا والدين، يفترض عن طريق الايمان الغيبى (أيضا) :

(ان نظرية الذرة الفردية الحرة تقع تحت رحمــة علم الطبيعــة التجريبى الذى ربما استطاع فى أى لحظة أن يكتشف القــوانين التى تنظم سلوك الذرات الفردية) •

ويقول رسل (اننــا لانجد مبررا كى نظن أن سلوك الذرات غير خاضع لقانون •

ان الطرق التجريبية لم تستطع الا فى أزمنة جد قريبــة أن تلقى أى ضوء على سلوك الذرات الفردية ، فلا عجب فى أن قوانين هــذا السلوك لم تكتشف كلها ، ومن المستحيل الآن نظريا وعمليا عدم خضوع مجموعة من الظواهر لقوانين ، وانما نستطيع أن نقول ان هذه القوانين موجودة ولــكنها لم تكتشف بعد) •

ويقول فى مجال الارادة الانسانية :

(ان كشف القوانين العلمية — فى مجال أعمــال الانسان — أمر يمكن تماما كما هو ممكن فى أى ميدان آخر ، حقا يعترف العلماء بعدم قــدرتهم على التنبؤ بأعمال الانسان تنبؤا كاملا أو يقرب من الــكمال، ولــكننا نرجع ذلك الى تعقد الــكيان الانسانى وتضافر عوامل متعددة لاحداث السلوك •

الأمر اذن لايعنى أن نفترض عدم وجود قوانين على الاطلاق ، لأن مثل هذا الافتراض لن يلبث أبدا أمام الفحص الدقيق) [٩٥] •

---

(٩٥) المصــدر السابق ص ٥٧ •

ونحن نقول له :

وهل ثبت أمام الفحص الدقيق أن العلم سيكشف حتما عن القوانين التى تحكم أعمال الانسان وارادته ؟ .

ان جزم رسل بأن العلم سوف يصل فى المستقبل ان هو الا اعتقاد ارادى مبنى على ايمان مطلق بقدرة العلم .

يقول هانز ريشنباخ — وهو ملحد أيضا — (ليس هناك سبب يدعونا الى افتراض أن الجزئيات تخضع لقوانين صارمة) [٩٦] .

ان رسل ليس لديه سبب للاعتقاد بأن العلم سوف يتمكن فى المستقبل من الوصول الى معرفة مايجهله اليوم سوى قوله :

(ان النظريات العلمية قد فسرت قدرا منها يكفى لترجيح الاعتقاد بأن هذه النظريات ستفسرها كلها مع الزمن ..) [٩٧] .

ان رسل باعتقاده هنا أن العلم سيكشف فى المستقبل عن قوانين الذرة التى اكتشفنا جهلنا بها اليوم ، يناقض نفسه اذ يقول فى موضع آخر :

(الآن وجب علينا أن نعترف بالجهل التام المطلق الذى لا استئصال له أبد الدهر بما تفعله الذرة فى لحظاتها الساكنة) [٩٨] .

وهنا نضرب مثالا على ماينطوى عليه مثل هذا الاعتقاد من مجازفة وفساد .

---

(٩٦) نشأة الفلسفة العلمية ص ١٤٧ .
(٩٧) مجموعة عالمنا المجنون ص ٧٧ .
(٩٨) العقل والمادة « مجموعة مقالات وأبحاث لبرتراند رسل » ، جمعها وترجمها احمد ابراهيم الشريف ص ٢٠١ .

ذلك أنه ذاع فى القرن الثامن عشر مذهب فى الانقلاب الجنينى يسمى « مذهب التكوين » وينحصر هذا المذهب فى القول بأن كل جرثومة حية تحوز حتما كل الأعضاء والصفات التى تمتاز بها الصورة فى حال بلوغها ، وغاية مافى الأمر أن المجهر المستعمل آنذاك ليس فى مستطاعه أن يكشف عن تلك الأعضاء الكائنة فى البيضة الأولى لصغر حجمها وضعف قوة الكشف فى المجهر •

واذن فالأمر مجرد قصور فى أجهزة الكشف والقياس ، سوف يزول حتما بتقدم العلم والتوصل الى أجهزة أدق ••

يقول الأستاذ اشلى مونتاجيو (فى تلك الأيام التى كانت فيها المجاهر بدائية الى حد كبير كان خيال العلماء يعوض مالا تستطيع العدسة القيام به •

وهكذا كان ينظر الى الحيوان المنوى على أنه رجل صغير كامل الفعل ، وجميع أجزائه متكونة من قبل ، ولا ينتظر الا الفرصة التى تسنح له للتكشف والتفتح ••

وفى عام ١٧٥٩ وضع عالم المانى يدعى (كاسبار فلف) نظرية مضادة تعرف باسم « نظرية الخلق أو التكوين الجرثومى » تتلخص فى أن تطور الجنين يحدث بطريقة تلقائية تماما ، وخطأ هذه النظرية ينحصر فى الاعتقاد بأن الجرثومة تخلو تماما من أى تكون عضوى •• هاتان النظريتان تنتميان الآن الى التراث التاريخى للعلم وليس هناك اليوم عالم يؤمن بأيهما) [٩٩] •

ونحن نقصد بهذا أن تغطية الحاضر المعيب بالثقة فى مستقبل تتوفر فيه الألة والبراهين •• كثيرا ما انتهى الى خيبة ظن وانفضاح وفساد ••

---

(٩٩) الوراثة البشرية ص ٩٤ — ٩٦ •

ولا يستعمل الملحدون العلميون سلاح الترقب للمستقبل هذا فى جبر عثرات العلم عندما يبدو ضعيفا فى مواجهة الدين فحسب .. وانما هم يستعملونه فى الحالة العكسية أيضا ... أى يستعملونه فى اتهام « العلم الحاضر » عندما يبدو وكأنه قد توصل الى نتيجة مؤيدة للدين .

كما هو الحال فى القانون الثانى للديناميكا الحرارية الذى يدل على حدوث العالم ودلالة ذلك كله على الصانع ..

فهنا نجدهم يشككون فى هذا القانون العلمى على أساس الاعتقاد الغيبى فى أن « مستقبل » العلم سوف يتراجع عن تأييده للدين ..

أنظر مايقوله رسل عن هذا القانون الثانى للديناميكا الحرارية الذى أشرنا اليه يقول : (ان الاستدلال به ليس يقينا . فقد لايسرى القانون الثانى للديناميكا الحرارية على كل زمان ومكان ، أو قد نكون مخطئين فى القول بأن الكون متناه فى المكان ..) هكذا .. يبدو لنا شيئا فشيئا ان الحاد هؤلاء محض « ارادة » .

٤ — يقول الدكتور ليكونت دى نوى :

(لسنا من أولئك الماديين العريقين الذين يتمسكون بآرائهم واعتقاداتهم رغم كونها سلبية بدون أى برهان :

فيعتقدون أن بداية الحياة ، والتطور ، والعقل البشرى ، وولادة الأفكار الخلقية سوف تصبح تحت سيطرة العلم فى يوم ما وينسون أن ذلك يتطلب تغييرا فى علومنا الحديثة ، وبالتالى فانه اعتقاد يرتكز على تعديلات عاطفية) (١٠٠) .

---

(١٠٠) مصير البشرية ص ١١٠ .

ان هـذه الموضـوعات التى أشـار اليها ليكونت دى نوى هى الموضـوعات التى اختص بهـا الدين ، أو الميتافيزيقـا ، وسماسرة الالحاد عندما يزيحون الدين عن هـذه الموضـوعات يضطرون — فى مواجهة الحاح العقل البشرى — الى ادخالها فى نطاق المستقبل المجهول « آخرة العلم » لا لشىء الا لتستكمل الدائرة ، دائرة الحصـار حول الدين .

٢ — وفى ديانة المذهب الوضعى « ديانة الانسانية » ..

(يستطيع النـاس أن ينعموا فى الانسانية .. بالخلود الـذى يتطلعون اليه . ذلك أن الانسانية تضم اليهـا كل ما يطـابق جوهرها وتحتفظ به وتتحد معه وكل مايجعلها أعظم وأجمل وأقـوى ، وتتألف الانسانية من الأموات .. أكثر مما تتألف من الأحيـاء . هؤلاء الأموات يعيشون .. فى ذكرى الأجيـال الحاضرة .. وهى ذكرى متحركة فعالة مؤثرة : فالأموات يؤثرون فى الأحيـاء بما يبعثونه فيهم من غيرة نبيلة تدفعهم الى أن يكـونوا جـديرين بالانضـواء تحت لواء أجـدادهم العظماء)[١٠١] .

أما الخلود الموضـوعى الذى تقول به اديان الأخرى فترفضـه ديانة الوضعية اذ ماقيمة الاستمرار المـادى فى المـكان ، بالقيـاس الى الحيـاة المتصلة فى الزمان وفى الضمائر ، هذه الحياة التى تحقق وحدها أعز رغبة لقلب الانسان ألا وهى اتحاد النفوس فى الأزل)[١٠٢]

٣ — وفى الديانة الماركسية نجد الحلم الذى تنصبه للانسانية فى قيـام مستقبل تتحقق فيـه الشيوعية ، وتختفى الصراعات الطبقية ، وتزول الدولة ، وتتوفر الاحتياجات كلها ، لـكل الأفراد ..

---

(١٠١) هذه ليست حيـاة للأموات ولـكنها فى الحقيقة ارتكاس الى عبادة الأسلاف فى الديانات الوثنية .

(١٠٢) العلم والدين لاميل بوترو ص ٥١ .

والشيوعية اذ تمنى الشعوب الرازحة تحت سلطانهـا بمستقبل « آخـرة » غير منظور فانهـا تفعل ذلك لتبرير ماتقوم به من سحق الأجيـال الحاضرة وتخديرها عن عذاباتها الراهنة « الدنيوية » وهـذا هو ماتسجله الوقائع التاريخية فى البلاد التى نكبت بهذا النظام •

ومن هنـا فانه لينبغى القول بحق أن هذه الآخرة الشيوعية هى « أفيون الشعوب » •

❋ ❋ ❋

ان للالحاد نظـامه المثلوب للمستقبل ، وتوقعـاته العرجاء التى يرسمها له ، وهو يدعو اليه بمنطق الايمان ، لا بمنطق النقد العلمى الذى استعمله فى هـدم الأنظمة الأخرى ، ولا نكون مبالغين اذا ذهبنـا مع القول بأن ثورته ضد الخوارق والمعجزات ليست الا كراهية للاعتراف بوجود عنصر يمكن أن يشككنا فى المستقبل الذى يروج له فى سـوق العـلم •

واذا كان من الصحيح مايقوله وليم جيمس من أنه (لابد لـكل مذهب فلسفى أو عقيدة دينية من تحديد اجمالى للمستقبل ••) •••

واذا كان من الصحيح مايقوله أيضا من أنه لابد لـكى ينجح هذا التصور المستقبلى من أن :

(يتناسب مع قوانا وميولنـا الذاتيـة) [١٠٣] •••

فانـنـا نقول أنه لابد لهـذا التصور من أن يتصف قبل ذلك وبعد ذلك :

أولا : بالصـدق •

ثانيا : بالقـداسة •

---

(١٠٣) العقل والدين ص ٥٠ ، ٥١ .

ثالثا : باليقين •

رابعا : بالخلود •

خامسا : الربط العملى بين « الحاضر : الدنيـا » « المستقبل : الآخرة » •

ولا شك أن هذه الأنظمة الالحادية لاتتصف واحدة منها بشىء من هـذه القيم •

بل هى على العكس من ذلك •

تعلن انكارها لها •

أو تجاهلها اياها •

أو استخفافها بهـا •

وهذا سر من أسرار فشل المذاهب المادية ، وعجز أوثانها عن أن تحوز قبول الانسـان وان لم يمنعها هـذا الفشل من انشاب أظافرها فى كيانه •

* * *

ان انتشار هـذه المـذاهب فى أرجاء من عالمنا الاسلامى انمـا يرجع الى أوضاع سياسية من جانب ، والى تعمد الغموض فى عرضها من جانب آخر •

أهم هذه الأسباب فى رأينا هو جيل الرواد الثقافيين الذين رباهم الاستعمار فى هـذه البـلاد ، حيث عمل على تربيتهم تربية ثقافيـة وعقلية ووجدانيـة قائمة على التنكر لأصالتهم وتراثهم ، فنشأ من ثم هـذا الجيل وهو متوجه بكليته للأخذ من المصـادر الغربية ، والاعتقاد بأن التقـدم يعنى اقتبـاس الأنظمة الغربيـة بما تحتوى عليـه من فلسفات ، وعقائد ، تنتمى تارة الى اليمين وتارة الى اليسار ، وهى على

كل الأحوال فلسفات وعقائد مناقضة فى طبيعتها للاسلام ، لقد رباهم الاستعمار على الاعتقاد بأن التخلص من التخلف يقتضى التخلص من الاسلام نفسه ، ولقد فعل الاستعمار ذلك اعتقادا منه بأن هذا الجيل الذى يربيه على هذا النحو ، سوف يقوم مقامه فى التحكم فى مصائر هذه الشعوب عندما يضطر للرحيل ، تحت ضغط النزعات القومية أو الوطنية فيصبح القادة المنتخبون من هذا الجيل عملاء له يحكمون البلاد لحسابه ، والذى حدث أنه بعد رحيل الاستعمار الغربى اتجهت هذه العقول المستعمرة الى المعسكر الشيوعى ، وهى فى كلا الحالين مدفوعة بالشعور بعدم الثقة فى النفس ، والاحساس بالعبودية لسادتهم فى الغرب ، ونحن فى الحقيقة اذ نرثى لهذا الجيل من الرواد خواءهم النفسى ، وانتماءهم الى الشيطان ، وكفرهم بالله ، وخيانتهم لأنفسهم وأوطانهم نطمئن الى أنهم فضحوا بذلك أنفسهم أمام الجيل الذى يأتى من بعدهم وكشفوا عن عوارهم ، ونأمل فى الجيل القادم أن يثوب الى أصالته وأن يدرك أن الاسلام هو الضمان الوحيد للحرية والتقدم على السواء .

خلاصـــة لهذا الفصـــل الأخير

وفي ضــوء ما أثبتنــاه وأوردناه ، في هذا الفصل ندعو القارىء الى تدبر ما يأتي :

١ — ان الالحاد العلمى وهو يهاجم الدين لم يفعل الا أن استبدل دينــا بدين .

استبدل الدين المزيف بالدين الحق .

وقــد انطوى دينــه المزيف على الخصائص العــامة التى هوجم الدين الحق من أجلها :

(أ) الاعتقاد الأولى أو الايمان .

(ب) التسليم بالغيبيــات .

(ج) القول بالأصل القديم الذى يرجع اليه العالم .

(د) العبــــادة .

(هـ) الآخــرة .

وهذا فى حد ذاته كاف فى نقض الالحاد العلمى ، لأن فيه فضحا للــكذب والدجل الذى ينطوى عليه موقفه فى انكار الدين .

٢ — ان الالحاد العلمى وقــد اســتبدل بالمعبود الحق « الله » معبوداته الخاصــة ، لم يفعل الا أن دعا النــاس الى الهبوط بمستوى معبوداتهم والا أن دعاهم الى الشرك ، وتعدد الآلهة .

يقول لويس دى بروجلى :

(تبنى كثيرا من علماء اليوم — وهم فريسة لواقعية بارعة دون

أن يدركوا ذلك — ميتـافيزياء معينــة ذات طـــابع مادى مكينى ، معتبرين اياها التعبير ذاته عن الحقيقة العلمية .

ومن أجل الخـدمات التى قـدمها التطور الحـديث للفيزياء ، للفكر المعاصر أنه دمر هذه الميتافيزياء المبسطة .

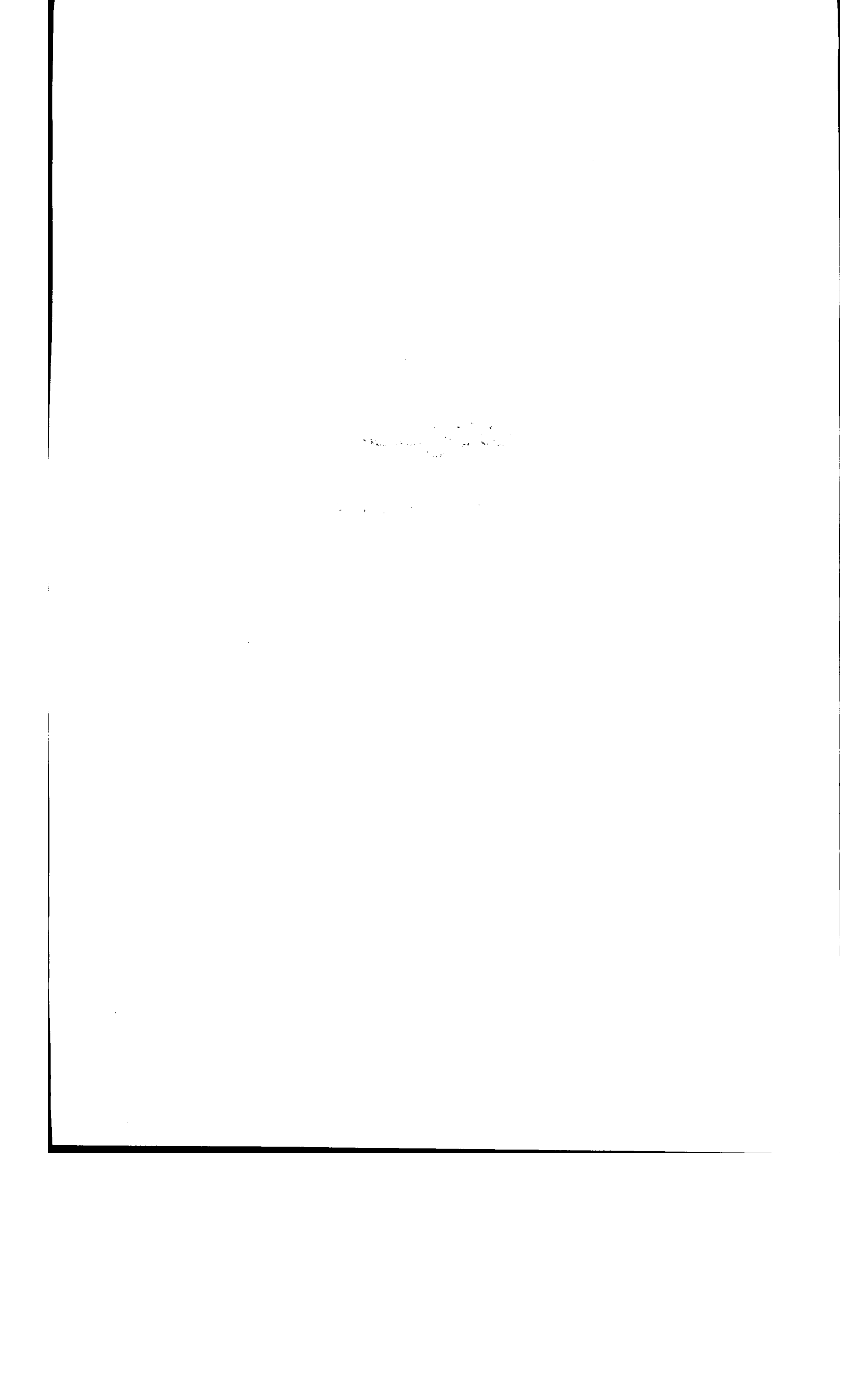
ووضع بنفس الضربة مشاكل فلسفية تقليدية معينة موضع التأمل من جديد ، تحت أضواء جديدة كلية) [١٠٤] .

---

(١٠٤) الفيزياء والمـكروفيزياء ص ٢٦٧ .

الفصل السادس

ان الدين عنــد الله الاســلام



الاسلام دين الله الأنبياء والرسل والبشر جميعا :

الاسلام ليس هو ما أنزل على سيدنا محمد ﷺ فحسب ، وليس هو ما أنزل على الرسل والأنبياء قاطبة فحسب .

بل انه الدين عند الله أزلا ، وأبدا .

وهذا هو معنى قوله تعـــالى :

« ان الدين عند الله الاســـلام » آل عمران ١٩ .

ومن هنـــا يأتى قرار قاطع برفض كل دين غير دين الاسلام .

« ومن يتبع غير الاسلام دينا فلن يقبل منه » آل عمران ٨٥ .

وهذا الرفض ليس تعصبا ، ولا انحسارا الى زاوية ضـــيقة من زوايا الـــكون أو المجتمع .. وانما هو العكس من ذلك .

هو ازاحة لـــكل ما يحول بين الانسان وبين الانتساب الى الكون فى شموله وأبديته .

« ان الدين عند الله الاســـلام » .

بل هو ازاحة لـــكل ما يحول بين الانســـان وبين الانتســـاب الى الانسانية كافة .

يدل على ذلك شمول هذا الدين لجميع الأنبياء .. والرسل :

« شرع لـــكم من الدين ما وصى به نوحا والذى أوحينـــا اليـــك وما وصـــينا به ابراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تفرقوا فيـــه » الشورى ٤٢ .

ويقول تعـالى : « قولوا آمنا بالله وما أنزل الينا وما أوتى موسى وعيسى وما أوتى النبيـون من ربهم لانفرق بين أحـد منهم ونحن له مسلمون » البقرة ١٣٦ ٠

ومن الحقائق ذات المغزى العميق فى دلالتها على استغراق هـذا الدين لجميع الأنبيـاء والمرسلين أن ترى القرآن الـكريم يتتبع الرسل وأصحابهم فيما يشبه الاستقصاء ليصفهم بالمسلمين ٠

فى شأن سيدنا نوح ، يذكر القرآن على لسانه قوله « وأمرت أن أكون من المسلمين » يونس ٧٢ ٠

وفى شأن سيدنا ابراهيم واسماعيل يأتى قولهم : « ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك ٠٠ » البقرة ١٢٨ ٠

ويأتى قوله تعالى أيضا — فيما يشمل ابراهيم وبنيه وأحفاده :

« ووصى بها ابراهيم بنيه ويعقوب ، يا بنى ان الله اصطفى لـكم الدين فلا تموتن الا وأنتم مسلمون » البقرة ١٣١ — ١٣٢ ٠

وفى شأن سيدنا لوط والمؤمنين من قومه يأتى وصفهم بالمؤمنين :

« فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين » الذاريات ٣٦ ٠

وفى شأن سيدنا يوسف يأتىقوله تعالى: « توفنى مسلما وألحقنى بالصالحين » يوسف ١٠١ ٠

وفى شأن سيدنا موسى وصحبه ٠ اذ يقولون لفرعون :

« وما تنقم منا الا أن آمنا بآيات ربنـا لمـا جاءتنا ، ربنا أفرغ علينا صبرا وتوفنا مسلمين » الأعراف ١٢٦ ٠

بل ان فرعون موسى يقول عند الاحتضـار « وأنا من المسلمين » يونس ٩٠ ٠

وفى شأن سـيدنا سليمان ، يقول فى خطابه الى قوم سبأ « ألا تعلوا على وأتونى مسلمين » النمل ٣١ .

وملـكة سبأ اذ تستجيب لدعوته تقول :

« وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين » النمل ٤٤ .

وفى شأن سيدنا عيسى ، وصحبه الحواريين :

« فلما أحس عيسى منهم الـكفر قال من أنصارى الى الله ؟ قال الحواريون نحن أنصار الله آمنا واشهد بأنا مسلمون » آل عمران ٥٢ .

بل يصل الاستقصاء الى ذكر مايدين به الجن :

« وأنا منا المسلمون ومنا القاسطون » الجن ١٤ .

وهذا الدين لايقبل التبديل لأنه دين الفطرة التى لاتبديل لها « فأقم وجهك للدين حنيفا ، فطرة الله التى فطر الناس عليها ، لا تبديل لخلق الله » .

ويسـتنكر القـرآن أية ديانـة غـير الاسـلام على مسـتوى الانسانية كلها :

« وقالوا لن يدخل الجنة الا من كان هودا أو نصارى قل هاتوا برهانكم ان كنتم صادقين .

بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربه ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون » سورة البقرة ١١٢ .

***

ويقول الرسول ﷺ فيما جاء فى الصحيحين :

(انا معاشر الأنبياء ديننـا واحد) ؟! (١)

---

(١) فى نفس الوقت نحن نحذر من فكرة وحدة الأديان — على حالها — تلك المنبثقة من نظرية فى وحدة الوجود عند بعض الصوفية .

ويقول الامام الطحاوى فى « العقيدة الطحاوية » :

« ودين الله فى الأرض والسماء واحد ، وهو دين الاسلام » .

ويقول الدكتور محمد عبد الله دراز (انا اذا أخذنا كلمة اسـلام بمعناها القرآنى [٢] نجدها لا تدع مجالا للسؤال عن العلاقة بين الاسلام وبين سائر الأديان السماوية ، فالاسلام فى لغة القرآن ليس اسما لدين خاص ، وانما هو اسم للدين المشترك الذى هتف به كل الأنبياء ، وانتسب اليه كل أتباع الأنبياء) [٣] .

* * *

واذن فوحدة الدين عند الله عقيدة أساسية عند المسلم وتعدد الأنبياء لم يكن لتعدد الأديان التى جاءت من عند الله وانما كان تعدد الأنبياء — ببساطة شديدة — يدور وجودا وعدما مع بقاء الدين الحق بين أيدى الناس أو اندثاره من بين أيديهم .

فالظروف المكانية والزمانية — مع اختفاء وسائل الاتصال والحفظ — كان لها فى الماضى أثر فى اختفاء الدين الحق — الاسلام — الذى يأتى به نبى من الأنبياء ، فعندما كان يحدث ذلك يأتى النبى الجديد ليضع الدين الحق بين أيدى الناس مرة أخرى ويبلغهم رسالة الاسلام التى فرطت فيها أجيال سبقت ، أو أرغموا على التفريط فيها ، تحت ضغط الظروف الجغرافية والتاريخية والبشرية ... وهكذا ... حتى توفرت وسائل الاتصال والحفظ فى عصر الرسالة المحمدية وتكفل الله سبحانه بتوفير هذه الوسائل (انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون ..) .

فالاتصال الجغرافى تم بين أرجاء المعمورة كلها .

---

(٢) وهذا أمر الزامى ، وليس اختياريا .

(٣) انظر مجلة المجلة ص ١٣ للعدد ١٤ .

والاتصال بين الأجيال تم بالتواتر والكتابة والطباعة والتسجيل ... الخ ، وأصبح من المستحيل اندثار الدين ، أو نجاح التآمر على اندثاره .

ومن هنا سقطت الدواعى التى تدعو الى رسول جديد ، وختمت الرسالات بمحمد ﷺ .

* * *

واذن فلا مجال للحديث عن تعدد الأديان الحقيقية — أى المنزلة من الله سبحانه — ولا مجال للحديث عن التطور باعتباره سببا من أسباب تعدد الأديان ، أو تعدد الأنبياء ...

وذلك — بالاضافة لما تقدم — لأن نظرية التطور فى هذا المجال من أخطر المقولات التى تموج بها التيارات الفكرية المعاصرة ، وخطرها على العقيدة الاسلامية يأتى من طرفين : طرف البداية وطرف النهاية جميعا ، فمن حيث طرف البداية تقتضى النظرية أن يكون آدم عليه السلام فى درجة منحطة من التفكير والتدين ، بينما هو الذى يتحدى القرآن بعلمه علم الملائكة ، وهى الذى قام بين يدى الله يأخذ العلم منه « وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئونى بأسماء هؤلاء : قالوا سبحانك لا علم لنا الا ما علمتنا .. » .

وهذا مناقض تماما لما تقتضيه نظرية التطور .

وهى — أى نظرية التطور — خطر من طرف النهاية ، لأنها تقتضى انفتاح المستقبل أمام رسالات جديدة ، لأن الباب مفتوح دائما — وفقا لنظرية التطور ، لنضج انسانى جديد ، وتقدم جديد ، يقتضى عقيدة جديدة ... وهكذا ...

وهذا مناقض تماما لما تقتضيه العقيدة الاسلامية .

واذن فنظرية التطور مرفوضة تماما من الناحية الاسلامية كتفسير لتعدد الأنبياء .

ومن جهتنا فان التفسير الاسلامى لتعدد الأنبيـاء المختوم بمحمد ﷺ قائم فى وسـائل الحفظ والاتصـال ، عند اختفائهـا أولا ، ثم وجودها واستقرارها أخيرا .

أما حديثنا عن نظرية التطور فى حد ذاتها فنتعرض له فى كتاب آخر (٤) .

* * *

وتثار فى هذا المقام شبهة تعدد الشرائع التى جاءت من الله .

وبالرغم مما ذهب اليه بعض العلماء من القول بتعدد الشرائع مع القول بوحدة الدين ، فانى لا أجد لذلك سندا من القرآن أو من الواقع .

١ — فالذى جاء فى القرآن الـكريم عن تعدد الشرائع انما كان فى مجال المقـارنة بين شريعة الله وبين شرائع منحرفة وقع فيها البشر وفقا لأهوائهم .

يقول تعـالى :

« وأنزلنا اليك الـكتاب بالحق مصـدقا لمـا بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه ، فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق لـكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا ، ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولـكن ليبلوكم فيما آتاكم .. » سورة المائدة ٤٨ .

٢ — وتأتى كلمة شريعـة فى القرآن مرة أخرى للتحـدث مرة أخرى فى مقام المقـارنة بين شريعـة الله وشريعة الشركاء .. « أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين مالم يأذن بالله .. » .

---

(٤) انظر كتابنا « الاسلام والاتجاهات العلمية المعاصرة » .

٣ — أما المرة الثالثة والأخيرة التى جاء فيها كلمة شريعة فى القرآن الكريم فقد جاءت لتبين أنها شريعة واحدة للأنبياء جميعا .

« شرع لكم من الدين ماوصى به نوحا والذى أوحينا اليك وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه » الشورى ١٣ .

فمن أين اذن جاءت التفرقة بين مصطلح « دين » ومصطلح « شريعة » فى الاسلام ؟ وكيف يسوغ القول بوجود هذه التفرقة فى القرآن الكريم ؟ وكيف يجوز القول بعد ذلك بتعدد الشرائع السماوية ؟

٤ — وأين هو اختلاف الشرائع السماوية ولو أردنا بها اصطلاحا « الأمور العملية » ؟ أين ذلك بالرجوع الى القرآن الكريم ؟

أليس يقول الله تعالى لبنى اسرائيل « وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واركعوا مع الراكعين » البقرة ٤٣ .

وأليس الأمر بالصلاة والزكاة والوفاء فى الكيل والميزان ، وتحريم القتل والزنا ... الخ .

مما جاءت الاشارة اليه فى القرآن الكريم بالنسبة للأمم السابقة والأنبياء السابقين ؟

وأليس الأمر فى الاختلاف فى التكاليف بين أمة وأخرى أشبه بالاختلاف فى التكاليف داخل الأمة الواحدة وفى أحضان نبى واحد ، فهو أشبه بالنسخ فى الشريعة الواحدة ، فهل نقبل أن نسمى النسخ انتقالا من شريعة الى شريعة ؟؟.

٥ — وأخيرا فاذا كنا نقطع — اسلاميا — بوحدة الدين الالهى وهو « الاسلام » ، فاننا نرفض أيضا القول بتعدد الشريعة الالهية ، ونراه منبعثا من مصدر لا صلة له بالاسلام .

موقف الاسلام من الـكتب المنزلة :

فى ضوء هذه الحقائق يمكن النظر فى علاقة الاســلام بالأديان الأخرى من ناحية الاعتقاد •

والنتيجة التى نصل اليها ببساطة على هذا الضوء :

ان الاسلام يرفض كل ما ليس باسلام •

لـكن الأمر يحتاج الى شىء من البحث بالنسبة الى الأديان التى تدعى الانتساب الى رسول من الرسل يعترف به الاسلام • وترفض فى نفس الوقت الايمان بمحمد ﷺ •

وهذه الأديان التى تدعى ذلك تنحصر باعتبار الواقع الذى نعايشه فى : اليهودية ، التى تدعى الانتساب الى موسى ، والمسيحية التى تدعى الانتساب الى عيسى عليهما السلام •

والاسلام فى هذا الصدد يحسم الموقف بطريقة عملية اذ يدعو هؤلاء — لو كانوا صـادقين فى انتسابهم الى رسل الله — الى توسيع دائرة ايمانهم ليشمل الايمان بمحمد ﷺ ، اذ أن ما يدعو اليه انما هو متابعة للرسل من قبله كما تقرر فى الآيات التى سبقت •

وفى هذا يقول القرآن الـكريم عن هؤلاء :

« قل يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد الا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضـا أربابا من دون الله فان تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون » آل عمران ٦٤ •

ويقول تعالى فى نص يضم هؤلاء جميعا الى حظيرة الايمان بشرط ايمانهم بمحمد ﷺ •

« ان الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن

بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون » البقرة ٦٢ .

ولا يتركنا القرآن الكريم حيارى أمام هذا النص دون أن يحدد لنا مفهوم الايمان الوارد فى هذه الآية ، وهل يشمل الايمان بمحمد أو لا يشمله كشرط أساسى وانما يحدد لنا ذلك فى قوله تعالى فى صيغة القسم والتأكيد :

« فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم . ثم لايجدوا فى أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما » النساء ٦٥ .

وهذا يعنى أن هذه الطوائف جميعا — على افتراض صحة انتسابهم للرسول الذى ينسبون اليه — ممتحنة بالايمان بمحمد فى رضا كامل وتسليم تام .

والنتيجة اذن : —

ان الاسلام اذ لا يقبل غير الاسلام — ان صح هذا التعبير — هو فى نفس اللحظة لا يقبل غير الايمان بمحمد رسول الله ﷺ .

واذا كان هذا موقف الاسلام من اليهودية والمسيحية ...

فانه يبقى أن نبين موقفه من الكتابين : اللذين هما التوراة والانجيل .

وهنا نذكر الحقائق التالية :

أولا : من المسلم به أن الاسلام يعترف بالتوراة والانجيل اللذين أنزلا على موسى وعيسى عليهما السلام . بل انه لا يكون المسلم مسلما الا بالايمان بهما .

لكن المسألة هى : أين هما ؟

هذه هى القضية :

وهنـــا نجد أن التوراة والانجيل اللذين يحتم الاســـلام الايمان بهمـــا ليسا همـــا الــكتابين اللذين يتداولهمـــا اليهود والمسيحيون فى العصر الحاضر ، ومنذ قرون طويلة •

ان القرآن الــكريم يتحــدث عن عيسى عليه الســلام ويقول : « ويعلمه الــكتاب والحكمة والتوراة والانجيل » آل عمران ٤٨ •

فهذا انجيل يتعلمه عيسى تعليما ، ولم يكن مجرد بشارة — كمـــا يعتقد المسيحيون المعاصرون — بل علم يتعلم ، وهو — أى عيسى عليه السلام — اذا كان يتعلم الانجيل ، ويعلمه الله اياه ، لم يكن —بالبداهة— يتعلم انجيل متى أو لوقا أو مرقس أو يوحنا أو غيرهم •

واذ يقول القرآن الــكريم « وليحكم أهل الانجيل بما أنزل الله فيـــه » المائدة ٤٧ • يذكر ذلك فى آية مباشرة للآية التى تقرر ايتاء الله الانجيل لعيسى :

« وقفينـــا على آثارهم بعيسى ابن مريم مصدقا لمـــا بين يديه من التوراة وآتيناه الانجيل •• » المائدة ٤٦ •

واذن فالمطلوب هو انجيل عيسى •

واذ يقرر القرآن الــكريم أنه مصدق لمـــا بين يديه من الــكتاب فى قوله تعالى :

« وأنزلنا اليك الــكتاب بالحق مصدقا لمـــا بين يديه من الــكتاب ومهيمنا عليه •• » المائدة ٤٨ •

يذكر ذلك أثر الآيتين السابقتين اللتين تتحدثان عن انجيل آتاه الله لعيسى عليه السلام ، لا لغيره •

وتشعر الآية نفسها بأن الموقف قـــد تغـــير فى عهـــد محمد ﷺ

فتعطيه المعيـــار الذى يميز به بين ماهو من الانجيل حقــا ، وما ليس منه مما هو موجود بين أيدى النـــاس ، نجد ذلك فى التعبير بقوله فى هذه الآية ، « وأنزلنــا اليك الــكتاب بالحق •• » •

ثم فى قوله : « •• ومهيمنا عليه • » ثم فى قوله : « •• ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق •• » •

فسياق هــذه الآيات يدل على ايتــاء الله الانجيل لعيسى عليــه السلام •

وان الاحتكام يكون الى هذا الانجيل لا الى غيره من كتب تتسمى باسمه • وأن المقيــاس الذى نعرف به الصحيح منه هو الاحتكام الى ما أنزل بالحق أى الى القرآن وبجعله مهيمنا عليه ، وبالحذر من أهواء المبطلين •

ثانيا : أما ما يسمى بالأناجيل — المتداولة حاليــا — فان القرآن لا يقرها جملة ، ولا يرفضها جملة ، ولــكنه يقف منها موقف الحكم ، يقر منها ما كان من انجيل عيسى ، ويرفض منها مالم يكن منه •

وللقرآن طريقتــه — ان صح هذا التعبير — فى معرفــة ما كان موافقــا وما كان مخالفا • انه لا يحتــاج الى أســاليبنا البشرية فى التحقيق والتنقيب •

ذلك أنه يصــدر عن نفس المصــدر الذى صــدر عنه الانجيــل الصحيح ، اذن فهو يعرفه كما يعرف نفسه ، ومن هنــا نجده حاسما فى تبرئة يوسف وقد اتهمه أهل الــكتاب •

حاسما فى تبرئة مريم وقــد اتهموها أو تشككوا فيها •

حاسما فى نفى الصلب عن عيسى وقد وهموا أنه صلب •

حاسما فى نفى ألوهية عيسى وقد ألصقوا به هذه الفرية •

انه هنـــا يرجع الى الأصل • بل هو ينبع من هذا الأصل ، الذى صدرت عنه التوراة والانجيل والقرآن جميعا • فلا حاجة الى الصحف بأيدى البشر ، صحيحة أو مغلوطة ، يقول تعـــالى : « أفغير الله ابتغى حكما وهو الذى أنزل اليكم الكتاب مفصلا ، والذين آتيناهم الـكتاب يعلمون أنه منزل من ربك بالحق فلا تـكونن من الممترين » ثم يقول : « وان تطع أكثر من فى الأرض يضلوك عن سبيل الله ، ان يتبعون الا الظن وان هم لا يخرصون » الأنعام ١١٤ ، ١١٦ •

وبهذا المنهج الأصيل يظهر القرآن مايخفيه أهل الـكتاب وخاصة الحقائق التى لا يمكن اغفالها أو التسامح فيها فى تكوين عقيدة دينية•

وهذا معنى قوله تعـــالى : « يا أهل الـكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لـكم كثيرا مما كنتم تخفون من الـكتاب ويعفو عن كثير ، قــد جاءكم من الله نور وكتاب مبين •

يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات الى النور باذنه ويهديهم الى صراط مستقيم • لقــد كفر الذين قالوا ان الله هو المسيح ابن مريم » المائدة ١٥ ، ١٦ ، ١٧ •

وبهذا نفهم كيف يقوم القرآن بدوره فى التصديق لمــا بين يديه من الـكتاب انه تصديق الصدق فيه ، وليس التصــديق المطلق ، انه التصــديق الذى يقوم به حكم مهيمن يعرف الحقيقـــة أولا وأخيرا ، يعرفها من مصــدرها المنزه عن الخطأ والنسيان والانتفـــاع ، وليس التصديق الذى يقوم به تابع مستسلم عاجز عن الاتصـــال بالحقيقـــة فى منبعها الأصيل •

وهذا معنى قوله تعـــالى : « وأنزلنا اليك الـكتاب بالحق مصدقا لمــا بين يديه من الـكتاب ومهيمنا عليه ، فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم عما جاءك بالحق » المائدة ٤٨ •

نعم ، القرآن مصدق ، ولكنه تصديق القاضى الناقد الحكم ، تصديق المهيمن • والمهيمن لا يكون تابعا لصحف وضعها البشر « فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمنا قليلا ، فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون » البقرة ٧٩ •

٤ — على أنه اذا كان القرآن قادرا على كشف ما ستره أهل الكتاب من الكتاب واعلان ماكتموه منه بمنهجه الربانى ، أفلا يكون للبشر معالم يهتدون بها فى تحقيق ما يعن لهم أن يحققوه مما يجدوه فى الصحف التى يختلط عليهم الأمر فيها ؟

هناك أمور أساسية تكفل القرآن ببيانها بيانا شافيا ، كابطال ألوهية عيسى ودعوى صلبه •

(أ) لكن البداهة كانت كافية فى الكشف عن بعضها لولا ما ران عليها من التقليد •

يقول تعالى : « وان منهم لفريقا يلوون ألسنتهم بالكتاب لتحسبوه من الكتاب وما هو من الكتاب ، ويقولون هو من عند الله وما هو من عند الله ، ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون • ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة ، ثم يقول للناس كونوا عبادا لى من دون الله ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون » سورة آل عمران ٧٨ ، ٧٩ •

ان البديهة الصافية لتسارع الى نفى أن يدعى الألوهية بشر أوتى الحكم والكتاب والنبوة ، وما أروع تعبير القرآن فى هذا المقام بكلمة بشر عن سيدنا عيسى عليه السلام ، ذلك أنه اذا كان مفهوم « انسان » يسمح بشىء من التفلسف أو التحذلق ، فان كلمة « بشر » ليست كذلك •

وقد كان عيسى بشرا تنطبق عليه الكلمة بمدلولها البسيط ، يلمس ، ويلبس ويأكل ويشرب ، ويمشى فى الأسواق •

هذا هو دور البداهة فى التحقق والتحقيق •

فاذا غمض الأمر عليها فالقرآن يدل على سبل أخرى :

(ب) على أهل الـكتاب الذين يعرفون الحق كما يعرفون أبناءهم أن يكسروا الحواجز التى تقف بينهم وبينه فاذا هم فيه ومعه « الذين آتيناهم الـكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم وان فريقا منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون » •

(ج) عليهم أن يتلوا الـكتاب حق تلاوته لا يلوون به ألسنتهم ، ولا يحرفونه عن مواضعه : انهم ان يفعـلوا اذا هم يؤمنون « الذين آتيناهم الـكتاب يتلونه حق تلاوته ، أولئك يؤمنون به » •

(د) عليهم أن يفارقوا شقاق بينهم وأن يسلموا وجههم لله كما أسلم الرسول وجهه •

فان فعلوا فقد اهتدوا « ان الدين عند الله الاسلام ، وما اختلف الذين أوتوا الـكتاب الا من بعد ما جاءهم العلم بغيـا بينهم • ومن يكفر بآيات الله فان الله سريع الحساب ، فان حاجوك فقل أسلمت وجهى لله ، ومن اتبعن ، وقل للذين أوتوا الـكتاب والأميين أأسلمتم • فان أسلموا فقد اهتدوا » آل عمران ١٩ — ٢٠ •

(هـ) عليهم ألا يأخذهم الغرور بما لديهم من نصيب من الكتاب ، وأن يقبلوا تحكيم كتاب الله (القرآن) « ألم تر الى الذين أوتوا نصيبا من الـكتاب يدعون الى كتاب الله ليحكم بينهم ، ثم يتولى فريق منهم وهم معرضون » آل عمران ٢٢ •

(و) عليهم أن يكفوا عن الغلو والشطط :

« يا أهل الـكتاب لا تغلوا فى دينكم » النساء ١٧١ •

(ز) عليهم ألا يتبعوا أهواء قوم قد ضلوا وأضلوا « قل ياأهل الكتاب لا تغلوا فى دينكم غير الحق ، ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيرا وضلوا عن سواء السبيل » المائدة ٧٧ .

— هذه معالم يسوقها القرآن لمن أراد الهداية .

٤ — ومن ذلك يتبين أن اظهار الحق فى مسألة الأناجيل لم يكن يحوج القرآن الى انجيل يكون فى عصر محمد ﷺ يرجع اليه فيه .

هذا من ناحية المبدأ ..

ومن الناحية التاريخية فليس هناك ما يقطع بأنه لم يكن فى عصر محمد ﷺ سوى الأناجيل التى كتبها متى ومرقس ولوقا ويوحنا .

ان الشواهد — على العكس من ذلك — ترجح أنه كان فى ذلك العصر أناجيل أخرى .

ذلك أنه اذا كان من المعروف تاريخيا أنه كانت فى العهد الأول للمسيحية أناجيل متداولة لا يكاد يحصيها العد ، مثل : انجيل بطرس ، وانجيل المصريين وانجيل بازليدس ، وانجيل توما ، وانجيل فيلبس ، وانجيل دياطسرون ، وانجيل متى (انجيل آخر غير الموجود حاليا) ، وانجيل يعقوب الحوارى ، وانجيل برنابا الحوارى ، وانجيل نيكوديم، وانجيل السبعين ، وانجيل الاثنى عشر وانجيل التذكرة ، وانجيل العبريين ، أو الناصريين ، ثم انجيل أتباع ديصان ، وانجيل أتباع مانى، وانجيل أتباع مرقيون ، وانجيل أتباع أبيون (أنظر كتاب الأسفار المقدسة فى الأديان السابقة على الاسلام ص ٨٠ وما بعدها للدكتور على عبد الواحد وافى) ...

وقد كان بعض هذه الأناجيل أكثر شيوعا وشهرة من الأناجيل التى إختارتها الكنائس من بعد ذلك بقرون ...

اذا كان ذلك كذلك ، فان العقل لا يستسيغ أن تكون هذه الأناجيل جميعا قد اندثرت ما بين الفترة التى حرمت فيها ، وبين بعثة الرسول ، وهى فترة قصيرة نسبيا .

ومن الأدلة على ذلك ظهور انجيل برنابا أخيرا ، وقد كان من الأناجيل التى صدر قرار تحريمها من البابا جلاسيوس الأول الذى جلس على عرش البابوية عام ٤٩٠ م مما يدل على وجوده حوالى عصر البعثة المحمدية .

وفى بيئة كبيئة الجزيرة العربية يتوافر لها التحرر آنذاك من نفوذ السلطات البابوية والامبراطورية ويضعف فيها سلطان المسيحية، وتفرخ فيها اليهودية ألد أعداء المسيحية .. فى بيئة كتلك من المستساغ أن تكون قد هربت اليها الأناجيل المطاردة أو المحرمة أو غير المرضى عنها من سلطات المسيحية .

والقرآن الكريم قد يكون مشيرا الى مثل هذا الانجيل فى قوله تعالى : « الذين يتبعون الرسول النبى الأمى الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والانجيل .. » .

ومهما يكن من أمر تحقيق وجود هذه الأناجيل أو عدم وجودها ، وصحة بعضها أو عدم صحته ...

فاننا نؤكد أن موقف القرآن من الانجيل لا يحتاج فى تطبيقه الى التنقيب فيما بأيدى الناس من صحف تسمى الأناجيل .

فى هذا الاطار وحده من فهم موقف القرآن من الانجيل يمكننا أن نفهم ما جاء فى القرآن من مخالفة لما عليه المسيحيون فى كثير من معتقداتهم ونفهم طلب الرسول ﷺ المباهلة من نصارى نجران .

ونفهم قوله تعالى : « قل يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء

بيننـــا وبينكم ألا نعبد الا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فان تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون » •

ونفهم بصـــفة عامة : مواقفـــه الحاسمة ، ومؤاخذته العـــديدة لأهل الـــكتاب •

وبهذا يتبين أن تصديق القرآن للانجيل انما هو بالنسبة لانجيل عيسى الذى لا يعرف له الآن أثر •

أما بالنسبة لمـــا قد يكون فى ثنـــايا ما سمى بالانجيل وهو ليس كذلك فان موقف القرآن منه هو ارجاعه الى الوحى المنزل على محمد ﷺ وقياسه عليه وانكار ما يكون مخالفا له •

* * *

وحـــدة الدين :

وبنـــاء على ذلك :

يتقرر ، أن الاســـلام ، هو :

١ — الدين عند الله أزلا ، وأبدا •

٢ — دين الرسل والأنبيـــاء جميعا منذ فجر الانسانية •

٣ — دين الانس والجن •

٤ — دين الفطرة الانسانية التى لا تقبل التبديل •

ومن هنـــا لم تأت رسالة محمد ﷺ ، بانشاء دين جديد ، ولكنها انضمام الى المسلمين على وجه الـــكون والتاريخ •

« آمن الرســـول بما أنزل اليـــه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله ، لانفرق بين أحد من رسله •• » البقرة ٢٨٥ •

الايمان بالرسل السابقين :

فعلينا أن نؤمن اجمالا بأن الله بعث رسلا أنبياء كثيرين للهداية والارشاد يدعون جميعا الى الاسلام •

وعلينا أن نؤمن تفصيلا بمن ثبت تعيينه منهم ، والذى ثبت تعيينه خمسة وعشرون رسولا على الصحيح ، هم : سيدنا محمد وابراهيم وموسى وعيسى ، ونوح وآدم وادريس ، وهود وشعيب ، وصالح ، وذو الكفل ، واسحاق ، ويعقوب ، وداود ، وسليمان ، وأيوب ، ويوسف ، وهارون ، وزكريا ، ويحيى ، والياس ، واسماعيل ، واليسع ، ويونس ، ولوط عليه السلام •

ولا يجوز حصر الرسل والأنبياء لأنه لا يعلم عددهم الا من شرع ، ولم يرد فى بيان عددهم دليل قاطع من كتاب أو سنة يقول تعالى لنبيه « ولقد أرسلنا رسلا من قبلك منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك » •

أما الكتب فيجب الايمان تفصيلا بما ثبت تعيينه منها وهى الزبور ، الذى أنزل على داود ، والتوراة على موسى ، والانجيل على عيسى ، وصحف ابراهيم ، والقرآن على محمد عليهم جميعا أفضل الصلاة والسلام •

— عموم رسالة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم : —

وعلينا أن نؤمن بأن رسالة محمد ﷺ عامة للانس والبشر جميعا والجن أيضا :

يقول تعالى : « وما أرسلناك الا كافة للناس بشيرا ونذيرا » •

ويقول تعالى : « واذ صرفنا اليك نفرا من الجن يستمعون القرآن فلما حضروه قالوا انصتوا فلما قضى ولوا الى قولهم منذرين،

قالوا يا قومنا انا سمعنا كتابا أنزل من بعد موسى مصدقا لما بين يديه يهدى الى الحق والى طريق مستقيم ، يا قومنا أجيبوا داعى الله وآمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم ويجركم من عذاب اليم » •

سيدنا محمد خاتم الرسل والنبيين :

كما يجب الايمان بأن محمدا ﷺ هو خاتم النبيين ، وأن رسالته خاتمة الرسالات :

يقول تعالى : « ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين » :

ويقول ﷺ (أنا العاقب فلا نبى بعدى) •

وقال ﷺ (مثلى ومثل الأنبياء كمثل قصر أحسن بناؤه وترك منه موضع لبنه ، فطاف به النظار يتعجبون من حسن بنائه الا موضع تلك اللبنة لا يعيبون سواها ، فكنت أنا سددت موضع تلك اللبنة ختم بى الرسل) • أخرجاه فى الصحيحين •

وهذا التشبيه الذى جاء فى هذا الحديث ، لايتفق مع نظرة التطور التى ترى أن الجديد أفضل من القديم ، أما هنا فتبلغ فضيلة التواضع أقصاها عند الرسول ﷺ فهو « لبنة » يتم بها القصر ، وأفضلية محمد ﷺ تتقرر بطريق آخر ، ليس هو طريق التطور ، والتمام المشار اليه فى الحديث السالف انما هو للبناء التاريخى ، تاريخ الأنبياء ، فهذا التاريخ مجرد متواليات تنتهى بظهور محمد ﷺ ، وهذه النظرة تختلف تماما عن البناء التطورى •• لأن التطور

لا يعرف النهـــاية ، وانما هو مفتوح دائما ...!! وذلك مالا يتفق مع كون محمد ﷺ هو « النهاية » أو « الختام » !!.

فى صحيح مسلم عن ثوبان : قال : قال رسول الله ﷺ « .. وانه ســيكون فى أمتى ثلاثون كذابون ، كلهم يزعم أنه نبى ، وأنا خاتم النبيين لا نبى بعدى .. » .

ولمسلم أيضا أن رسول الله ﷺ قال : (فضلت على الأنبياء بست: أعطيت جوامع الــكلم ، وأرسلت الى الخلق كافة ، وختم بى النبيون)

ملحقــات

(أ) أزمة التعليم فى الأزهر .

(ب) أزمة الفكر الاســلامى الراهن .

الحقنــا هذين الموضوعين بالــكتاب لاقتناعنا بأن مواجهة الالحاد المعاصر مواجهة شاملة فعالة لن يتم الا بمعالجة هاتين الأزمتين .

أزمة التعليم فى الأزهـــر

فى رأيى أن قانون تطوير الأزهر لعام ١٩٦١ لم يسىء الى الأزهر من حيث ما جاء فيه بقدر ما أساء اليه من حيث الذى لم يجىء به ، فهو بهذا الاعتبار كان تأخيرا لحركة اصـــلاحية موضـــوعية كان ينبغى أن تفرض وجودهاعلى حركة الأزهر منذ ذاك الوقت •

والـــكلام عن تطوير الأزهر ينبغى أن يبـــدأ بتحـــديد أهـــداف الأزهر ، ثم القاء نظرة على الأوضـــاع فيه قبل صدور قانون ١٩٦١ ، ثم بعد صـــدور هذا القانون ليتبين : هل كان هذا القانون وفيا بمـــا تقتضيه هذه الأهداف ، أو ببعضها وهل الأزهر الآن بحاجة الى نظرة جديدة من أجل تطوير جديد •

أهـــداف الأزهـــر :

الأمر الذى لا خلاف عليه ان أهـــداف الأزهر الثابتة منذ انشائه والى ماشاء الله تدور حول أمور أربعة :

١ ــ المحافظة على أصالة الشريعـــة الاسلامية ، واللغة العربيـــة كأداة لهذه الشريعـــة ، (وأنا استعمل كلمة الشريعة هنـــا بالمعنى العام الذى يشمل الأصول والفروع) •

٢ ــ المحافظة على التراث الفكرى الاسلامى الأصيل •

٣ ــ تنمية الفكر الاســـلامى بحيث يصبح مشتملا على الحلول العملية لمشاكل المجتمعات الاسلامية الحديثة •

٤ ــ نشر الدعوة الاسلامية • وتنمية الوعى بها على نطاق العالم الاســـلامى •

مدى قيـــام الأزهر بأهدافه :

وفى اعتقادى أن الأزهر كان فى معظم مراحل تاريخـــه وفيـــا بالهدف الأول ، ولقـــد قام بمهمته تلك وسط أجواء معادية للغة العربية أو للشريعة ، ولقـــد جعلته هذه الأجواء التآمرية الخطيرة منشغلا تمام الانشغال بهـــدفه الأول ، فـــكان ذلك على حساب أهـــدافه الأخـــرى الى حد كبير •

ثم أصبح الأزهر منذ بداية القرن العشرين مهددا فى كفايته للقيام بالهـــدف الأول ، وذلك أنه أصبح مهددا فى موارده الطلابية لأسباب عديدة ، أهمها قيـــادة الاستعمار البريطانى لحركة التوسع فى التعليم — فى بداية الأمر — والاتجاه بهـــا خارج دائرة الأزهر الذى يرفض التعاون معه ، وتفـــاقم هـــذا الوضع فى السنوات القليلة التى سبقت قانون ١٩٦١ بمجانيـــة التعليم المـــدنى بعد أن كان خاصة من خواص الأزهر ، وبالغاء الاعفاء من التجنيد للذين يحفظون القرآن الـــكريم ومن هنـــا اختفت الـــكتاتيب وتقلص عدد الطـــلاب الـــذين يلتحقون بالأزهر وانخفض مستواهم كما وكيفا •

هكذا كان حال الأزهر قبل صـــدور قانون ١٩٦١ : مهـــددا فى قيـــامه بأهم أهدافه ، مفتقدا للوسائل التى تمكنه من صـــيانة التراث الاســـلامى كله ، وتنقيـــة وتنمية العنـــاصر الطيبة فيـــه ، والوصول بهـــا الى مستوى الاجتهـــاد الحديث ، والى نقطة التفاعل مع الفكر المعاصر والمشاكل العملية •

كما كان بحاجة الى اكتشاف النظم والوسائل التى تمكنه من القيام بعبء الدعوة الاســـلامية على نطاق العـــالم ، على اختلاف مستوياته ولغـــاته ومذاهبـــه ، وأوضـــاع الحيـــاة فيه ، بأســـاليب تخرج عن دائرة الوعظ الخطابى كأسلوب وحيد درج عليه الأزهر فى الدعوة ، الى

دائرة الاعلام الحـديث بما فيـه من تقدم باهر على جميع المستويات والوسائل • وكان لابد من تطوير •

والسؤال الآن عن قانون تطوير الأزهر :

هل كان كفيلا بتمكينه من تحقيقه أهدافه التى تبين لنـا أنه مهدد فى أهمها ، عاجز عن أكثرها ؟

فى اعتقادى ان هذا القانون لم يكن يهتم بالاحتياجات الأساسية للأزهر فى القيـام بأهدافه تلك ، بقدر ما اهتم بمعالجـة مشكلة من مشاكله العرضية •

المشكلة التى عالجها هى مشكلة الانعزال الاجتماعى للأزهر ، وهى فى رأينـا مظهر من مظاهر قصور الأزهر عن الوفاء ببعض أهدافه ، وقد كان الواجب الاتجـاه الى معالجة هـذا القصور نفسه فتحسم بذلك مشكلة الانعزال فى أحد شقيها ، وهى الشق الراجع الى أوضاع الأزهر ذاته ، أما الشق الآخر الذى اصطنعه الاستعمار وأذياله عمدا، فقد كان علاجه فى يد الدولة ، وقـد كان هذا هو المنهج الذى يضمن خروج الأزهر من عزلته محققا لأهـدافه ، لا أن يكون هـذا الخروج بتهديد أصالته ، وتفاقم عجزه •

أقول ان هذا القانون اعتبر ان هذه العزلة هى المشكلة ، والسؤال الذى يستحق البحث (فى مناسبة أخرى) هو : هل كانت هذه العزلة فى نظر الذين وضعوا القانون مشكلة من مشاكل الأزهر ، أم مشـكلة من مشاكل النظام الاجتماعى ؟

المهم هنـا هو أن نقرر أن هـذا الاتجاه هو الذى جاء بالقانون، ومن ثم انطلق القانون الى فك هـذه العزلة على جميع المستويات : على مستوى التعليم الابتدائى والثانوى بادخال العلوم الحديثة كمـا هى فى وزارة التربيـة ، وعلى مستوى التعليم الجـامعى بتغليب عـدد

الـكليات العملية ، وعلى مستوى هيئـة كبار العلماء بجعلها مجمعـا للبحوث يمثل الفقهـاء فيـه نسبة ضـئيلة ، وعلى مستوى الادارة بالقضـاء على البقيـة الباقيـة من استقلال الأزهر • وبهذا ابتعـد القانون عن احتيـاجات الأزهر الأساسية ، ليعالج مشكلة من مشاكله الفرعية أوشك بهـا أن يضيف الى مشاكل الأزهر مشكلة خطيرة هى مشكلة « الأصـالة » •

ايجابيـة القـانون :

ومهما يكن من أمر فان علينا أن نعترف بأن عناية الله وحدها هى التى جعلت من هـذا القانون « أداة » فى « المحافظة » على الأزهر ، حتى وقتنا الحاضر •

وقد يبدو هذا الـكلام غريبا ولـكنه يصبح واضحا اذا لاحظنا أن الأزهر كان بحاجة الى تطوير منذ بدايات هـذا القرن ، تطوير يهتم بمشاكله الوظيفيـة التاريخية ، وانه لو استمر الأمر على ماكان عليـه لـكان أمر الأزهر قـد انتهى الى معهد أو اثنين ، وجامع أو اثنين ، على طول البـلاد وعرضها ، ولـكانت مصر الآن تستورد مدرس الدين أو الوعاظ من بلاد اسـلامية أخـرى ان وجدت • وذلك لأن العوامل الموضوعية التى كانت تنخر فى جسم الأزهر وتصـد عنه الطلاب لم تكن لتجد أدنى مقـاومة بينما جاء القـانون ليمثل هذه المقاومة أثناء معالجته لمشكلة الانعزال • واذن فقضاء القـانون على انعزال الأزهر خطوة جـديرة بالتقدير ، ومن الضرورى الاحتفاظ بهـا ، وأن يبـدأ التطوير الجديد منها •

وانى لاعتقد أن الابقـاء على الـكليات الحديثـة فى الأزهـر أصبح بحكم الوضع الاجتماعى — ضمان بقـاء الـكليات التقليـدية واستمرارها — بغير مبالغة •

وقبل الحديث عما يلزم من تطوير جديد للأزهر نتعرض لقضية هامة تبدو وكأنها من سلبيات قانون ١٩٦١ ٠

قضية انخفاض المستوى التعليمى فى الأزهر :

أما ان المستوى التعليمى فى الأزهر قد انخفض الى حد يثير الانزعاج فأمر لا يمكن اغفاله أو نكرانه ٠ لكن التركيز على قانون ١٩٦١ باعتباره سببا لذلك يمثل نصف الحقيقة ، اذا لاحظنا أن هذه المشكلة سابقة على القانون مصاحبة له وأنه لم يتصد لمعالجتها بقدر ماتصدى للقضاء على مشكلة الانعزال ٠

ان انخفاض مستوى التعليم يسير بنسبة مطردة منذ بدايات هذا القرن فخريجو العشرينيات كانوا أفضل من خريجى الثلاثينيات ، وهؤلاء كانوا أفضل بكثير من خريجى الأربعينيات ، وهؤلاء كانوا أفضل من خريجى الخمسينيات ، وهؤلاء كانوا أفضل من خريجى الستينيات وهكذا ٠٠٠ ولا تزال النسبة تطرد دون أن يبدو لهذا الاطراد نهاية ٠

ولهذا الانخفاض أسبابه التى يمكن تلخيصها فى أمرين :

(أ) اختفاء المورد الأساسى للأزهر فى تحفيظ القرآن وهو الكتاتيب ٠

(ب) اضطرار الأزهر الى الدخول فى دوامة الكم ٠

وقبل أن نتحدث عن هذين العنصرين ينبغى أن نقف وقفة انصاف أمام قضية انخفاض المستوى التعليمى ٠

فمن جهة يجب أن نقرر أنه لم تفلت أية مؤسسة تعليمية من الانخفاض المطرد فى مستواها التعليمى ولا داعى لتحديد هذه المؤسسات ٠

ومن جهة أخرى يجب أن نقرر أن خريج الأزهر الحديث يتمتع بتفوق نوعى على خريج الأزهر القديم •

نعم نحن على يقين من أن عالم « أصول الدين » الحديث لايعرف من كتاب « المواقف » فى العقيدة الأشعرية عشر ماكان يعرفه علماء بداية هذا القرن ، لكنا على يقين أيضا من أن هذا العالم الحديث يعرف من خارج هذا الكتاب ما لم يكن يعرف هؤلاء الاجلاء فى بدايات القرن ، انه يعرف شيئا عن كتاب « المغنى » فى العقيدة المعتزلية ، ويعرف شيئا عن كتاب « الجواب الصحيح » لابن تيمية ، ويعرف شيئا عن كتاب « نقد العقل الخالص » لكانط ، وهو يكتب الرسائل عن فرقة « الاسماعيلية » كما يكتب الرسائل فى نقد « الأشعرية » •

(أزهر زمان) :

وفى ظل الحديث عن انخفاض المستوى التعليمى للأزهر نسمع نداءات صارخة بالعودة الى « أزهر زمان » للمحافظة على أصالته •

ونحن نرى أن أصالة الأزهر لا يمكن الاحتفاظ بها بالجمود على الماضى ، لقد كان ذلك الجمود خير سبيل لضياع الأزهر ، ومن ثم لضياع الأصالة ذاتها ، أو للتطويح بها فى مقبرة التراث •

انه من الخطر أن ننظر الى الأزهر — ومن ثم الى الاسلام — باعتباره « تراثا »

ان هذه النظرة قد تأتى من أولئك الذين يعتبرونه مرحلة من المراحل ينبغى هجرها ، كما أنها قد تأتى من الذين يعتبرونه مرحلة من المراحل ينبغى القعود عندها : وفى كلتا النظرتين دمار للأزهر •

أزهر الحاضر والمستقبل :

اذا كنا نريد أزهر المستقبل فلابد من أن ننتقل اليه مرورا بأزهر الحاضر •

ان أزهر الحاضر على كل مابه من عيوب تستحق النقد هو الأقدر على الانتقـــال الى أزهر الغد الذى نريده ، والا فكيف كان من الممكن أن ننظر فى حل مشاكل الحيـــاة الاسلامية بأزهر « زمان » الذى كان يجمع على أن فقـــه المـــذاهب الأربعـــة هو المورد الوحيـــد للتشريع الاسلامى ، بل يكاد يقرر حرمة التلفيق بينها ؟

ماذا عند أزهر « زمان » من تصـــور عن مشـــكلة « التضخم » وحكمها ، ومشكلة « التأمين » ومشـــكلة الحلول العمليـــة للخروج من ورطة الربا ، ومشكلة الحلول العملية لمواجهة التهرب من دفع الزكاة ؟

أعرف أن الشيخ محمد أبو زهرة رحمه الله أراد أن يجعل الزكاة على انتـــاج المنشآت الصناعية الحديثة كالزكاة على انتـــاج المزارع — وفى ذلك ضربة للتهرب — فقوبل بانكار شديد لا لشىء الا لأن شيئا من هذا لا يوجد فى المذاهب الفقهية المعروفة •

كيف كان من الممكن أن نواجه مشاكل الفكر المعاصر من خلال أزهر « زمان » يجمع على أنك ان لم تكن « أشعريا » فأنت زائغ العقيدة ؟

كيف كان من الممكن أن نواجه مشاكل الدعوة والاتصال بالعـــالم المعـــاصر من خلال أزهر « زمان » يجمع على الاستهانة بتعلم اللغات الأخرى ، والابتعاد عن « الجامعات الأخرى » و « العلوم الأخرى »؟

العودة الى الـكتاتيب ؟

وفى ظل الدعوة الى المستوى الرفيع نسمع نداءات بالعودة مرة أخرى الى الـــكتاتيب بنظامها القديم والاقتصار عليها •

أليس ينتهى هؤلاء عمليا الى غلق أبواب الأزهر • اذ كيف يمكن ارجاع هذه الـكتاتيب — حتى لو توفرت لارجاعها الامكانات المـادية جدلا — فى ظل المـدرسة التربوية الحديثـة ؟ أيهما يلتهم الآخر فـلا يبقى منه ولا يذر ؟

أين هو ولى الأمر الذى يمكن أن يأخذ بيد وليده الى ساحة الكتاب تاركا المدرسة التربوية الحديثة بفلسفتها الحديثة فى التربية ؟

يقولون : ادفعوا لهم مكافآت •

وأقول : أية مكافآت تلك التى تجعل ولى الأمر يتجاهل سـهولة التدريس بالمدرسة بجانب عبء تحفيظ القرآن بالـكتاب ، ثم يتجاهل المستقبل المفتوح أمام ابنه من خلال المدرسة فى نظير مكافآت لم تعـد لها قيمـة ؟!

يقولون : هنـاك أوليـاء الأمور الذين يقدمون أولادهم بدافع التـدين !•

وأقول : وهل عملنا حسابا لشعور « الولد » نفسه وهو يقارن بين ماوضعه فيـه أبوه من ضيق وصعوبة ، وبين زميله الذى وضعه أبوه فى مدرسة السهولة والانفتاح ، ماذا يمكن أن يؤدى اليه شعور السخط هـذا لدى تلميذ الـكتاب أو طالب الأزهر بالنسبة لاستمراره فى أداء مهمته بالأزهر ؟

ثم أقول أيضا : وهل نتجاهل أن تدين أولياء الأمور المحدثين لم يعد يمثل لديهم دافعا نحو الأزهر ، لمـا لحقت صـورة الأزهر أمام أعينهم من تبدل ، ولمـا يرونه من تدين علماء من غير الأزهر أخـذوا يفسرون القرآن ويصدرون الأحكام الشرعية أمام أعينهم كل يوم فى وسائل الاعلام ؟ ولمـا يرونه من جمعيات دينية نشطة تـكونت من غير أبنـاء الأزهر ؟

قضية الـكم والـكيف :

وفى سياق الحـديث عن انخفاض المستوى التعليمى تثار قضية الـكم والـكيف •

والغريب أن الذين يرفعون شـعار « الـكيف » تجدهم يطالبون الأزهر فى الوقت نفسه بتغطية احتياجات العالم الاسلامى الى مدرس الدين والعربيـة والأئمة والدعاة ، وهم يريدون لمصر وحدها من الأئمة وحـدهم سبعين ألفـا لوجود سـبعين ألف مسجد بحاجـة الى امام « الآن » ؟•

ان العـلاقة بين الـكم والـكيف علاقة تبادليـة استمرارية ، يتقدم فيهـا كل منهما بخطوة يخطوها الآخر على طريقه • ماذا لو أن قضية « الـكيف » استأثرت — وحدها — بالعقول فى حركة الدعوة الاسلامية فى صـدر الاسلام ، بحيث لم تكن تخطو خطوة بعد جيل الصحابة الا بعد استيثاق من أن جيلا مماثلا قد تكون ؟

ماذا كان يحدث لحركة الدعوة الاسلامية ذاتها ؟

بل ماذا كان يحدث لقضية « الـكيف » نفسها فى نهاية الأمر ؟

وماذا لو أن حركة التعليم فى مصر بعامة تسلطت عليها قضـية « الـكيف » وحدها ، فأصرت على أن يكون انتاجها مقيدا بأمثال طـه حسين ، والسنهورى ، ومشرفة باشا ؟

ماذا كان يحدث لحركة التعليم وللحركات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية المرتبطة بهـا ؟ بل ماذا كان يحدث لقضية الـكيف نفسها فى نهاية الأمر ؟

هل يقال : ان تلك الحركات كانت بازاء ضرورات عمليـة تفرض منطقها ، وتلجىء الى السماح « بالـكم » بجوار العناية « بالـكيف »؟

نقول : حسن ، وهذا مانود أن نقوله فى قضايا الأزهر ، فالدعوة الاسلامية — وأهداف الأزهر عموما — ليست ترفا ننتظر به الى وقت الكمال الكيفى ، مهما بعد الوقت وامتد الترحال

كلا : انهـا ضرورة عمليـة أيضـا ، بل هى ضرورة عملية أشد وألصق •

اننا نحذر من دعوات تبدو مثالية تنادى بغلق المعاهد والكليات والاكتفاء بمستوى خريجى بداية القرن ، حيث كان عددهم لايتجاوز العشرين كل عام •

ان مسئوليات الأزهر اليوم تتزايد أضعافا مضاعفة فى عصر التحرير والاستقلال ، ان عدد الخريجين من الأزهر فى مجتمع الأمس الذى كان يحكمه الاستعمار على مستوى العالم الاسلامى كله ليس هو نفس العدد المطلوب فى مجتمع تخلص من الاستعمار فاتجه فى اليوم التالى الى الأزهر ليقول له : أين مدرسوك ؟ أين دعاتك ؟ أين المنح؟ أين ماتعوض به قرونا من التخلف والجهل والاستعباد ؟ أين ؟ أين ؟

ان الكم هو فى بعض المراحل المناخ الضرورى لانتخاب الكيف•

وعلاجا لهذه المشكلة نرى فتح المنافذ لظاهرة الكم فى القاعدة، **والتخلص من أضرارها بتعديل نظرتنـا الى « مفهوم » المستوى الرفيع أولا ، ثم بتقليل مسئوليات « الخريج » ثانيا من ناحيـة ثانيـة ، ثم التخلى عن الاهتمام بالكم فى مستوى الدراسات العليا ثالثا •**

ان مفهوم المستوى الرفيع يجب أن نهجر فيـه النمط القديم حيث يكون فيـه الخريج مشتغلا باعراب كتاب فى « الفقـه » خبيرا بأغراض المؤلف — أى مؤلف ولو كان تركيا — من استعمالاته للألفاظ، عارفا بعشرات الأدلة لمسألة واحدة ، يجب أن نهجر هذا النمط الى نمط

جديد يكون فيــه الخريج قادرا على التعبير الصــحيح ، قادرا على اكتشاف المحاور الرئيسية للأدلة المتصايحة ، قادرا على التفرقــة بين مايقال فيفيد ، وما يقال فيؤدى الى عكس الغرض المقصــود ، عارفا بالجو الاجتماعى الذى يخضع له الأفراد ، وتخضع له المجتمعــات ، وبالمدخل الذى يتمكن به من احداث التغيير فى هذا المجتمع ، قادرا على التمييز بين الغث والسمين من التراث •

اما عن تقليل مسئوليات الخريج فليس من الحتم أن يكون هــذا الخريج — بمجرد تخرجــه — قــديرا على الفتوى ، متزعما لأبنــاء منطقته اسلاميا كما كان حال الخريج القديم — مع ملاحظة أن الخريج القديم لم تكن تعقد له هــذه الزعامة لمحض ماحصــل عليه من علم ، وانما لعمق ماكان فى بيئتــه من تسليم وانقياد — يكفى بالنسبة لخريج اليوم ونحن نعطيــه أربعين جنيها تساوى تماما أربعين قرشا مما كان يحصل عليه الخريج القــديم (الذى كان يحصل على ثلاثة جنيهات)• أقول يكفى لهــذا الخريج أن يبــدأ مسئوليــاته من مستواها الأدنى تحت وصــاية من سبقه فى التخرج بعشرة سنين مثلا ، ثم ليترقى فى مسئولياته بعد ذلك درجــة بعــد أخرى كلما مارس العمل واجتــاز التدريبات ، واكتسب الخبرة •

الحاجة الى تطوير جديد :

ان قانون ١٩٦١ لتطوير الأزهر اهتم أساســا بمشــكلة انعزال الأزهر فأسهم بذلك فى تجنيبــه عوامل الاندثار التى كان يتعرض لها منذ بداية القرن ، وتركه بعد ذلك مع مشاكله الأساسية التى أخــذت تتفاقم لانخفاض المستوى التعليمى من ناحية ولعجزه عن الوفاء بأهم أهدافه من ناحية أخرى ، ونجاحه فيما يتصل بتنمية الفكر الاسلامى ونشر الدعوة •

ومن هنــا فانه لابد من تطوير جديد للأزهر •

والسؤال الآن : ماذا نفعل ؟

أنا شخصيا أراه سؤالا متحديا ، لا يمكن الاجابة عليه من خلال رأى فردى ، بل لابد من عقد مؤتمر أو مؤتمرات — لهـذا السؤال ، يفتح فيــه المجال لرجال الجامعة والمجمع والمعاهد والفكر الاســلامى والدعوة وللخبراء المختصين ، ليـدرسوا المشكلة فى أبعادها الاسلامية والثقافيــة والاجتماعيــة والتربوية ، وليحيطوا علمــا بالمتغيرات التى أحاطت بهــا ، وليصلوا بعــد ذلك الى جواب علمى مدروس ، يمكن الأزهر من القيام بأهدافه التى تعطلت .

ومن أجل عقد هذا المؤتمر فاننى أقترح أن تؤلف لجنة تحضيرية عليا لهذا المؤتمر برئاسة شيخ الأزهر تضع الاطار العام لتشكيل المؤتمر وأهــدافه وسير العمل فيه ، وتتفرع عنها لجان فرعية تختص كل منها بدراسة موضــوع من موضوعات المؤتمر ، ويمكن أن تكون هناك لجنة لتحديد أهــداف الأزهر بوجه عام ، ووضع أهداف مرحلية للخمسين عاما القــادمة ، ولجنــة لموضــوع تحفيظ القرآن الــكريم لطــلاب الأزهر ، ولجنة للدراسات العربية والاسلامية فى الــكليات الحديثة ، ولجنة للدراسات العليــا فى الأزهر ، ولجنة لمنــاهج كليات الدعوة ، ولجنة لمنــاهج الــكليات التقليدية ، ولجنة لمشكلة المستوى التعليمى لخريج الأزهر ومسئولياته بوجه عام ، ولجنة لعلاقة الأزهر بالعــالم الاســلامى ، ولجنة لتنسيق العــلاقات بين هيئــات الأزهر ، وتعطى هذه اللجان فرصة للعمل الجاد تتراوح بين ستة أشــهر وعام على أن تصب أعمــال هذه اللجنة فى اللجنة التحضيرية العليا التى تطرح هذه الدراسات بالمؤتمر العــام .

أزمة الفكر الاسـلامى الراهن

الخطر الأكبر الذى يتهدد الحركة الاسلامية فى اعتقادى هو فى تراكم العجز فى الفكر الاسلامى المعاصر ، حتى صار هذا العجز أزمة كبرى •

ومع الأسف أرانى ملزما بأن أسوق هنـا تحفظا كنت أتمنى أن نكون فى غير حاجة الى ذكره • ذلك أننى عندما أتـكلم عن الأزمة فى الفكر الاسلامى المعـاصر فاننى أعنى أزمة فى عقول البشر ، البشر المعاصرين أولئك المسئولين عن الربط بين الشريعة والواقع •

وقد يغيب عن الـكثيرين منا أن عبقرية التطبيق الاسـلامى فى الصـدر الأول للرسالة لم تكن فقط لأن الله سبحانه وتعالى قيض لهذا الصـدر الأول وحيا ينزل ، ورسولا يتلقى ، ولـكنه كان بعد ذلك ومع ذلك فى أن قيض الله لهم — وفقا لسنته فى الحياة — جيلا ممتازا من البشر قادرا على صـنع الصـلة بين الشريعـة المنزلة ، والواقع المعـاش •

حقا ان رسول الله ﷺ قـد ترك فينـا ما ان تمسـكنا به فلن نضل أبدا ، كتاب الله وسنة رسوله ، لـكنه قـد بقى علينا أن نقول : ان الجهد الأكبر هو فى نقل هذا التمسـك من دائرة الأحلام والأمانى الى دائرة الواقع الحى ، وانها لـكبيرة الا على المخلصين •

وفى رأيى أن أزمة الفكر الاسلامى المعاصر ليست فى حركة الغزو الفكرى المناهض للاسلام ، فتاريخ الفكر الاسلامى — وفى قمة حيويته وعنفوانه — لم يكن يخلو على الاطلاق من أعنف صـور هـذا الغزو وأخبثها ، ولا تحلم حركة فـكرية بأن يخلو لها الجو من هـذا الغزو الا أن تكون هذه الحركة قد ارتضت لنفسها العجز واستنامت اليه •

كذلك فان أزمة هـذا الفكر ليست فى تطفل المتطفلين عليه ، بأن يقتحمه غير المتخصصين أو بأن تصـدر الفتاوى من غير المفتين ، فهذا فى حقيقة الأمر مجرد ظاهرة للأزمة وليس هو الأزمة فى ذاتها ، تلك أعراض المرض وليس المرض نفسه ٠

وانمـا الأزمة فى رأيى هى فى تراكم العجـز عن وضـع الحلول العملية لمشاكل الحيـاة الاسلامية ، فـكرا وتطبيقا ، ووصول هـذا العجز الى مرحلة أقرب ماتكون الى الشلل التام ٠

واذا كنت قد عقدت العزم فى هذا المقال على رسم بعض مايبدو لى انه يشكل ملامح الأزمة فى الفكر الاسلامى المعاصر ، فانى أكتفى بأن أشير الى أهم المسائل دون أن أزعم الاحاطة فيها ، ودون أن أزعم أنى القادر على وضع الحلول لها ٠

انه يمكننى أن أشير الى بعض مظاهر هذه الأزمة ، كما يمكننى ويمكن للـكثيرين غيرى أن يتحدثوا عن أسـبابها ، لـكننا بعـد ذلك يجب أن نعقد العزم على وضع الأسباب والمداخل التى تمكن من اقامة « الجسر » الذى يربط بين الأمل والواقع ٠

ليس عندى ولا أزعم أنى على المستوى الذى أقـدم فيه الحلول الـكافية والا لمـا قامت الأزمة أصلا ، لو أنهـا كانت فى انتظارى ، فمثلى على أرض الأزمة يعدون بالملايين ، ولـكنى أزعم أنى قادر على الاسهام فى وضع تصور صحيح لملامح الأزمة وأبعادها ٠ كما أنى أزعم أنى قادر على تقـديم اقتراح شـديد العموميـة يشير من بعيد الى طريق الحل ٠

أما عن ملامح الأزمة وأبعادها ، فانى أسجل هنا بعض الصور ٠

الاجتهـــاد والتقليـــد :

مثلا هنـــاك مشكلة المذاهب : الفقهية وغير الفقهية ٠ هل انتهينا بالفعل من وضع حل اتفقنا عليه لـــكيفية الأخذ منها أو الترك لها ؟

هل نتشدد فى الارتباط بواحد منها ؟

أم نلفق ؟ أم نتحرر ؟

وماذا يكون أثر التشدد فى الافتقار الى حلول جـــديدة لمشـــاكل جديدة : كالتأمين مثلا ؟ وماذا يكون أثر التحرر ؟

كيف نواجه ادعاء بعض الأفراد أو بعض الجمـــاعات : ادعاء كل منهم أنه على مستوى التحرر ، وعلى مستوى الاجتهاد وعلى مستوى الرجوع المباشر الى الـــكتاب والسنة ؟

وهل هناك مؤسسة أو جماعة أو أفراد اتفقنا على وجوب الأخـــذ منهم ؟

وكيف تواجه التشتت والتمزق الذى يترتب على دعوى التحرر والاجتهاد هذه ، وقد يصل هـــذا التحرر والاجتهـــاد الى الدخول فى دوامة رهيبة جديدة من التنابز بالكفر ؟ أم نرجع الى المذهب القديم : وحتى فىهذه الدائرة ماهو الموقفمثلا منمذهب عريق يبيح شرببعض الأنبذة مالم يسكر ؟ وماذا يحدث من نتـــائج منطقية عنـــدما نرفض هذا الجزء من هذا المذهب ؟

ما أثر ذلك على المـــذهب ككل ؟ بل ما أثر ذلك على المـــذاهب الأخرى ؟ بل ما أثر ذلك على التراث عموما ٠

أم يكون الحل فى الاتفاق على تقبل الدائرة الأوسع من المرونة والتيسير فلا نشجب رأيا له نوع من الانتساب الى الأصول الاسلامية؟

الحـــــدود :

واذا أردنا أن نقتحم بعض القضايا على سبيل التخصيص : ففى الشبهات التى تسقط الحد — وعلى سـبيل المثـال — ما الموقف من اعتبار المختلس غير « سارق » يطبق عليه حد السرقة ؟ نعم هناك مبدأ « التعزير » لـكن ماذا يبقى بعد ذلك لمبدأ « الحد » من فعاليـة فى هذا الموضـوع ؟

الزكـاة :

ما الموقف من اعتبار « المنشآت » الصناعية الحديثـة غير داخلة فى أموال الزكاة الا باعتبـار مايخرج منها من أموال سائلة يطبق عليها حكم زكاة « النقود » فينتظر بها الى أن تدخر ويعرف أنها قـد ادخرت وحال عليها الحول وعندئذ يجب فيهـا الزكاة ؟ ما أثر رفض اعتبـار هذه المنشآت كالزروع التى تسقى صناعيا ويستخرج منها نصف العشر بمجرد خروج الثمرة ؟

ما أثر ذلك كله على فاعلية الزكاة فى حل مشاكل المجتمع ، وقـد أتحنا الفرصـة لثمرات المصـانع أن تهرب الى حيث لا يمكن ملاحقتها الا فى قلوب « المتقين » ؟ ما أثر النظر الى الزكاة على أنها فريضـة تعبدية لا معنى « للاجبـار » عليها وقـد علت الأصـوات بذلك فى وقت من الأوقات ؟ وما علاج واقع التهرب من أدائها ؟

وما أثر ذلك فى انهيار الجانب التطبيقى من هذه الفريضة ؟ ولمن يكون الدور الفعال فى هذا الشأن ؟ أيكون للدولة أم يكون للدعوة ؟

الربـــا :

كيف نتخلص من الربا ونحن مازلنـا نصر على أن المال لا يكون كنزا يحمى عليه أجساد أصحابه فى النار اذا أديت عنـه الزكاة ؟ ثم

نترك أداة الزكاة لصحوة الضمير عند المتقين ؟ كيف ونحن بهذا الحال نواجه فاعلية « الفائدة » بفاعلية مقابلة ، مالم تصدر الفتوى صريحة قاطعة بحرمة « حبس المـال » فى البيوت مع اجراءات أخرى تجعل المسلم مندفعـا الى وضع أمواله المـدخرة تحت تصرف المنفقين دون انتظار الفائدة أو الربا ؟

وكيف نتخلص من الوضع الراهن فى الربا ؟ أنفعل ذلك دفعـة واحدة مهما يترتب على ذلك من انهيـار فى البنـاء الاقتصادى القائم وما يترتب على ذلك من اغلاق مؤسسات ومصانع ومتاجر ؟ هل نفعـل ذلك الآن ؟.

أم ننتظر ظهور مجتمع « الأتقيـاء » الذى يتقبل ماسوف يترتب على ذلك من عجز فى سد مطالب الاسـتهلاك ؟ وهل يجرؤ أحـد من أصحاب البنوك الاسلامية الحديثة أن يدعى أن هذه البنوك يمكنها أن تستوعب وحدها الأموال السائلة بينما هى تلتزم فى حركتها بمشروعات انتاجية أو تجارية محدودة الدائرة مضمونة الربح ؟

العـدالة والانتـاج :

وأزمتنا الاقتصـادية فى العـالم الاسلامى النامى هل هى أزمة عدالة فى جوهرها أم أزمة انتـاج ؟ هل هنـاك جواب واضح فى دائرة الفكر الاسلامى المعاصر فى هذا المجال ؟

وما هى العناصر المطروحة للحل فى هذا وذاك ؟ ان كانت الأزمة فى جوهرها أزمة عدالة فيعود السؤال عن كيفية الربط بين المبـادىء والواقع ؟.

التكنولوجيـا :

وان كانت الأزمة فى الانتـاج فما عيـوب المسلم المعـاصر فى اضطلاعه بمسئولية الانتـاج ؟ وكيف نجعـله « ملائمـا » لمقتضيات

« التكنولوجيا » المعـاصرة ؟ وما التعديلات التى يجب اجراؤها على القيم المتعارضـة مع طبيعـة « التكنولوجيـا » والتى نسمح بها فى الوقت نفسه ؟

أم نجعل الأولوية لقيم « التكنولوجيا » ؟ واذن فما وجه الثورة على الجاهلية ؟ أم نسقط قيم « التكنولوجيا » من حسابنـا ؟ وعندئذ فـكيف نصمد أمام امتلاك العـدو لهذه « التكنولوجيا » ؟ أم نصر على امكان استيراد « التكنولوجيا » دون أية شائبة من قيمها الخاصة المعارضة ؟ أم تكون لنا نظرتنا الخاصة الى التكنولوجيا ؟

التضـخم :

وما رأى الفكر الاسـلامى المعاصر فى ظاهرة اسـتعمال الدولة لسلطة « استصدار البنكنوت » ؟ سواء وجد لذلك غطاء أو لم يوجد ؟ وما الغطاء ؟ أهو الذهب أم الفضـة أم الانتاج ؟ وهل درست علاقة التضخم بالفـائدة الربوية دراسة شـافية ؟ وما علاقة التضخم بحكم الشريعة فى أكل أموال النـاس بالباطل ؟ وما حق من يؤخـذ منـه بالتضخم فى أن يأخذ من غيره برفع الأجور أو رفع الأسعار ؟ أو بشكل آخر من أشكال التعويض تتحقق فيه قاعدة الغنم بالغرم ؟

هل هناك صوت مسموع للفكر الاسلامى المعاصر فى هذا المجال ؟

الشـورى :

وما الموقف من تطبيق مبدأ « الشورى » فى الاسلام ؟

هل نأخذها كما وردت فى التراث ؟ فكيف وقد طبقت بأشـكال مختلفـة •

والى أى حد لايستقيم فى العصر الحاضر أمر الشورى مالم تنظم « المعارضـة » تنظيما عمليا ؟ وماذا يؤدى اليه هذا الموقف من قبول فـكرة الأحزاب أو رفضها ؟

شروط الحاكم :

وكيف نعالج أمر اختيــار الحاكم — حلا عمليا — فى ظل اشتراط أن يكون الحاكم مجتهدا على أعلى مستوى فى الفقه والعلم بالشريعة، وأن يكون فى الوقت نفسه على أعلى مستوى فى الممارسة السياسية والخبرة بها ، وأن يكون أيضا على أعلى مستوى فى فرض سلطــانه ، والزام النـــاس بهيبة حكومته ؟ هل يمكن أن نحلم بوجود هذا الشخص أم لدى الفكر الاســـلامى المعـــاصر حل عملى بانشاء مؤسسات بجوار الحاكم لجبر النقص فى هذا الجانب أو ذاك فى شخص لا يجمع بين هذه الشروط ؟

العــلاقات الدوليــة :

وماذا عن تعاون الحكومة الاســـلامية مع قوة غير اســـلامية اذا اتفق هذا التعاون مع أهداف الحركة الاسلامية اتفاقا مرحليا ؟

أيكون ذلك « موادة » لمن يحاربون الله ورسوله أم عملا من أعمال السياسة الدنيوية الاســـلامية ؟ أم عملا من أعمال السياسة التى لاشأن للاســـلام بهـــا ؟ وما الحدود التطبيقية لمـــا يكون منها عملا سياسيا مسموحا به ؟ وما يكون « موادة » محرمة ؟ ومن صـــاحب الحق فى وضع هذه الحدود ؟ ومن صـــاحب الحق فى الاقرار بوجودها ؟ أم ليست هنـــاك حدود ظـــاهرة انما هى أمور تتعلق بنوايا القلوب ؟ واذا فـــكيف نعرف الفرق بين أشد الأنظمة اخلاصا للاسلام وبين أشـــدها « عمالة » لأعداء الاسلام ؟

الدعوة والسلطة :

وكيف نقيم العلاقة بين حركة « الدعوة » وحركة « السياسة » فى المجتمع الاسلامى ؟ أينبغى أن يكونا حركة واحدة مندمجة ؟•

أم ينبغي أن تكون تلك في قنـاة وهذه في قناة ؟ وكيف تستقيم الأمور بينهما عنـدئذ ؟ وما الروابط التي ينبغي أن توضع قوية هنـا وأن توضع ضعيفة هنـاك بين القنـاتين لمصلحة الحركة الاسـلامية ككل ؟ وكيف يمكن للحركة الاسلامية المعاصرة أن تتحرك في الاتجاهين: اتجاه الدعوة واتجـاه السياسـة دون خشـية من صراع مدمر يقع بينهما ؟ وكيف نتصدى للدفاع عن جمعيـات الدعوة باعتبار أن هـذا دفاع عن الدين نفسه ؟ وكيف نجنب هذا الدفاع أن تكون فيه اسـاءة الى الدين تارة ، وأن تكون فيـه اساءة الى الجمعية تارة ؟ الى الدين بتحميله أخطاء البشر وهو منها براء ؟.

والى الجمعية بالتعمية على مسيرتها وحرمانها من النقد والنصح والترشـيد ؟.

واذا كان من البـديهي تفضيل جمعيـة الدعوة على غـيرها من أصحاب الاتجاهات المعارضـة للاسلام ، فانه أليس من الصحيح أيضا ألا ننزلق في مجال الحرص على الجمعية الى ادعاء نقاوتهـا والبعـد عن نقـدها ؟.

الشـباب :

وما الحلول التطبيقيـة في عالمنـا المعـاصر لأزمة شـبابنا في الزواج والآثار المـدمرة التي نعرفها لذلك على الحياة الاجتماعية ؟ أم نضع رؤوسنا في الرمال ونفترض أن يكون شبابنا فوق المتوسـط من التقوى والتعفف في مجتمع يعد أفراده لا بالمئات ولا بالآلاف ولـكن بعشرات الملايين وهو يموج بأعنف تيـارات التغيير ؟ أين هو الفـكر الاسلامي المعاصر الذي يعالج هذه المشكلة بأسلوب عال من أسـاليب الدراسة العملية ؟

الاعـــــلام :

وكيف عالج الفكر الاسلامى المعـاصر ثورة وسائل « الاتصال » المعاصرة فى الاذاعة والتليفزيون وشرائط التسجيل وأثرها على بنــاء « القيم » التى تحرص عليها ؟ ففى التليفزيون مثلا : هل نعــالج الأمر بالغاء البرامج المنحرفة ؟ حسن ، لــكل ما الحل ؟ وهــذا التليفزيون سوف يستقبل فى وقت قريب برامج تبثها أقمار صــناعية عالمية دون حاجة الى محطات أرضــية تستقبلها وتعيد ارسالها ؟ هل يكون الحل فى تكنولوجيا مضادة ؟ ولــكن كيف نواجه الفيديو ؟

وما أثر التــدخل فى « مستورات » البيوت فى هذا المجال وغيره على نظرة الاســلام للتجسس ؟ هل نلتزم بفعل عمر — رضى الله عنه — عندما الغى تصرف الدولة القائم على التجسس ؟ أم نلغى مافعل عمر رضى الله عنه ؟ وعلى أى أساس ؟ وماذا يترتب على منهج كهذا ؟

التــــاريخ :

وفى التــاريخ الاســلامى : هل نراه قــد كتب فعلا ؟ ذاك تاريخ المســلمين ، أو تاريخ بعض منهم ، لــكن أين تاريخ الاســلام بمعنى رؤية الاســلام للتاريخ من خلال قيم معينــة تصعد أو تهبط من خلال العصور المتوالية ، فقد يكون هناك اذا عصر أبى حنيفة ، وقــد يكون هنــاك عصر الغزالى ، وقــد يكن هنــاك عصر الأشاعرة ، وقــد يكون هنــاك عصر الباطنية ، وقــد يكون وقــد يكون ، فى تقابل وتحــاور وصراع بين القيم ، التى يمثلها هؤلاء أو أولئك ، أو يمثلها أغلبية من هؤلاء أو أغلبية من أولئك ؟.

مع مايكون لذلك من أثر خطير على رؤية الحركة الاســلامية فى المستقبل ومشاكلها وحلولها ؟.

الأولويات :

وما أثر المبالغة فى « المندوبات » المطروحة على أوسع نطاق فى الفكر الاسلامى؟ وما علاقة ذلك بسلم الأولويات الذى يمكن طرحه فى هذا المجال ؟ وهل أصبح الفكر الاسلامى المعاصر على رؤية واضحة متفق عليها بالنسبة لما يمكن أن يسمى سلم الأولويات ؟ وهى أولويات يمكن أن تطرح نفسها ، لا بين الواجبات والمندوبات فحسب ، ولكن بين الواجبات بعضها مع بعض أيضا ؟

وهل نقر سلما للأولويات ؟ وكيف نتفق عليه ؟ أم نظل ننادى بالحل دفعة واحدة ؟.

وكيف ننادى بالحل دفعة واحدة فى غيبة الرؤية الواضحة للحلول العملية أليس التدرج أقرب الى انجاز الحل الاسلامى اذ يفترض توارد الحلول شيئا فشيئا على الطريق ؟

التقوى :

وهل تكفى « التقوى » كقنطرة ننتقل بها من « المبادىء » الى « الواقع » المطلوب ؟.

واذا فأى نظام — اللهم الا الأنظمة التى تجاهر بعدائها للاسلام — يمنع من « الدعوة » الى « التقوى » ؟

أم يقال ان « التقوى » ليست مجرد « دعوة » ولكنها عملية ايجاد الظروف الموضوعية التى تسمح بها ؟ واذا فعود على بدء ، اذ نقول : وكيف ؟

كيف الانتقال الى هذه الظروف الموضوعية وكيف نضع الحلول ؟ وأين نجد فى الفكر الاسلامى المعاصر المسئول ، أين نجد « البلورة » لهذه الحلول ؟.

مشاكل أخرى بالغة الأهمية :

وباجمال أشد هنـــاك مشاكل فـــكرية وتطبيقية لا يمكن انكارها فى مجموعة من الأمور : فى تصور العـــلاقة بين رجال الفقه بالاسلام، وبين رجال الممارسة السياسية • فى تصور الطريقة الصحيحة للتعامل مع المجتمع الصناعى • فى التنسيق بين الحركة الاسلامية وهى تنبع من قرار السلطة العليـــا ، وبين حركتها وهى تنبع من الامتثال الشعبى لأحكام الشريعة •

فى ميدان التراث وماذا يستحق منه أن يبعث حيا •

فى ميدان التعليم ، وكيف يكون التخصص فى الدين •

فى ميدان الدعوة وأين نبـــدأ ؟ فى المجتمع الاسلامى ؟ أم فى مجتمع غير اسلامى ؟ وفى المجتمع غير الاسلامى أيهما أولى ؟ المجتمع المتدين بدين ، أم المجتمع الملحد أصلا ؟ وما هى الوســـائل المنـــاسبة للعصر ؟•

ضرورة المواجهة :

لـــكن هل وصلنا الى درجة اليأس ؟

كلا والف كلا — ولـــكننا ندعو الى المواجهـــة ، مواجهة هـــذه الأزمة منذ الآن • وهى مواجهة تفرض نفسها ، ان لم نبادر نحن اليها بادرت هى الى حركة الدعوة الاسلامية « المسئولة » عن « التطبيق » فتقضى عليها فى مهدها •

انها مواجهة أخطر من مواجهة أعـــداء الاسلام ، انها مواجهـــة ندعى اليها ونحن فى الوقت الفـــارغ ، فلم نضـــيعه فى المشاحنـــات اليـــائسة ؟•

ليكن ان الحركة الاسلامية اليوم مكبلة الأيدى فى كثير من أنحاء العـالم ، ليكن هذا أو ذاك لـكن لم نضيع الوقت بأيدينا ، وأمامنـا مسئوليات داخلية : أى داخل الفكر الاسلامى نفسـه سـوف تفرض نفسها علينا عمليا غدا أو بعد غد ؟ وعند ذاك سوف نضيف الى تقصيرنا الشديد تقصيرا أشد عندما يبدو تقصيرنا وكأنه فشل الدعوة الاسلامية ذاتها بينما هذه الدعوة بريئة كل البراءة مما تصنعه أيدينا •

الحل الأسـاسى :

وأخيرا فانه اذا كان لابد من الاشارة الى حل أسـاسى يشير الى أول الطريق فهو ما اعتقده من ضرورة معالجة الحالة العقلية التى يمر بهـا المجتمع الاسـلامى على جميع المستويات ألا وهى حالة المرض العقلى المتمثل فى الفصل بين « النظر » و « العمل » ننظر فيمـا لا « عمل » من ورائه ، ونعمل فيما لا « نظـر » من أمامه • والدعوة الملحة اذا هى فى سرعة العودة الى الربط بين النظر والعمل على سـنة سنها الاسـلام ، وسار عليها الصدر الأول ، وأخيرا فانه فى مجـال الاسلام بخاصة •••• لا استبعد حصول « المعجزة » حقا أؤمن بذلك •

ولـكن من الحق أيضا ألا ننتظر •

ألا هل بلغت ؟

اللهم فاشـهد ••

« تم بحمـد الله وتوفيقـه »

فهـرس

بأهم المصـادر والمراجع

مرتبة حسب ورودها فى صفحات الـكتاب

أولا : القرآن الـكريم والسنة المطهرة •

ثانيا :

١ ــ « عوامل وأهداف نشأة علم الـكلام فى الاسـلام » للدكتور يحيى هاشم حسن فرغل ــ طبعـة مجمع البحوث الاسـلامية عام ١٩٧١ •

٢ ــ المختار من كنوز السنة النبوية ، للدكتور محمـد عبد الله دراز نشرة أمير دولة قطر •

٣ ــ محصل أفـكار المتقدمين والمتأخرين ، للامام فخر الدين الرازى طبعة المطبعة الحسينية المصرية عام ١٣٢٣ هـ •

٤ ــ شرح العقيدة الطحاوية ، لابن أبى العـز ، نشر زكريا يوسف بالقاهرة •

٥ ــ شرح العقائد العضدية للايجى ، للعلامة جـلال الدين الدوانى مع حاشية للامام محمد عبده •

٦ ــ ملاحظات نحو تعريف الثقافة لـ : ت• س• اليوت ، ترجمـة الدكتور شكرى عياد ، نشر وزارة الثقافة والارشاد القـومى بالقاهرة •

٧ — كتب غيرت العـالم لـ : روبرت. ب. داونز ، ترجمة أمين سلامة ، طبعة ١٩٧٧ .

٨ — محاضرات فى الثقافة والفكر الاسلامى للأستاذ الدكتور عدنان زرزور ، رئيس قسم الدراسات الاسلامية بجامعة الامارات .

٩ — قصة الصراع بين الدين والفلسفة ، للدكتور توفيق الطويل طبعة ١٩٧٩ .

١٠ — بين العلم والدين لأندرو ديكسون وايت ، ترجمة اسماعيل مظهر طبعة ١٩٣٠ .

١١ — مايعد به الاسلام لروجيه جارودى ، ترجمة قضى أتاسى وآخرين ، نشر دار الوثبة ، الطبعة الثانية عام ١٩٨٣ م .

١٢ — لماذا تأخر المسلمون وتقدم غيرهم ، للأمير شكيب أرسلان ، طبعة ١٩٦٥ .

١٣ — العلمانية والاسلام : بين الفكر والتطبيق ، للدكتور محمد البهى ، طبعة مجمع البحوث الاسلامية .

١٤ — نقض كتاب « الاسلام وأصول الحكم » للامام الشيخ محمد الخضر حسين ، طبعة القاهرة ١٣٤٤ هـ .

١٥ — حكم هيئة كبار العلماء فى كتاب « الاسلام وأصول الحكم » نشرة الأزهر عام ١٣٤٤ هـ .

١٦ — الموافقات ، للامام الشاطبى ، طبعة المنار ١٣٣٢ هـ .

١٧ — الاعتصام ، للامام الشاطبى ، طبعة المنار ١٣٣٢ هـ .

١٨ — أعلام الموقعين ، لابن قيم الجوزية ، طبع مطبعة النيل بمصر .

١٩ — الأبطال لتوماس كارليل ، ترجمة محمد السباعى ، نشر المكتبة التجارية بالقاهرة .

٢٠ — الاسلام بين العلماء والحكام ، للأستاذ عبد العزيز البدرى ، نشر المكتبة العلمية بالمدينة المنورة ١٩٦٦ .

٢١ — الاسلام والحضارة العربية : جزءان للأستاذ محمد كرد على ، الطبعة الثالثة للجنة التأليف والترجمة والنشر عام ١٩٦٨ .

٢٢ — من أخلاق العلماء ، للشيخ محمد سليمان ، طبعة مجمع البحوث الاسلامية بالأزهر .

٢٣ — شمس العرب تسطع على الغرب للمستشرقة الألمانية زيجريد هونكه ، ترجمة فاروق بيضون وكمال دسوقى ، نشر دار الآفاق الجديدة ببيروت الطبعة السادسة ١٩٨١ م .

٢٤ — المساواة فى الاسلام ، للدكتور على عبد الواحد وافى ، طبعة دار المعارف عام ١٩٦٢ .

٢٥ — الاسلام دين المستقبل لروجيه جارودى ، ترجمة عبد المجيد بارودى ، نشر دار الايمان بدمشق وبيروت عام ١٩٨٣ م .

٢٦ — الاسلام فى مفترق الطرق لمحمد أسد (ليوبولد فايس) ترجمة عمر فروخ ، طبعة ١٩٧٧ بيروت .

٢٧ — فلسفة العلم : لفيليب فرانك ، ترجمة د. على على ناصف طبعة بيروت عام ١٩٨٣ .

٢٨ — « شبنجلر » للدكتور عبد الرحمن بدوى ، نشرة دار العلم بيروت عام ١٩٨٢ م

٢٩ — محنة الديموقراطية لهارولد لاسكى ، ترجمة ونشر مجموعة اخترنا لك ، العدد ٦٥ ، ٦٦ .

٣٠ — البيئة ومشكلاتها ، تأليف رشد الحمد ومحمد صباريني ، نشر عالم المعرفة بالكويت .

٣١ — العقيدة الاسلامية بين الفلسفة والعلم للدكتور يحيى هاشم حسن فرغل ، نشر مكتبة المكتبة بأبى ظبى عام ١٩٨٢ .

٣٢ — الاسلام فى القرن العشرين لعباس محمود العقاد ، طبعة دار النهضة بمصر بالفجالة .

٣٣ — معالم شخصية المسلم : التكوين الأساسى ، للدكتور يحيى هاشم حسن فرغل ، نشر المكتبة العصرية ببيروت .

٣٤ — فواتح الرحموت بشرح مسلم الثبوت .

٣٥ — دراسة الكتب المقدسة فى ضوء المعارف الحديثة لموريس بوكاى ، نشر دار العارف .

٣٦ — الاسلام والاتجاهات العلمية المعاصرة ، للدكتور يحيى هاشم حسن فرغل ، نشر دار المعارف عام ١٩٨٤ .

٣٧ — من حياة العلماء لتيودور بيرلاند ، نشر دار النهضة العربية ترجمة د. أحمد بدران .

٣٨ — مواقف حاسمة فى تاريخ العلم للدكتور جيمس. ب. كونانت ، ترجمة الدكتور أحمد زكى ، نشر دار المعارف ١٩٦٣ .

٣٩ — آراء فلسفية فى أزمة العصر للدكتورة أدريين كوخ ، ترجمة محمود محمود ، نشر الانجلو ١٩٦٣ .

٤٠ — تكوين العقل الحديث لهرمان راندل ، ترجمة الدكتور جورج طعمة ، نشر دار الثقافة — بيروت .

٤١ — الفيلسوف والعلم لجون كيمنى ، ترجمة د. أمين الشريف ، نشر مؤسسة فرانكلين — بيروت عام ١٩٦٥ م .

٤٢ — فلسفتى كيف تطورت لبرتراند رسل . ترجمة عبد الرشيد صادق ، نشر مكتبة الانجلو المصرية ، طبعة عام ١٩٦٠ .

٤٣ — العلم والدين لأميل بوترو ، ترجمة د. أحمد فؤاد الأهوانى ، نشر الهيئة المصرية العامة للكتاب عام ١٩٧٣ .

٤٤ — بواتق وأنابيب ، تأليف برنارد جافى ، ترجمة د. أحمد زكى ، نشر مؤسسة فرانكلين ومطبعة النهضة المصرية .

٤٥ — انتصارات العلم الحديث لميلفين برجر ، ترجمة د. ثابت قصبجى والأستاذ عبد العزيز محمود ، طبع مطابع البلاغ .

٤٦ — نشأة الفلسفة العلمية لـ هانز ريشنباخ ، ترجمة فؤاد زكريا ، الطبعة الثانية ١٩٧٩ نشر المؤسسة العربية للدراسات والنشر بيروت .

٤٧ — المشاكل الفلسفية للعلوم النووية لفرينر هايزنبرج ، ترجمة الدكتور أحمد مستجير ، نشر الهيئة المصرية العامة للكتاب بالقاهرة عام ١٩٧٢ م .

٤٨ — الفيزياء والمكروفيزياء ، للويس دى برولى ، ترجمة د. رمسيس شحاته ود. محمد مرسى أحمد ، سلسلة الألف كتاب العدد ٦٣٤ نشر عام ١٩٦٧ .

٤٩ — العلم أسراره وخفاياه لهارلو شابلى وآخرين ، ترجمة د. جمال الغندور ومحمد صابر سليم ، طبعة ١٩٧١ .

٥٠ — عقائد المفكرين فى القرن العشرين لعباس محمود العقاد ، نشر مكتبة غريب .

٥١ — العقل والمادة لبرتراند رسل ، ترجمة أحمد ابراهيم الشريف ، طبعة عام ١٩٧٥ .

٥٢ — عالمنا المجنون لبرتراند رسل ، ترجمة د. نظمى لوقا ، نشر دار المعرفــة .

٥٣ — فتجنشتين ، للدكتور عزمى اسلام ، نشر دار المعــارف العدد التاسع عشر من سلسلة نوابغ الفكر الغربى .

٥٤ — مصير البشرية ليوكونت دى نوى : ترجمــة أحمد عزت طــه وعصام أحمد طه ، نشر دار اليقظة العربية فى دمشق ، الطبعة الثالثة عام ١٩٦٣ م .

٥٥ — كيف تدور عجلة الحياة ترجمة الدكتور محمد صابر سليم ، نشر دار المعارف عام ١٩٥٧ م .

٥٦ — العقل والدين لوليم جيمس ، ترجمة الدكتور محمود حب الله ، طبعة عيسى البابى الحلبى عام ١٩٤٩ .

٥٧ — ملقى السبيل للأستاذ اسماعيل مظهر .

٥٨ — الوراثة البشرية لآشلى مونتاجيو .

الدوريات

مجلة تراث الانسانية ، صدرت بالقاهرة .

مجلة عالم الفكر ، تصدر بالكويت .

مجلة العلم والمجتمع ، يصدرها اليونسكو وتترجم وتنشر بالقاهرة

مجلة ديوجين ، يصدرها اليونسكو وتترجم وتنشر بالقاهرة .

مجلة الحوادث ، مجلة سياسية .

جريدة الأهرام : وأهمها مقالاتمشكورة مأجورة عند الله للأستاذ الدكتور محمد عمارة ، ضد دعاوى العلمانيين .

تعريف بالمؤلف

١ — ولد بالقاهرة فى ٤ فبراير ١٩٣٣ فى أسرة نزحت من قرية بنى عديات من صعيد مصر •

٢ — كان والده الشيخ حسن محمد فرغل أستاذ علم الكلام بكلية أصول الدين بالقاهرة منذ عام ١٩٣٣ الى حين وفاته فى عام ١٩٤٦ •

٣ — حصل المؤلف على الشهادة العالية من كلية أصول الدين بالقاهرة عام ١٩٥٨ •

٤ — حصل على اجازة تخصص التدريس من كلية اللغة العربية بالأزهر بالقاهرة عام ١٩٥٩ •

٥ — عمل مدرسا للتوحيد والتفسير والحديث بمعاهد الأزهر بأسيوط والفيوم وبنها والقاهرة فى الفترة من ١٩٥٩ الى حين انتدابه عضوا فنيا بالأمانة العامة لمجمع البحوث الاسلامية بالقاهرة ابتداء من ١٩٦٤ •

٦ — عمل مديرا للسكرتارية الفنية لمجمع البحوث الاسلامية فى الفترة من ١٩٦٩ الى ١٩٧١ •

٧ — حصل على الماجستير فى العقيدة والفلسفة عام ١٩٧١ •

٨ — عين مدرسا مساعدا بكلية أصول الدين بالقاهرة فى ١٩٧٢/١٠/٥ •

٩ — حصل على الدكتوراة فى العقيدة والفلسفة من كلية أصول الدين بالقاهرة عام ١٩٧٦ ، ثم عين مدرسا بهذا القسم فى ١٩٧٦/١٢/٢٩ •

١٠ — عمل بالانتداب مديرا عاما لمكتب فضيلة الامام الأكبر الدكتور عبد الحليم محمود شيخ الأزهر ثم مستشارا خاصا له فى الفترة من ١٩٧٤ الى عام ١٩٧٧ .

١١ — نقل مدرسا للعقيدة والفلسفة بكلية الدعوة الاسلامية بالأزهر بطنطا فى ١٢/٩/١٩٧٧ .

١٢ — دعى أستاذا زائرا لجامعة أم درمان الاسلامية بالسودان لمدة شهر فى كل من عامى ١٩٧٧ ، ١٩٨٨ .

١٣ — عمل أستاذا للفكر الاسلامى والعقيدة بجامعة الامارات بأبو ظبى عن طريق الاعارة فى المدة من ١٩٧٩ الى ١٩٨٣ .

١٤ — حصل على درجة أستاذ مساعد من جامعة الأزهر عام فى ١٤/١/١٩٨١ .

١٥ — عمل رئيسا لقسم العقيدة والفلسفة بكلية أصول الدين والدعوة بالأزهر بطنطا بعد رجوعه اليها فى ٢٩/١٠/١٩٨٣ .

١٦ — حصل على درجة أستاذ من جامعة الأزهر فى ٦/٢/١٩٨٥ .

١٧ — عين وكيلا لكلية أصول الدين والدعوة بطنطا عام ١٩٨٥ .

كتب أخــرى للمؤلف

١ — نشأة الآراء والمــذاهب والفروق الـكلامية : نشر مجمع البحوث الاسلامية عام ١٩٧١ ·

٢ — عوامل وأهداف علم الـكلام فى الاسلام : نشر مجمع البحوث الاسلامية عام ١٩٧٢ ·

٣ — معالم شخصية المسلم : نشر المـكتبة العصرية بيروت عام ١٩٧٨

٤ — الأسس المنهجية لبناء العقيدة الاسلامية : نشر دار الفكر العربى بالقاهرة عام ١٩٧٨ ·

٥ — فى مواجهة الالحاد المعاصر أو عقائد العلم : نشر مجمع البحوث الاسلامية عام ١٩٨٠ ·

٦ — الاسلام واتجاهات الفكر المعاصر : نشر دار الإعتصام بالقاهرة عام ١٩٨٠ ·

٧ — الاسلام وفلسفة التسليم : طبعــة مكتبــة المـكتبة بأبو ظبى عام ١٩٨٠ ·

٨ — العقيدة الاســلامية بين الفلسفة والعلم : طبعــة مكتبة المـكتبة بأبو ظبى عام ١٩٨٢ ·

٩ — أساسيات العقيــدة الاسلامية : طبعة مكتبة المـكتبة بأبو ظبى عام ١٩٨٣ ·

١٠— أصول التصوف الاسلامى : مطبعة الجبلاوى عام ١٩٨٣ ·

١١— الاسلام والاتجاهات العلميةالمعاصرة: نشر دار المعارف بالقاهرة عام ١٩٨٤ ·

١٢— مداخل الى العقيدة الاسلأمية : عام ١٩٨٥ ·

١٣— بحوث فى الفلسفة : مطبعة عبير بحدائق حلوان عام ١٩٨٥ ·

فهرس الكتاب

صفحة

صفحة

الفصـــل الثانى

العلمانيــــــة ٣٧

صفحة

الفصـــل الثالث

صفحة

صفحة

صفحة

تم بحمد الله وتوفيقه

مطبعة الجبلاوى
٢٠٢ شارع الترعة البولاقية

رقم الايداع بدار الـكتب ٧٠٨٦/١٩٨٥